محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية على صفحات المجتمع

الجزء الثاني



محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية
على صفحات «المجتمع»

الجزء الثاني

كل الحقوق محفوظة

المجتمع

الكويت ص.ب (٤٨٥٠) الصفاة - الرمز البريد (١٣٠٤٩)
الموقع الإلكتروني: www.mugtama.com
البريد الإلكتروني: info@mugtama.com
تليفون: ٢٢٥١٤١٨٠ ٩٦٥ + - ٢٢٥١٩٥٣٩ ٩٦٥+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة، أو أى وسيلة نشر أخرى، أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية
على صفحات «المجتمع»

الجزء الثاني

مجلة المجتمع


بسم الله الرحمن الرحیم

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الابتداء[1]

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلمس ولا بد ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم. فأنت ترى داعية سالكًا مع السالكين، وتظن أنه سيثبت ويصل، إن شاء الله، مع الواصلين، ولكنه يخيب ظنك أثناء الطريق، بأن تصدمه رهبة أو رغبة، أو يستأسر لنداء نفس وهوى، فيغتر، ويستولي عليه التيه إدلالا وامتنانًا، فيصيبه الفتور.

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حينًا، ولكن تفرسنا في أنفسنا، والتنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين، بدأ يرينا ملامح من التفسير لها، إن وعيت حق وعيها لكان فيها، بأذن الله، ثبات القلوب، ولوقينا زلل الأقدام بعد ثبوتها.

هو صفاء الابتداء:

فأما الشاعر، فيشير إشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة، ويقول:

وكل امرئ، واللـــــه بالناس عالم له عادة قامت عليها شـــــمائله

تعودها فيما مضى من شـــــبابه كذلك يدعو كل أمـــــر أوائله[2]

والشاهد فيه: الشطر الأخير، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها.

ولكن أساتذة التربية الأوائل قربوا أدنى من الشاعر، فاتضح وانكشف لنا مذهبهم، بما فصلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٦)، ٣ المحرم ١٣٩٣هـ/ ٦ فبراير ١٩٧٣م، ص٢٦-٢٧.
(٢) الأغاني (١٢/ ٣١١).

منهم: أبو إسحاق الرقي، في حروفه القليلة الشاملة إذ يقول: «الفترة بعد المجاهدة من فساد الابتداء»[1].

ويريد بالفترة: الفتور.

فهو الابتداء إذن، أي الخطوات الأولى للداعية المريد في طريق الدعوة الموصل إلى الله، تكون صحيحة، فيرتقي بلا فتور ونكوص، وإن فتر فبمقدار لا يتعدى أدنى ما أثر من سنة النبي ﷺ، وتكون معيبة هذه الخطوات، أو فاسدة، في تعبير الرقي هذا، فيفتر وينكص عن الارتقاء.

ومن أين يعترض الداعية الفتور إذا دفعه مربوه بقوة أول مرة، واستلم العهد بحزم؟

وكيف لا يتسارع في يومه وغده سير الذي قربه وأدناه وقطع به أمسه مرحلة إلى غايته؟

ومن أيقن أنه يتبع رسولًا من أولي العزم، فكيف لا يستمد من عزمه؟

فهي الخطوات الأولى إذن.

من أتقناه إياها ثبتت بعدُ قدمه بما يشاء الله، ومن تركناه يضطرب فيها فقد أمسكنا شيطانه المقص يقطع به حبل ما بيننا وبينه، يتربص لذلك غفلة.

فإن لم يضفر الشيطان بالمقص، وفاتته المفاجأة، فإنه يقنع بأن نمسكه طرف الحبل يفل خيوطه بتدريج، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوى، فيدعي ويدعي، حتى يستولي عليه الغرور والتطاول، فيرتكس هالكا.

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها أبو عمرو السلمي ووصفها يحذرنا، فقال:

(١) طبقات الشعراني (١/ ٩٩).

«إنما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء، فمن صحت بدايته: صحت نهايته، ومن فسدت بدايته: فربما هلك»[1].

بل يهلك في الأغلب، فإن مبنى البداية على التجرد فإذا حرم من صفائه في الأول فإن بنيانه يظل قلقًا مهما شمخ عاليا، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمخ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغنم، لأن من شأن الشيطان أن يزين البدعة ويجملها، وإن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري، ولئن تردد السلمي فذكر مجرد الاحتمال واستعمل كلمة «ربما»، ولئن ترددنا فاقتصرنا على «الأغلب»، فإن علي بن سهل الأصفهاني قد جزم بذلك فقال: «من لم يصح في مبادئ إرادته: لا يسلم في منتهى عاقبته»[2].

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي وتثبت من تشاء، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه واستقراء أحوال من عرفهم.

وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء حظًا بارزًا ظاهرًا في فننا التربوي الحركي.

وهي النية الحرة:

وإنما يعنون بصفاء الابتداء معنيين يتتابعان في توال، فيتلازمان: النية الصالحة، والهمة العالية، حصرهما البحتري في شطر مبين، وسماهما: «نفس تضيء، وهمة تتوقد»[3].

والنفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء.

(١) المرجع السابق (١/ ١٠٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ٨٠).
(٣) ديوان البحتري (١/ ٦٢٩).

وهي: «النية الحرة» التي ذكرها البحتري أيضا في بيت آخر[1]، فأحسن الوصف وأجاد، فكأنها حرة مما يقيد غيرها، من الأهواء والأطماع والمصالح، لم يستعبدها درهم ولا دينار ولا جمال أنثى، ولم تكن رقيقًا لمنصب أو شهوة.

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة، ولا طلب مصلحة، وإنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر.

وكذلك كان الصالحون:

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي رحمهما الله فقال: «ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية»[2].

ولذلك قوَّم عمر في أقل من سنتين اعوجاج جيلين، وعلى داعية الإسلام اليوم ألا يستكبر عظم الانحراف الذي عم بلاد الإسلام، فإنه، إن قرن كل خطوة بنية مثل الراشد الخامس، فسيهزم حزبين بإذن الله في أقل من سنتين.

ويتعاظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك ﷺ، محض التجرد لله حين عقد له واستخلفه وقال:

«لأعقدن عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب»[3].

ولا تنتصر الدعوة إلا حين لا يكون في عقود الدعاة معها ومع ربها للشيطان نصيب.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤٠).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (٣٠/ ٢٩).
(٣) المرجع السابق.

بل العمل الصغير بالنية يعظم، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله: «رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية»[١].

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثرًا من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس، كما ينص على ذلك طب عبد القادر الكيلاني في قوله: «كن صحيحاً في السر، تكن فصيحاً في العلانية»[٢].

وأما المخلط في نيته، فيخلط عليه في أموره وسيرته، كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتمًا مقضيًا، وهو المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مطرف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشخير العامري في قوله: «صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا: صفي له، ومن خلط: خلط عليه»[٣].

ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة، و«إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك» كما يقول مصطفى صادق الرافعي[٤].

هذا إذا كان الإنسان وهذه الفوضى وحدهما وجها لوجه، فكيف إذن وهذه الفوضى محصية عليه بجاسوسين على كتفيه يسجلان؟

إن «أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يمنته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب في سياسة النفس، لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية، ويجمعان منه

(١) طبقات الشعراني (١/ ٥١).
(٢) الفتح الرباني، ص٦٤.
(٣) علم القلوب للمكي، ص١٨١.
(٤) وحي القلم (٢/ ٤٤).

حتى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتى معاني النظر[١].

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية، وأتقن ولوجها قبل ولوج سياسة الحكم، وإتقانها قد أوجزه لك المكي أبو طالب في جملة واحدة حاسمة فقال: «فرض على العامل أن يعرف النية من الأمنية»[٢].

فهناك نية، وهناك أمنية، والأمر كما قال يحيى بن معاذ: «لا يزال العبد مقرونا بالتواني، ما دام مقيمًا على وعد الأماني»[٣].

وما اختار الأماني أحد تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطوًا، ووجد ثم السراب الخادع، وعدم الماء وقت العطش، وأما المضيء النفس ومن لا أمنية له من الدعاة فإنك تجده سباقًا إلى كل خير أبدا، وتجده على ري دوما، فإنه إن كان ذا مرة وقوة: استقى لنفسه أو استسقى فيجيبه الله بهطل من السماء، وإن كان مستضعفًا وجد وريثًا لموسى عليه السلام، يسقي له ويزاحم الرعاع.

وهو قدم الهول:

والهمة قرينة النية، فلا شيء بعد النية قبلها، وكل الإتقان بعدها، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى فقد ضمن لهم، إن أراد الله تعالى، الاستمرار، وهذه وصايا الأوائل بحفظها تكمل تلك الوصايا.

وأول من يطلع علينا: ممشاد الدينوري، أحد من ختم الله بهم القرون الفاضلة الثلاثة الأولى، فيقول: «همتك احفظها، فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها: صلح له ما وراء ذلك من الأعمال»[٤].

(١) المرجع السابق (٢/ ٦).
(٢) علم القلوب، ص١٨٨.
(٣) تاريخ بغداد (٥/ ١٨٤).
(٤) طبقات الشعراني (١/ ٨٨).

ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف، فيقول: «مثل القلب مثل الطائر، كلما علا: بعد عن الآفات، وكلما نزل: احتوشته الآفات»[1].

فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقي القلب نظيفًا بريئًا من المعنى الخسيس مشغولًا بالعظام، فإنه أيضًا يقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان، كما تقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد، ومهمة المربي المسلم أن يعلم الناشئ هذه النهضة العالية في مبادئ محاولاته.

ونهضة الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميمًا على حمل أثقال الدعوة إلى الله، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهم الدعوة في الأول مجرد تزكية نفس، وصحبة أخيار، وبث أشواق، وفرصة تكافل، فإنه يحجم عن إنكار المنكر على الظالم، ويستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة، والتي فهمها من قبله الرجال، ويرجع عن الزحف يوم الزحف وقائمة أعذاره تحت أحد إبطيه، أولها: أنه لم ينذر بمثل هذا من قبل ولا يحتوي هذا الشرط عقده، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطوة للسالك: خطوة هول، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعة بيعة العقبة حين أخذوا على أنفسهم أن يمنعوا رسول الله ﷺ، مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم، فقال أبو بكر البارزي: «إذا سلك المريد الهول في أول قدم فلا يبالي، فإنه لن يلقاه بعد ذلك إلا راحة»[2].

وهو الهول الذي تربى الجنيد على مثله في صورة انقطاع تام عن شهوات الدنيا، فظل يذكره ويقول: «لا أزال أحسن إلى بدء إرادتي وجدة سعيي وركوبي للأهوال طمعًا في الوصول، وها أنا في أيام الفترة أتلهف على أوقاتي الماضية»[3].

(١) الجواب الكافي، ص٧٠.
(٢) اللمع للطوسي، ص٢٠٧.
(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢١٤).

ومصدر كل ذلك واحد، هول الإنكار، أو هول التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات والانغماس في العبادة، وليست الدعوة بأقل احتياجًا للهول الثاني من الهول الأول.

وكما سموه: الهول، سماه جعفر الخلدي: شرف الهمة، فقال: «كن شريف الهمة، فإن الهمم تبلغ بالرجل، لا المجاهدات»[١].

ويعني: أن تكون عالي الهمة على استعداد دومًا، فإن هذا العلو هو الذي يضمن لك أن تستجيب للنداء لا ما ابتدعوه من إرهاق النفس والعري.

وضده: ما ادعاه البعض بخساسة الهمة، وأنها من قلة المعرفة بالله[٢].

وعن مثل هذا الجيل الأول أخذها الجيل الأوسط، فنادى بها منهم: عبد القادر الكيلاني، أن: «يا غلام: لا يكن همك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع.

كل هذا هم النفس والطبع، فأين هم القلب؟ همك ما أهمك، فليكن همك ربك وما عنده»[٣].

فإن أحب الدنيا فإنما يحبها كحب محمد بن أحمد، المعروف بابن رزقويه، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراءه، والذي ترجمه بقوله مخاطبًا تلامذته: «والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة، ولكني لذكر الله، ولقراءتي عليكم الحديث»[٤].

(١) تاريخ بغداد (٧/ ٢٢٩).
(٢) التعرف، ص٨٢.
(٣) الفتح الرباني، ص٨ مع حذف قليل.
(٤) تاريخ بغداد (١/ ٣٥٢).

وإنما ذكر الحديث والذكر كمثل لجنس الصالحات التي يجب على الداعية أن يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها، وعن الجيلين من السلف أخذها جيل المجددين في هذا القرن، ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهمام: «يبذل كل ماله، وكل دمه، وكل نفسه، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من أجلها»[1].

وإنما يجمع مذاهب الأولين والآخرين في ذلك قول إبراهيم بن شيبان أن: «من تحقق في عبودية ربه: صار حرًا مما سواه»[2].

فهذا هو مفتاح الحرية، ومداد قلم العبد المكاتب مع ربه، ورأس ماله الذي يفدي نفسه به.

إنه التحقق في عبودية الله، عز وجل، سبيل الحرية مما سواه.

ضاعف عبوديتك: تكن الحر.

(١) مذكرة الدعوة والداعية، ص٢٣٣.

(٢) علم القلوب، ص١٥٩.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. نحو أفراح الآخرة

بالنية الحرة يحملها دعاة الدين القيم، وبالهمة المتوقدة يردفونها النية: يميزهم الله تعالى عن الخبيث ويجعل الخبيث والكفر بعضه على بعض، أحزابًا وأئمة وأفرادًا، فيركمه جميعًا، فيجعله هباء منبثًا، ويشفي صدور قوم مؤمنين.

وآية بدء هذا التمييز: أن يطلب جمعنا الاستدراك حديثًا، فقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لنأخذ بأحسنها، ولئن كان بعضنا قد نسي في ظروف الغفلة فإن الله خير الغافرين، وليس له أن يقعد بعد الذكرى مع القوم الغافلين، وإن عنده لذخيرة من فقه الأولين تعينه على سلوك سبل الرشد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين.

وقد انتهت بنا دراسة «الابتداء» إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه».

والتقوى في الحقيقة: تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]، وقال النبي ﷺ: «التقوى ها هنا»، وأشار إلى صدره.

فالكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية، مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك، مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة، مع سكونه، صاحب العمل الكثير بمراحل»[1].

(١) الفوائد لابن القيم، ص ١٤٠.

استعلاء ثمنه التعب

وإنما أرشدك الصالحون طريق الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة، وعليك تعبه وركوب مصاعبه، وذلك: إن السيادة نهج واضح الوعر(١).

وليس أمرها بالهين، وإنما هي قول ثقيل ألقاه الله على نبيه ﷺ، وعلى أتباعه يجب أن يسودوا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُن:١١].

وتخففه النية، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها، كما أشار ابن القيم آنفًا، وكما أشار الذين وصفوا الابتداء من قبله.

ولكن هداية القلب، وإضاءة النفس، ونهضات الهمة، إنما يذكيهن الجد، ممن أرادهن دائمات: أدام جده، وهو معنى قولهم: «استجلب نور القلب بدوام الجد»(٢).

الصغيرة:

فلا بد من الجد الدائم، لان خواطر الفكر دائمة، وحركات الجوارح دائمة، فإن لم يكن الجد معهن دائمًا شغلهن ما هو دونه أو ضده، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء، يحذرك إياه عبد الوهاب عزام، وينبهك أن: «الفكر لا يحد» واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن.

فإن لم تشغلها بالعظائم: شغلتها الصغائر.

وإن لم تعملها في الخير: عملت في الشر.

إن في النفوس ركونًا إلى اللذيذ والهين، ونفورًا من المكروه والشاق، فارفع

(١) المختارات الشعرية المسماة بنزعة الإبصار (١/ ٢).
(٢) طبقات الشعراني (١٣٢/ ١).

نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورضِّها وسيسها على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة.

علمها التحليق: تكره الإسفاف.

عرفها العز: تنفر من الذل.

وأذقها اللذات الروحية العظيمة: تحقر اللذات الحسية الصغيرة»[1].

وأنت صاحب إيمان:

و»حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدًا وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبدًا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البَقَرَة:٢٥١]، وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطراوة، ثم تأسن الحياة كلها بالركود، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها، كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء»[2].

وأتعب الناس من جلت مطالبه[3].

(١) مجلة «المسلمون» (٥٦٥/ ١).
(٢) هذا الدين لسيد قطب، ص١٠.
(٣) نزهة الأبصار (٨٧٦/ ٢).

وأنت حر كريم.

و»لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمدًا قوة من بعد قوة محققًا السحر القادر الذي في نفسه متلقيًا منه وسائل الإعجاز في أعماله، مرسلًا في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين أنه النجم لا شيء آخر»[1].

وأنت صاحب غاية:

وإنما يوصل الداعية إلى غايته: «شغفه بدعوته وإيمانه، واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسية للدعاة»[2].

وأنت طالب نفوذ إلى الله:

و»طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب»[3].

(١) وحي القلم للرافعي (٦٥/ ١).
(٢) للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة والداعية.
(٣) الفوائد لابن القيم، ص١٩.

محنة الفراغ والفظة:

ويجتمع كل هذا الكلام الحق ليقرر أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له، ولا في سجنه، وتعذيبه وتجويعه، بقدر ما تكمن في استرخاء عمله والتذاذه بالراحة.

ما محنة الداعية إلا لهوه وغفلته وجلوسه فارغًا، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو.

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات وأسباب لهو وتلفت أنظارهم إليها.

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته.

إن غفلة الداعية محنة، لأنها صرفته عن نصر ممكن أن يحققه له الجد والعمل الدائب وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد.

وسيظل اسمنا مكتوبًا في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول أوقاتنا، وما دمنا لا نشغفها حبًّا ولا نتخذها حرفة.

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة، وإنما هو كما شبهه بعض الأفاضل:

«وقف لله تعالى»

تمامًا كنسخة القرآن الكريم حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله، فكل داعية موقوف لله، في جزء من أجزاء دعوة الله.

وإن فضول الأوقات ليست قليلة ومحدودة فحسب، وإنما هي أردأ ساعات اليوم، حيث يكون فيها الذهن والجسم متعبين أشد التعب.

وما تجاوز الأستاذ المودودي أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكرته القيمة وقال:

«إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلوب أحدكم عندما يجد ابنًا له مريضًا ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئًا يسد به رمق حياة أولاده، ولا تزال تقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية، وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين. وعليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة. وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكنًا بمجرد أقوالكم»[1].

ولم يتجاوز حين كرر وقال ثانية أن: «اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبوؤوا بالفشل الذريع، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان. عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا

(١) تذكرة دعاة الإسلام، ص٥٧.

بالخطوات الكبيرة»[١].

إن من يطالب الدعاة الآن بإلغاء الراحة فإنه إنما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق رضي الله عنه تنطق بصراحة أن: «الراحة للرجال: غفلة»[٢].

وجددها إمام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال: «لا تقعدوا فراغًا فإن الموت يطلبكم»[٣].

ومنه نقلها معاصره حبيب العجمي إلى بغداد وضمنها بعض تعريض يستحقه كل قاعد، فقال: «لا تقعدوا فراغًا فإن الموت يُلذكم»[٤].

فإن من أراد الراحة والسكون فإن الموت والقبر يزودانه منهما حتى يشبع.

وكأننا، والله، أهل لهذا الاستهزاء فقد أسرفنا في الغفلة، ولا بد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو.

إننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من نخاطبه أننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جوابًا لنا حين سأله سائل: «أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟» فقال: «عند نفسك من الفظة ما يكفيها»[٥].

كلمة ما أصدقها توقف المتطاول منا عند حده.

عندنا من الغفلة ما يكفينا.

(١) المرجع السابق، ص٥٩.
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٨٢.
(٣) طبقات الشعراني (٤٩/ ١).
(٤) ميزان الاعتدال للذهبي (٢١٢/ ١).
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (١٢٢/ ١).

فإن اعترض ملتذ براحته وقال: ائتوني بكلام صريح فقهي بعيد عن المثاليات ومجازات البلغاء: أجبناه بجواب ابن القيم، كان فيه ما يبقي حجتنا فكأنه ﷺ جُوبه بمثل هذا الاعتراض فقال: «لا بد من سِنة الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم»[1].

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات من عاب الراحة من إرهاق، وإنما نريد، كما أرادوا، تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم، كل حسب صحته وظروفه، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للانتباه ومعالجة علله كما كان عليه المسلمون في العصور الماضية، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي عام، تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء وسيوف الأمراء، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كُفر جميع مذاهب الكفار مسموعًا مبصرًا بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور، فضلًا عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف.

ويا لله! ما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ لهذه الحقيقة حين يقول: «إن هذه المدنية السفيهة، المُصيرة للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني، بالجرائد صباحًا ومساء، غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة»[2].

فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة.

(١) المثنوي العربي للنورسي، ص١٦٨.
(٢) المرجع السابق.

وانتبـــه مـــن رقـــدة الغفـ ـــلة، فالعمـــر قليـــل

واطـــرح ســـوف وحتـــى فهمـــا داء دخيـــل[1]

وهذا خطيب الجمعة ما برح يختم خطبته الأولى لك بقوله: نبهني الله وإياكم من رقدة الغافلين.. يأخذها لاحق من سالف، يعنون ما نعني.

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحيانًا بلفظ آخر سموه: حفظ الوقت، أو: تحصيل الوقت، أو: مراعاة الوقت.

فالحارث المحاسبي ينادي أن: «حصل الأوقات، واعرف ما يذهب به ليلك ونهارك»[2].

ويرى الإمام البنا أن: «من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة، فالوقت هو الحياة»[3].

أو كما قال في خطبة المؤتمر الخامس: «إنما الوقت هو الحياة»[4].

يخالف بذلك قول الماديين: الوقت من ذهب.

وكان ﷺ يحب أن يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده، فينوي لكل ساعة نوع خير، و:»ينام على أفضل العزائم»[5].

وترك الفراغ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة، معناها التعب، ثم التعب، واستفراغ الوسع في العمل لله. نطق بذلك الإمام الشافعي، ونفى أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة، فقال: «طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل

(١) المدهش لابن الجوزي، ص٥٥٨.
(٢) رسالة المسترشدين للمحاسبي، ص١٤٤.
(٣) مجلة «الدعوة» المصرية، العدد الخاص.
(٤) المجموعة، ص٤٩٨.
(٥) المرجع السابق، ص٢٤١.

تعبانًا في كل زمان»[1].

ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله قال: «إذا خلع الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة»[2].

فالداعية الصادق يخلع الراحة، ويعود لا يعرفها، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب.

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عمليًا، حتى قال لابنه: «يا بني: لقد أعطيت المجهود من نفسي، يعني: في المحنة»[3].

وبذلك حد حدًا لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه، واستفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة.

طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن ينفقوا دونه، نصيبًا مفروضًا، هو المجهود من النفس، وعلامته حين المحن: الصبر على الأذى حتى الموت، وعلامته في حياتك اليومية: أنك إن جئت إلى فراشك ليلًا لتنام وجدت لركبتيك أنينًا، وفي عضلاتك تشنجًا، لكثرة ما تحركت في نهارك.

وإنما نسميه التعب، والأنين، والتشنج، لغرض تفهيم الداعية الجديد، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله وعموم الناس الذين تركهم من قريب، وأما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم، وعنهم نقله البحتري في وصفه لممدوحه حين يقول:

قلب يطل على أفـــكاره، ويد تمضي الأمور، ونفس لهوها التعب[4]

(١) تنبيه الغافلين للشعراني.
(٢) تاريخ بغداد (٧٥/ ٣).
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص٣٣٩.
(٤) ديوان البحتري (١٧٢/ ١).

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرمانًا من لذة، وخداع ألفاظ، وغواية اتباع الشعراء، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية راحة الآخرة، لا راحة الحياة الدنيا، ولذلك لما قيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟

قال: «عند أول قدم يضعها في الجنة»[١].

ولما تعجب غافل من متعب وقال له: إلى كم تتعب نفسك؟ كان جواب المتعب سريعًا حاسمًا: راحتها أريد[٢].

فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته: جعله عبارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه: جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه: جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم: جعله في أفراح آخرته[٣].

فهذا هو ميزان المؤمنين، وعلى دكة جامع الخلفاء المطلة على دجلة ببغداد كان ابن الجوزي يجهر به في مواعظه مذكرًا، ويرفع صوته: ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد طول السرى.

ما نالوا حلاوة الراحة إلا بعد مرارة التعب.

ما حظي الدينار بالنقش حتى صبرت سبيكته على التردد إلى النار: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المُجَادلَة:٢٢].

من طلب الأنفس: هجر الألذ.

تلمح فجر الأجر: يهن ظلام التكليف[٤].

---

(١) طبقات الحنابلة (٢٩٣/ ١).
(٢) الفوائد، ص٤٢.
(٣) المرجع السابق، ص١٨٩.
(٤) المدهش، ص١٥٤ مع بعض حذف.

ولعمرو الله ما هي بمرارة، ولا هو بظلام، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليعقل مراده الراقدون.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. هواية جمع الغبار[1]

إن أراد الداعية أن يغبط نفسه فإنه يغبطها على قانون تجارته الفذ.

فحقًا إنه قانون مريح، خال من الغموض، فتجارة الدعاة مع الله ليست كتجارة غيرهم.

ليس فيها قلق تخفيض سعر الدولار، ولا أخطار مضاربات البورصة، ولا تعقيدات التحويل الخارجي.

سعر أسهم الداعية ثابت، بل يزيد ولا ينقص.

والوضوح في معادلات تجارته هو أعظم ضمانًا من التأمين.

تعب أكبر= رضوان من الله أكبر، بفائدة ربوية أدناها ٩٠٠٪ تسعمائة بالمائة، كما في الآية الكريمة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، وليست مجرد ٧٪ كما عند تجار الدنيا.

إلى ٦٩٩٠٠٪ تسع وستين ألفًا وتسعمائة بالمائة، كما في الحديث الشريف: «يضاعفها إلى سبعمائة ضعف».

ورضوان الله= أفراح الآخرة.

هذه هي معادلاته وقوانينه التجارية، ويا لها من إغراء، ما بعده إغراء.

فمن هنا، لا تجد أحدًا يفهم قوانين التجارة الإيمانية إلا وتراه

مشمرًا مع المشمرين، مسرعًا نحو أفراح الآخرة.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٨)، ١٧ المحرم ١٣٩٣هـ/ ٧ فبراير ١٩٧٣م، ص٢٦.

ويا لها من أفراح تتنوع لك كما تشتهي. تشتهيها نظرًا إلى ربك الجميل عز وجل، أو ملاقاة لأنبياء ربك ورسله، أو رفقة للصديقين والشهداء ومن سلف في الأمة من العلماء. كل ذلك لك.

أو تشتهيها كؤوس خمر، على سرير موضون، يطوف بهن

عليك ولدان مخلدون. هذا وعشرة أمثاله لك.

أو تشتهيها قاصرة طرف، عذراء، ناهدة، تحت أشجار نخل ورمان، خاليًا، عند شاطئ نهير، على أنغام تغريد طير.

هي وأخواتها لك.

فاختر ما تحب من سرعة سير، فإن يحيى بن معاذ قد نظر إلى القافلة، فيها الماشي فوجد، والمهرول، والراكض. ثم نظر إلى درجات الجنة، فوجد أنهم: «إنما ينشطون إليه على

قدر منازلهم لديه»[1].

فلكل درجة نشاط في السير إلى الله، درجة من الجنة لدى الله.

درجات طبقات:

فادفع ثمن الواطئ أو العالي، إن لك الخيار، إنما تذكرك أنه ملك، وما هو والله، باستئجار.

إن هذا الحق ثقيل:

ولكنا نعلم اختيارك، وما أنت بالذي يرضى الواطئ من الجنة.

(١) تاريخ بغداد (١٣٧/ ٢).

أنى لصاحب الاستعلاء في الدنيا ألا يطمع بعليين في الآخرة؟

لكنها جسيمة مطامعك هذه، مثلما هي جسيمة أهدافك في الدنيا.

فأعلم بأنك لن تنال جســـــيمة حتى تجشم نفســـــك الأهوالا[1]

شرط وثمن:

فما هو بقدم هول واحد إذن، إنما ذاك في تربية فترة الابتداء، وإنما هي أقدام الأهوال.

هول من بعد هول، لا نعدك في طريق الدعوة أن تطأ الورود.

لكنها طبقة من بعد طبقة: باب، فربض، ففردوس، فعليون، يعدك الله إياها.

قد يكون هذا الهول تكذيبًا من الناس لك، أو معاداة من الأهل، أو نفيًا من ظالم، أو سجنًا من طاغية.

وقد يكون هذا الهول تعبًا يوميًا، أو فقرًا، أو نسيانًا لفرصة ثراء تمر بك وأنت لاه بعمل الدعوة، أو عزوفًا عن جميلة حسناء غرها زي الجاهلية وددت أنها لو تصفو فتكون لك زوجًا.

لهذه الأهوال كان طريق الحق ثقيلًا، لا يلجه إلا من اشتاق إلى الجنة.

وكان ثقيلًا في القديم أيضًا، كما هو اليوم، ولذلك تجد وصفه عند من ربى الدعاة قديمًا، كما تجد وصفه عند خلفهم الآن، فكان الحسن البصري يردد: «إن هذا الحق ثقيل. وقد جهد الناس. وحال بينهم وبين كثير من شهواتهم. وإنه والله ما يسير على هذا الحق إلا من عرف فضله ورجا عاقبته»[2].

(١) الأغاني (٢٩٣/ ٣).

(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص٢٧٨.

فمن عرف جمال العاقبة ولذتها: سار. ومن سار: سافر. ومن سافر: جاب. ومن جاب: تغبر، فمن ثم لا يصدق اصطلاح «الداعية» إلا على من كان أشعث، وتلك هي ملامح صورته التي رسمها الشاعر.

فمن نظر إلى داعية مسلم وجده:

أخا ســـــفر، جواب أرض تقاذفت به فلوات، فهو أشـــــعث أغبر[1]

فهو غير قاعد، فضلًا عن أن يكون راقدًا، وإنما يصرف ساعات نهاره وليله في التجول داعيًا آمرًا ناهيًا مربيًا حاشدًا، فإذا رجع إلى بيته عند منتصف الليل، ورأى الغبار يعلوه: ابتسم فمه، وضحك قلبه، وقال لنفسه: قد قال رسول الله ﷺ: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار»[2].

فينام مسرورًا بما جمع من هذا الغبار، وينام غيره مسرورًا

بما رصد في البنوك من دولار ودينار.

ولو شاء أن يجمع غباره يومًا بعد يوم، ليرشوه في كفنه إذا مات، لكان ذاك سائغًا لو عصم نفسه من الغرور، والله أعلم، وله سلفٌ فعل ما فعل، وبه يقتدي، هو ملك الأندلس العادل البطل:

المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر قالوا: «كان طول أيام مملكته مواصلًا لغزو الروم، مفرطًا في ذلك، لا يشغله عنه شيء.

وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك، فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولًا فأولًا، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد

(١) الأغاني (٨٠/ ١).
(٢) صحيح البخاري (٩/ ٢).

لحقه كل من أراده من العساكر.

غزا في أيام مملكته نيفًا وخمسين غزوة. ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه بالمآثر العامرية، واستقصاها كلها بأوقاتها، وذكر آثاره فيها، وفتح فتوحًا كثيرة ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم.

وكان في أكثر زمانه لا يخلو بأن يغزو غزوتين في السنة، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال، وأن يجمع ويحتفظ به، فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وضع في قبره.

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين، بموضع يعرف بمدينة سالم، مبطونًا، فصحت له الشهادة، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣هـ»[1].

وإنما هو غبار واحد، غبار معارك أبي عامر، وغبار سفر وتجواب وتجول الداعية الآمر.

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ص٨٣.

تحية إلى نادي القادسية[1]

ليس أجمل للشباب من التريض في أوقات الفراغ، تتجدد حيويتهم معه، ويبعدون به عن اللهو الحرام، وكان رسول الله ﷺ يقيم مسابقات الخيل لأصحابه.

والرياضة عمومًا، وكرة القدم على الأخص، عامل تربوي مهم جدًا، ومن يتتبع التاريخ الحديث يتضح له نجاح هتلر في تربية الشباب النازي بواسطة كرة قدم، ولا زالت مؤسسات رعاية الشباب البريطانية تبهر العالم في نجاحها المطرد، وتضرب مثلًا رائعًا لكيفية وضع كرة القدم في الاستخدام التربوي.

ولكن اليهود ما تركوا مرفقًا إلا أفسدوه واستغلوا إفساده حين يفسد لخدمة الخطة اليهودية العالمية.

وهكذا أفسدوا الرياضة بإشاعة الاحتراف فيها، حتى صار الاحتراف هو الأساس، وبذلك استطاعوا أن يضيفوا الرياضة، وكرة القدم على الأخص، إلى وسائلهم في تلهية شعوب العالم عن الالتفات إلى مخططهم الرهيب في إنشاء وإدامة إسرائيل، تمامًا كما أشاعوا الخمر، والجنس، والسحر، والأفكار الإلحادية، وجعلوها أدوات لتخدير العالم كله.

وسرت العدوى إلى الكويت على غفلة من أهلها، وبحسن نية، حتى ضمر فن التربية الرياضية في المدارس ودور الشباب وحتى صار الإسراف في الالتهاء بكرة القدم عظيمًا، في الوقت الذي تشير فيه معركتنا مع اليهود إلى وجوب ربط قلوب الشباب بالجهاد، والتحفز، والغيرة على أرض المسلمين وأعراضهم أن تضيع.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٨)، ١٧ المحرم ١٣٩٣هـ/ ٧ فبراير ١٩٧٣م، ص٢٦.

وكنت أول شبابي كبقية الشباب، أتتبع مباريات كرة القدم بإسراف، ثم رباني الموفقون، وأرشدوني إلى هواية جمع غبار خطوات سبيل الله، بدل هواية جمع غبار ملاعب كرة القدم.

ولكن القلب يحن، وأدَّاني حنيني إلى مشاهدة فلم مباراة كرة القدم الرائعة في التلفزيون عصر الجمعة ١٦-٢ الماضي بين فريق نادي القادسية الكويتي، وفريق نادي سانتوس البرازيلي، الذي يلعب ضمنه اللاعب الكبير بيليه، والتي انتهت بالتعادل، لكل منهما هدف واحد.

وشدتني قوة المباراة إليها ثانية ثانية وغمرتني فرحة عظيمة لانتصار نـادي القادسية بهذا التعادل، وبهجماته الفنية الفذة الكثيرة التي لم يحقق فيها أهدافًا، ولقد كان القادسية أكثر ظهورًا خلال كل اللعب من فن سانتوس، واعتذار مدرب سانتوس بأن فريقه لم يتعود على أرض غير مزروعة بالحشيش اعتذار مردود.

وأروع من لعب هو حامي هدفنا عبد الحميد الشطي، فقد كان رابط الجأش، وأعتبره قد حطم أسطورة بيليه، فللشطي مني تحية خاصة.

ويأتي كل أفراد دفاع القادسية بعد الشطي، وكل الفريق أجاد، ولكني كنت أتوقع من اللاعب البارع حمد بو حمد أن يكون أكثر ثباتًا، وأن يحقق أهدافًا، ولكن اسم بيليه قد أرعبه على ما يبدو.

وبرهانًا على فرحي بانتصار القادسية وعنوانًا لتحيتي له، وتحية مجلة المجتمع له فإني في هذه الحلقة أدعو نفسي: محمد أحمد الراشد القادسي.

وإذن، فأنا اليوم قادسي، فهم أهلي، وما داموا أهلي فإني أدعوهم إلى التمسك بالصلاة، وبأهداب الإسلام، عملًا بالآية الكريمة التي تطلب منا أن نأمر أهلنا بالصلاة؟

ولهم أسوة حسنة بشباب جمعية الإصلاح الاجتماعي الذين يمتعون أنفسهم باللعب في ملاعب الجمعية، فإذا نادى المؤذن بالتكبير: أسرعوا إلى الصلاة.

ولهم أسوة أخرى بأبي محجن الثقفي، فإن اسم نادي القادسية مشتق من معركة القادسية تيمنًا بها، وفي تلك المعركة أفاق أبو محجن من غفلة غفلها، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قد حبسه بسببها، فأطلقته امرأة سعد، وتاب، وأبلى في المعركة بلاءً حسنًا.

وإذ أكرر التحية أدعو نادي القادسية أن يبدل نظرته ويقف ضد الاحتراف، ويحرف الولع الحاضر به إلى عامل تربوي لشباب الكويت، بالتقليل من إثارة غبار الملاعب، والإكثار من غبار السير في سبيل الله.

شاهد من أهلها يقول: السلطان الأحمر لم يكن طاغية![1]

كنت في العدد (١٣٠) من مجلة «المجتمع»، قد حييت الأستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم -باسم دعاة الإسلام- لمساهمته في كشف التزوير الذي أصاب تاريخ الخليفة العثماني عبد الحميد ﷺ، بما نشره في مجلة الأسبوع العربي قديمًا من دفاع عنه، وكشفه للقصص والروايات التي لفقها أعداؤه، ووعدت بنشر ما كتب في ذيل مقالات إحياء فقه الدعوة إن جمعت في كتاب.

ونظرًا لما لمسته من شوق بعض الإخوة إلى رؤية ما كتب الأستاذ بيهم، والإسراع في وضعه كحجة في أيديهم، ولندرة المقال، فإني أوقف اليوم استطرادي في الكلام عن التربية الحركية للقاعدة الصلبة، لأتيح تعجيلًا في الاستفادة مما كتب الأستاذ الكريم، فأنشر صورة صفحتي المقال كما ورد، مع الصورة النادرة اللطيفة التي ألحقت به للسلطان عبد الحميد، استجابةً لرجاء هؤلاء الإخوة الأعزاء.

ومقال الأستاذ بعنوان «السلطان الأحمر ليس طاغية»، وهو منشور في العدد (٥٥٦) من مجلة الأسبوع العربي اللبنانية، المؤرخ ٢ شباط ١٩٧٠، رد فيه على تحقيق مصور في العدد (٥٥٠) من المجلة نفسها، صدر في ٢٢ كانون أول ١٩٦٩، عن الأمير عابد ابن السلطان عبد الحميد، الذي يعيش في بيروت، وصف فيه أحد محرري المجلة عبد الحميد بأنه «السلطان الأحمر»، وبأوصاف أخرى أثبتها الأستاذ بيهم في مقدمة مقاله.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤١)، ٩ صفر ١٣٩٣هـ/ ١٣ مارس ١٩٧٣م، ص٢٠.

ولاعتمادي على الذاكرة حين التحية ذكرت أن الأستاذ كتب مقالين، وإنما هو مقال واحد يرد فيه على مقال لغيره كما بينت، فمعذرة.

ولو لم يكن في مقال الأستاذ إلا عنوانه لكفى، فإنه عنوان بديع، أشبه وأجدر أن يكون شعارًا يحفظ وحكمة تسير، من أن يكون مجرد عنوان.

ولقد قال الكثيرون مثل ما قال الأستاذ هنا، ولكن أهمية مقاله تكمن في أمرين، يعضدان تفسير الحركة الإسلامية لتاريخ عبد الحميد:

الأمر الأول: أنه مؤرخ صاحب اختصاص بالتعرف على التاريخ العثماني، وله فيه أربعة كتب، جعلته مقدمًا على غيره في الجامعات والمجامع العلمية، بعيدًا عن التهم.

الأمر الثاني: أن الأستاذ تورط قبل فيما تورط به غيره من الاستعجال في وصف عبد الحميد بالاستبداد، واتباع السياسة الخاسرة، ثم تبين له الصواب بعد، وفي هذا الرجوع إلى الحق سابقة طيبة ندعو الآخرين إلى تقليدها، مثلما فيه زيادة تأكيد على أهمية الحكم الأخير للمؤرخ الفاضل علي عبد الحميد وانطلاقه من معاناة نفسية طويلة وتأمل فكر ونظر متأن، وليس من فورة تعصب قد يحلو للبعض أن يتهمه بها.

وقد آن لي أن أكرر التحية للأستاذ الجريء الذي لم يمنعه كبر من الاعتراف بالخطأ، ولم يرهبه تخويف المؤرخين المزورين، فصدع بالصدق.

كما آن لي أن أخلي بين دعاة الإسلام وبين هذا المقال القيم، بعنوانه الجامع المانع.

السلطان الأحمر لم يكن طاغية!

أعاد التحقيق الذي نشرته «الأسبوع العربي» عن نجل السلطان عبد الحميد إلى الأذهان أيام الحكم العثماني وحقيقة العلاقة بينه وبين الأقطار العربية محمد جميل بيهم يروي ذكرياته عن السلطان الأحمر عبد الحميد.

بقلم: محمد جميل بيهم:

قرأت في عدد الأسبوع العربي الصادر في ٢٢ كانون الأول ١٩٦٩ ريبورتاجا نفيسا للأستاذ أنور نصار عن الأمير عابد بن السلطان عبد الحميد الثاني وبعض أفراد الأسرة المقيمين في لبنان – جاء فيه: عبد الحميد ومن لم يسمع به، ومن لم يقرأ عنه؟ من لم يستمع إلى حكايات الأجداد أو الآباء تروي قصص طغيان السلطان الأحمر ومآسي ظلمه الذي خيم على أرجاء السلطنة العثمانية طيلة ٣٣ سنة.

فكان علي، أنا الذي عاصرت في صباي أواخر أيام هذا العاهل ثم أصدرت بعد زوال دولته أربعة كتب عنها وعن الأتراك، أن أتحدث إلى جيلنا الجديد عن هذا السلطان حديثا لا يستمد مادته من القصص والروايات التي لفقها أعداؤه بغية كشف النقاب عن الحقيقة.

قول على قول فما هو الصحيح منهما؟

روى محمد باشا المخزومي في كتابه «خاطرات جمال الدين الأفغاني»، أن هذا الفيلسوف قال: «إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب. إنه يعلم دقائق الأمور السياسية، ومرامي الدول الغربية وهو مُعد لكل هوة تطرأ مخرجا وسلما، وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي المسائل وأمضى العوامل كيلا تتفق أوروبا على أمر خطير في الممالك العثمانية كان يريها عيانا محسوسا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن يتم إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها، وكان كلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة كان السلطان يسارع بدهائه العجيب إلى حل عقد ما ربطوه، وتفريق ما جمعوه.

وهذا قول متفق عليه بيد أني حينما وصفت سنة ١٩٣١ هـ السلطان في كتابي – أوليات سلاطين تركيا، زدت عليه استنكارا لاستبداده وانتقادي لسياسة «فرق تسد»، التي اتبعها، فقلت: كان سياسيًا حاذقا ذكيا داهية، ولكنه كان مستبدا صرف مواهبه عن الإصلاح الداخلي الذي يؤدي إلى تعزيز قوى الدولة، ويؤيد نفوذها، إلى محاربة خصومه الداخليين، وأعداء المملكة الخارجية مستعينا على ذلك بسياسة فرق تسد، وهي سياسة إنما كانت قبيل الترقيع خسرت بها السلطنة بلادًا وأموالًا دون جدوى.

أما الآن وقد مضى على وصفي هذا للسلطان عبد الحميد نحو ثلاثين عامًا فلو كلفت للتعليق على ذلك لما وجدت شيئًا يقال سوى تنديدي بسياسته سياسة «فرق تسد»، التي جرى عليها في الداخل والخارج ذلك لأنه كان مضطرًا لاتباعها غير مخير.

لماذا اضطر عبد الحميد لاستعمال سياسة فرق تسد؟

استوى هذا السلطان على العرش في غضون ما كانت روسيا القيصرية تحاول إقناع الدول ولا سيما إنكلترا، من أجل اقتسام تركة الرجل المريض «على تعبير القيصر نقولا الأول» وذلك بدلاً من السياسة المتبعة وقتئذ التي كان مدارها إثارة العناصر غير التركية في مقدونيا والبلقان وأرمينيا باسم القوميات وتحرير بلادها تدريجيا.

فلم يكن للسلطان عبد الحميد بد من العمل للتفريق بين هذه الدول، وللتفريق أيضا بين هذه العناصر في سبيل دفع الخطر عن سلطنته، وهو كان خلال ذلك يتمنى لو أن هذه الدول تترك له الفرصة للانصراف إلى الإصلاح الداخلي الذي كانت تطالب به.

وقد استفاد السلطان عبد الحميد من اتباع هذه السياسة، ففي أعقاب ما وقع في أرمينيا سنة ١٨٩٤ من الفتك بالثائرين، وما تلا ذلك من حوادث دامية في كردستان والبلقان اتفقت الدول الأوروبية على تقسيم السلطنة فورا متخذة من هذه الأحداث

حجة لها، وكادت تفعل لولا أن السلطان جذب ألمانيا إلى صفه فوقفت تلك الوقفة المعارضة التي أنقذت هذه السلطنة من التقسيم وأمنت سلامتها،

وكذلك في الداخل فقد اضطر السلطان المشار إليه لاتباع سياسة «فرق تسد»، أيضا ذلك لأن الدول الطامعة ببلاده لم تكتف بتأليب شعبه عليه من غير الأتراك والمسلمين، وإنما كانت تعمل لضم الموالين له إلى العناصر الناقمة عليه مستعينة على ذلك بشتى الدعايات ضده في مدارسها وصحفها أو بواسطة عملائها.

منشأ التهم الموجهة إلى السلطان عبد الحميد:

كان من الطبيعي أن يلجأ السلطان إلى الشدة، في سبيل إخماد الثورات العنصرية، التي كان يضرمها الطامعون بمملكته، وكان من الطبيعي أيضًا، أن يتخذ هؤلاء من أعمال الشدة، قواعد تنطلق منها سهام التشهير به، لتصويره بصورة الفتاك الظالم. ولهذا القصد لم يكتفوا بالعناصر المسيحية فحسب في أوروبا وآسيا، وإنما استأجروا بعض الأتراك وبعض العرب وأتوا بهم إلى عواصمهم، فكان الأولون يحاربون السلطان باسم الدستور والحرية، بينما كان الآخرون يطالبون بالخلافة والاستقلال، وبعضهم كان يدعو إلى المطالبة بحماية الأجانب.

ولما نجحت جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨، فيما كانوا يسمونه الانقلاب، وخلعت السلطان في العام التالي بالاتفاق مع الأرمن، أصبحنا نسمع الخطب والقصائد والأناشيد، تندد به وتتهمه بالخيانة، وتقرأ الصحف والمقالات، والكتب تحمل الحملات الشعواء عليه، ملصقة به كل فرية، حتى لم تتورع عن الزعم بأن السلطان، كان يضع بعض الأحرار في أكياس ويلقيهم في البوسفور. وأكثر من ذلك، فإن بعض الدعاة للسلطان الذين كانوا يسمونهم «دعوجية»، وكانت مهمتهم الثناء

عليه، والتنويه بأخلاقه ومآتيه، أولئك الذين كانوا ينشدون:

أنامنـــــا في مهـــــاد الأمن قاطبة وراح يكلؤنا فـــــي عين يقظان

وأولئك الذين كانوا، في مبتدئهم وخبرهم، يقولون «بادثاهم جوق باشا» لم يلبثوا بعد خلع السلطان أن انقلبوا عليه، وافتعلوا مع غيرهم الأقاصيص والافتراءات، التي وصلت إلينا الآن، والتي أوهمت بعضنا بأنها حقائق لا ريب فيها.

عبد الحميد يتخذ العرب عصبية له:

لما تفاقم أمر جمعية تركيا الفتاة، ثم جمعية الاتحاد والترقي، ونفدت دعاواها إلى الأوساط التركية، شعر السلطان بحاجة إلى مساندة العرب له، وكان هؤلاء لا يزالون بعيدين عن النزعات الاستقلالية، فقر رأي السلطان أن يتخذ منهم عصبية له، في غضون ما فكر في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية في الخارج، وقد استهل هذا المشروع بالاعتماد على خير الدين باشا التونسي، وعلى جمال الدين الأفغاني، ثم قرب إليه فريقًا من مشايخ الأمصار العربية، كالشيخ أبي الهدى الرفاعي من سوريا، والشيخ محمد ظافر من الجزائر، والشيخ أحمد القيصربي من المدينة المنورة، وذلك فضلًا عن أشراف مكة، على أنه لم يكتف بطبقة العلماء والأشراف، بل تجاوزها إلى نطاق أوسع في السياسة والإدارة، فعهد إلى بعض أبناء العرب بالمناصب الكبرى في العاصمة، أذكر منهم أحمد عزت باشا العابد، الذي كان يشغل منصب الكاتب الثاني في المابين، على حين أن نفوذه المستمد من السلطان كان يجعله الرجل الأول في السلطنة، وشفيق بك المؤيد المفوض في الديون العمومية، وشفيق بك الكوراني رئيس الضابطة، وسليم بك ونجيب بك ملحمة اللذين أدركا رتبة الوزارة، وشكري باشا الأيوبي ناظر الأعمال العسكرية، وكل هؤلاء من سوريا ولبنان.

وقرب إليه أيضًا من العراق طالب بن النقيب، وأحمد باشا الزهير، وعينهما أعضاء في مجلس شورى الدولة، وهو فضلًا عن ذلك، رفع رتب بعض ضباط العرب إلى درجات عالية، فكان في عداد ياورانه أي «المرافقين»، الفريقان محمد باشا ومحيي الدين باشا، ولدا الأمير عبد القادر الجزائري وفؤاد باشا المصري، كما كان من أركان أساتذة المدارس الحكومية العسكرية، المشير شفيق باشا وشقيقه وهيب باشا، وهما من قرية المتين بلبنان، والميرالاي الدكتور يوسف الرامي من فالوغا، وكان أستاذًا لعلم التشريح، والدكتور إلياس مطر من بيروت، والأستاذ سليم باز وكان أستاذًا في مدرسة الحقوق.

وهو إلى ذلك اتخذ من أبناء العروبة حرساً خاصاً له ألبسه العمائم الخضراء وأنزله حول قصره وصاهر العرب فزوج أميرتين من أسرته من شابين رفعهما إلى رتبة داماد أي «صهره» وهما الأميران عبد المجيد بن الشريف علي حيدر، وصالح بك بن خيرالدين باشا التونسي، وأنشأ مدرسة العشائر التي فتحت أبوابها للعرب والمسلمين من كافة الأقطار.

وفي نطاق هذه السياسة مدد الخط الحديدي بين دمشق والحجاز، ورفض رفضا باتاً ما عرضته عليه الصهيونية العالمية من أموال في سبيل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين.

ولكن كل ذلك، وإن جعل العرب يطمئنون ويخلصون له على اعتباره خليفة المسلمين، كان له رد فعل عند شباب الأتراك العنصريين فكان بالتالي في عداد الأسباب التي حملتهم على الخروج عليه، بيد أنهم وإن وقفوا في الاستئثار بالحكم مكانه منذ ١٩٠٨، وعدلوا عن سياسته التي جعلت مملكته محفوفة بعز الأباطرة ونفوذ الخلفاء، إلا أنهم أضاعوا السلطنة خلال عشر سنين فقط، وجعلوها أثرا بعد

عين، ولم يكن مرد ذلك إلى الدستور الذي اتخذوه شعاراً لثورتهم، والذي أعلنوه عقب استيلائهم على جميع السلطات، وإنما كان السبب وضع السلطنة الشاذ الذي لم يكن يصلح وقتئذ إلا للحكم الفردي ريثما تعد العدد للدستور المنشود.

ذلك بأن السلطنة كانت مؤلفة من عناصر تكاد لا تحصى وكان أكثرها يتربص بها الدوائر.

فما أن أعلنت الدستور بعد عبد الحميد وما فيه من حرية، وأنشأت المجلس النيابي حتى اصطدمت هذه العناصر بعضها بالبعض الآخر، وأمسى هذا المجلس ساحة عراك بينها وكذلك بين بعض النواب وبين المسؤولين.

وحينئذ وقد اضطر الأتراك للدعوة إلى الطورانية (أي جامعة الترك العالمية) لمجابهة القوميات الأخرى، وقعت الواقعة التي أفضت إلى زوال السلطنة.

كل ذلك جعل الناس يذكرون السلطان عبد الحميد بالخير الذي استطاع بدهائه أن يمد أجل «الرجل المريض» طيلة ٣٣ عاما وهو يعلق على الزمن كبار الآمال.

اللبنانيون يرعون ضيوفهم من الأسرة العثمانية:

أشار أنور نصار إلى ثناء الأمير عابد على اللبنانيين لما لاقاه اللاجئون من الأسرة العثمانية إلى لبنان سنة ١٩٢٤ من المواساة والإكرام وأشاد الأمير بصورة خاصة بواحد منهم أخلى بيته وقدمه لكبير الأسرة، ولكنه لم يذكر اسمه، فكان على تقدير له أن أكشف النقاب عنه، فهو المرحوم عبد البديع سويرة الذي كان رئيس عمدة دار الأيتام الإسلامية، وهو والد شريف بك سوبرة الذي خلف أباه على رئاسة هذه الجمعية. فهو الذي أخلى بيته وأنزل فيه ضيفا عليه البرنس سليم وأخته عائشة سلطان، وأحسن وفادتهما.

ولما كان أبو شريف صهرا لي أتيح لي أن أكون في عداد مستقبلي هذا الأمير. وأن أتفقده.

وقد أعرب عن امتنانه لي بتقديمه لي رسمه الفوتوغرافي مزدانا بكلمة منه وهو ضمن إطار فضي ملوكي لا زلت أحتفظ به بين التحف التاريخية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أننا كنا في عهد الصبا نسمع بهذا الأمير على أنه الرجل الكفؤ الذي سيخلف أباه على العرش، ويحافظ على مكانة السلطنة.

ولذلك فإني تساءلت حينما استقبلناه يـــوم قدومه، عما إذا كان هذا هو الأمير سليم الذي طالما سمعنا بكفاءاته، وأعجبنا به وذلك لأنه كان يبدو مذهولاً مضطرب الأعصاب حتى كأن الناس أعداء له.

وقد رددت ذلك إلى الكوارث التي تلاحقت على هذه الأسرة بعد خلع والده، وكان آخرها أنها أمرت بمغادرة إستانبول خلال ٢٤ ساعة.

تلك نتف من أنباء المتأخرين من آل عثمان أصبحت من الذكريات التي تجمع بين الحابل والنابل، وبين عز في أيامهم ومآس في مصيرهم.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. صفحة جيل التأسيس[1]

حقيقتان بازغتان تصفان الداعية المسلم دوما، وفي ظلهما يعيش سعيدًا.

أنه:

لا الأرض تحده.

ولا العذاب يرهبه.

يرددهما مع المرددين:

نحن عصبة الإله دينه لنا وطن

نحن جند مصطفاه نستخف بالمحن

إنه يعمل أنى هاجر وطرد، لا يعشق ترابا، ولا يضيق ضمن حدود أوهَمَ الاستعمار غيره أنها حدودهم، تآخى مع كل بني الإسلام، فإن لم تكن الهجرة كان السجن.

كان سجنه سياحة لروحه وفكره، إذا شنق كان هبوط الحبل به علوا ينقله إلى منزل جميل كريم.

الداعية «ينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمنا، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرة لا مفر منها.

وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأسًا.

الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤٢)، ١٦ صفر ١٣٩٣هـ/ ٢٠ مارس ١٩٧٣م، ص٣٤-٣٥.

وغالبه يغادرها إلى النار. وشتان شتان. وهو يسمع نداء ربه الكريم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عِمْرَان:١٩٦-١٩٨][1].

والجاهليون يغفلون عن هذه الحقائق التي ينطلق بها دعاة الإسلام، فيشردونهم، ويضيقون عليهم، لكنهم يخسرون كل جولة في النهاية، بما صادموا من الفطرة التي جبل الله عليها الدعاة إليه.

وكل واحدة من هاتين الحقيقتين هي الوجه الآخر للحرية والأمل. الحرية التي ترفع الدعاة عن ثقل المطامع.

والأمل الذي دفعهم إلى ما رأيناه منهم من قصص لهوهم.

فإن شئت أن تقول: إن هاتين الحقيقتين نتاج لهذه الحرية، ولهذا الأمل، كان لك ذاك.

وإن شئت أن تقول إنهن أربع: الحرية، والآمال، وهاتين لم تعد الصواب، وإن بين يديك في تاريخ الدعوة المثل من بعد المثل.

درس من القاضي الزبيري:

ولم يشحن تاريخ حركة بالأمثال مثلما شحن تاريخ الحركة الإسلامية قديمًا وحديثًا، ولكثرتها خفي بعضها على الناشئة الجدد.

وفي الخفي ما هو أروع من الجلي، ومصداق ذلك قصة تصديق الداعية القاضي محمد محمود الزبيري ﷺ لأقواله ووعوده وعهوده بسيرة عملية.

(١) معالم في الطريق، ص١٦٨.

نشأ في بقية الإرث الموروث من الإيمان اليماني والحكمة اليمانية التي أقر النبي ﷺ، بها لأهل عصره ممن باليمن، وعزم على الإصلاح، ووثب وثبة خير سنة ١٩٤٨م مع الواثبين.

لم تكن وثبته تلك وثبة انتقام، ولا حب تسلط، ولكنه نظر النظر البعيد ورأى أن لا بد من تغيير يحفظ اليمن في يد الإسلام قبل أن تمد له يد تغيير تقلد موجة الشرود وتحاكي انقلابات الآبقين.

ولكن شاء الله ما لم يحسب الزبيري وصحبه، فهاجر طريدًا متنقلًا في البلاد.

لقد فقد جهدا، وضيعت عليه فرصة، لكنه احتفظ بملك فؤاده وحرية قلبه، ففخر بما ملك وازدهى، واستعلى وتباهى، وأنشأ يقول:

خـــذوا كل دنياكـــمُ واتركوا فؤادي حـــرًا وحيـــدًا غريبًا

فإنـــيَ أعظمُكـــم دولـــةً وإن خلتموني طريدًا ســـليبًا[1]

إن دولته القلبية الحرة لأعظم من كل دولة أرض كان يمر بها تقام على تزوير، أو دولة أخرى انقلب عليها، صدقت لكنها تورطت في تقصير حق عليها به قول التغيير.

إنه فخر ولا ككل فخر تحمله هذه الأشطر.

إنه فخر داعية يتجاوز أن يكون مجرد فخر بحرية القلب.

إنه عهد عمل صاغه في كلمات من لغة الدعاة.

وللدعاة في عهودهم سمت أخذوه عن الزاهد جعفر الخلدي البغدادي، وسنة في الوفاء ابتدعها لهم، من حين أن قال: «ما عقدت لله على نفسي عقدا فنكثته»[2].

(١) مجلة «المسلمون» (٨٢١/ ٢).

(٢) تاريخ بغداد (٧/ ٢٢٩).

بهذه النفس كان الزبيري، أديب اليمن الفذ يستعد استعداد من يملك الحرية، ويحركه الأمل ويتعالى على حدود الأقطار، ويستخف بالمحن.

خصال أربع منحته الصبر في فترة الصبر، ووهبت التصميم على المناداة بالإسلام في فترة العمل، فأسس الحزب الإسلامي في اليمن المتصارع يوم كان وزيرا للمعارف والتربية بعد الثورة في الستينات، فتلقى رصاصات في صدره نقلته إلى ما نحسبها شهادة له.

إنه ما تقع فيه الجاهلية من أوهام كل مرة.

حسبوا أن الرصاصات ستنهي عمله، فكانت رصاصات قدمت لظهور المد الإسلامي الواعي الكفيل بإعادة السعادة إلى اليمن الباكي المعروف بالسعيد.

حرص على البيع

تُرى أكان الزبيري يجهل أن جهره سيجلب الرصاصات إلى صدره؟

كلا، لكنها كذلك تضرب اليمن الأمثال..

إنها سنة الدعاة في الحرص على الموت..

لقنهم إياها خالد بن الوليد ﷺ لما وصل ومن معه ممن فتح بهم العراق، فغدت شرطًا في كل

داعية، في كل جيل قال للفرس: «قد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة»[1].

وصاغها لهم عبد الله بن المبارك، إمام التحدي وبطل الجهاد، في بيتين كان يتمثل بهما كلما خرج لصالحة فيقول:

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٤٤).

بغض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفسي بما ليســـت له ثمنا

إني وزنت الـــذي يبقى ليعدله ما ليس يبقـــى فلا والله ما اتزنا[1]

لا تشتغل بترهات:

فكذلك قاموس لغة الدعاة، يتطور ويتنامى ويضيف كل جيل منهم جديدًا إلى اصطلاحات صفاتهم، وضع بعضهم كلمة الحرية في الاستعمال لما قال:

كـــن أبـــدا حـــرًا أبيًّـــا

وأضاف آخر الأمل لما قال:

لنـــا غـــد والأمـــل

وزاد الثالث:

دينـــه لنـــا وطـــن ونســـتخف بالمحـــن

وقبلهم وضع خالد: اصطلاح «الحرص على الموت»

وأضاف ابن المبارك: «بيع النفس»

ويطالعنا الآن الزاهد رويم باصطلاح «بذل الروح»

لما طلب منه صاحبه أن يوصيه فقال: «هو بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات»[2]، والأمر كذلك والله.

لا تعود هذه الأمة إلى إسلامها إلا بدعوة تؤسس ابتداء على بذل الروح، وإلا فإن الأماني مما دون ذلك والتعويل على احتمال سماع أئمة الكفر لوعظنا واللغة الدبلوماسية، لا تعدو أن تكون ترهات فحسب.

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٦).

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص١٨٣.

ويا لها من صرخة في المشرق كان يمد ابن الجوزي بها صوته على شاطئ دجلة ببغداد، ويهتف: «أوَّل قدم في الطريق: بذل الروح.. هذه الجادة، فأين السالك؟»[١].

وما زالت أجيال فتيان صباح الوجوه في كل قطر تجيبه أن: نحن السالكون، ألَا قد بلغت، وإنا لنشهد.. بلغتنا فانتظمنا، وخرجنا عن التهوُّر، وها هي أرواحنا ملك التخطيط الموزون، نبذلها متى شاء.. وفي زمنها كانت تجاوبها فصاحة مغربية تنطلق من لسان الدين بن الخطيب تؤكِّد أن: نعم، «إن طريق القوم مبنيةٌ على الموت»[٢].

وهي «قطرة الدم» أيضًا، كذلك سماها داعية بسيط من الرعيل الأول، لا يحمل شهادة، ولا له اسم مُشتهر، فقال لأميره بلسان الإيمان: «إن قطرة الدم ما زالت غالية على المسلمين، وما دامت قطرة الدم غالية فإنهم لن يصلوا إلى شيء، لأن ثمن العزة والحرية قطرة الدم فقط»[٣].

وهكذا تكون قوَّة بلاغة لسان الصدق وإن كان صاحبه لا يعرف الجرجاني ولا الجاحظ.

وهي الحدَّة والجرأة عند محمد إقبال، قرن الاثنتين في بيت فقال:

حديـــــدٌ: إذا ما طغـــــى باطلٌ جريء لـــــدى المعرَك: المؤمن[٤]

وهي التضحية في اصطلاح وليد حين يقول: «هو الإسلام تضحية يريد»[٥].

وعند آخر: أن تكون العظمة مع هوى العيش، ويصوغها نشيدًا يردِّد:

---

(١) المدهش لابن الجوزي، ص٢٩٩.
(٢) روضة التعريف، ص٣٧٤.
(٣) مذكرات الدعوة والداعية، ص١١٤.
(٤) - ديوان ضرب الكليم، ص٢٩.
(٥) ديوان الزوابع، ص٦٨.

إن نفسًـــــا ترتضي الإسلام دينًا ثـــــم ترضى بعده أن تســـــتكينا

أو تـــــرى الإسلام في أرض مهينًا ثم تهـــــوى العيش نفس لن تكونا

في عـــــداد المســـــلمين العظماء

ويجمع داعية فقيه كل هذه الاصطلاحات في فتوى فقهية واضحة بعيدة عن تهمة فرط الحماسة، يقول فيها: «الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر فرضٌ كفائي يجب أن يكون في الأُمة، ولكن إذا كان الحاكم ظالمًا باغيًا لا يتَّسع صدرُه لسماع النصيحة إلى درجة أنه يقتل من يأمره وينهاه، فإن هذا الفرض يسع الفرد تركه، لا الأُمة، ولكن من المندوب إليه، بالنسبة للفرد، القيام بهذا الفرض ولو أدَّى ذلك إلى موته، يدل على ذلك الحديث الشريف: «سيدُ الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قال كلمةَ حقٍّ لسلطان جائر فقتله»، فيُفهم من هذا الحديث أن من المندوب إليه: القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو أدَّى ذلك إلى قتل الآمر، ولا يعترض علينا بأن إلقاء النفس في التهلكة لا يجوز، وهذه تهلُكة. قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة:١٩٥]؛ لأَّن الاستشهاد في سبيل الله ليس بالتهلكة، وإنما هو ضربٌ من ضروب الجهاد، وما يترتَّب عليه من تقوية نفوس المُحقِّين وخذلان المبطلين وإيقاف الظالمين عند حدِّهم، فحسن لهذه المعاني، وندب الشرع إليه[1].

المراحل الثلاث:

إن هذه الفتوى، والثروة اللغوية التي في قاموس الدُعاة، وإقدام الهول الموصوفة من قبل، وهذا المثال اليماني، وعشرات الأمثلة في التاريخ الحديث والقديم، لا تعني الاستعجال، ولكنها تُثبت بندًا في قانون التربية الحركية للقاعدة الصلبة، عنوانه: غرس

(١) مجلة التربية الإسلامية (٥/ ٧٦٠).

الاستعداد وشرح التبعة منذ البداية.

الاستعداد النفسي لبذل الروح وقطرة الدم عند الحاجة، فليست الدعوة جمعية خيرية تَقنعُ بالقليل.

والاستعداد للتعب اليومي، فدون غاية الدعوة رحلة طويلة، وليست هي مجرَّد تصفيق في احتفال أو استحسان لمقال.

والاستعداد بإنفاق السرور، وتحمل ثقل مصائب الأُمة، ابتداءً بقضية فلسطين، وانتهاءً بمآسي التنصير في إندونيسيا ومذابح المسلمين في البنغال والفلبِّين.

وهذه الثلاث هي وجه للمرحلية التي ذكرها أحد الوعَّاظ قديمًا في قوله: «يا هذا: أوَّل الطريق سهل، ثم يأتي الحزن، في البداية: إنفاق السرور، وفي التوسُّط: إنفاق النفس»[1].

وهذا يقتضي أن تكون هناك نهاية أيضًا، وأن يكون في النهاية ما هو أكبر من إنفاق النفس، ولم يذكره، لكن الدعاة يميزونه في صورة لعلها هي «إنفاق ما بعد النفس»، وأظنها صورة الشوق الشديد إلى الحوريات السبعين، فهو اجتماع الشوق بدرجة تُنسي الداعية طعم الراحة، ولذَّة الطعام، وأُنس الزوجة، وتجعله هائمًا راكضًا بلا التفات.

ومن هذا الوصف القديم للمرحلية، الذي جاء على لسان الواعظ، ومن وجهها الآخر الذي رسمته الاستعدادات الثلاث، يتَّضح الوصف الحركي الحديث للمرحلية المتدرِّجة المتناسبة مع القوَّة والواقع المحيط، المنسابة مع انسيابية سير الحاضر نحو المستقبل، وانسيابية الاقتران الكامن في فقه الدعوة بين تفقُّهنا الشرعي وخبرتنا التجريبية.

(١) روضة التعريف، ص٣٧٠.

حديث من استراح:

هذا، كما يقول الإمام أحمد، أو هو حديث ذي العقل المستريح.

كان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ داعية نبِهًا يقود تجمع دعاة من أهل التضحيَة والبذل، وكان يعرف قيمة ثبات الداعية في المِحَن، وأثر عدم إجابته لما يدعونه إليه من القول بخلق القرآن في تثبيت المسلمين، فمِن ثم لم يجد لمن لا يفهم معاني لغة الدعاة واصطلاحات قواميسهم غير اصطلاح: «أصحاب العقول المستريحة».

إنه لا يكرههم، ولا يزدريهم، بل يحبُّهم ويحرص عليهم، ويستفيد من خيرهم مهما قل، ولكنه لا يدخلهم صلة ما دامت عقولهم تتمتَّع بالراحة ولا تحركِّها مصائب المسلمين.

قال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطي: «دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي: يا أبا عبد الله: عليك عيالٌ، ولك صبيان، وأنت معذور.. كأني أسهِّل عليه الإجابة.

فقال لي أحمد بن حنبل: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت»[1].

وما أكثر ما يُقال مثل هذا للدعاة اليوم، وما أكثر من يفهم الإسلام ثم يُحدِّث نفسه بمثل هذا، فيَجبُن وينزوي ولا يشارك الدعاة سيرهم، وإنما هو حديث من استراح، كما يقول الإمام أحمد، وأما من لذع واقع الإسلام قلبه فأنى له الراحة؟ وأنى يدع لصبيانه وزوجه مجال تخذيله وتقييده عن الاندفاع مع الدعاة؟ وهل الموت إلا في آجال؟

هذا داعية المنصورة بمصر صلاح الشربيني ﷺ، لم يُمِته رصاص الإنكليز لما قاتلهم على قناة السويس، ولكنه مات على سرير مستشفى بعد أيام الحجِّ بمكَّة.

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ٤٣).

وهذا داعية البصرة قيس القرطاس ﷺ، لم يُمته عذاب السجن الرهيب، ولكنه مات مخنوقًا بالغاز في حمام بعد خروجه من السجن بأيام.

إن عهد الدعوة لن يُقدم أجلًا، ولكنه يرفع إلى الفراديس.

فإن لم يكن المسلم مع أحمد، أو مع ورثة أحمد اليوم، وقعد لِعذر أو شبه عذر، فإنه مطالب بالأسف وازدراء نفسه على الأقل، ألا يكون مع القوم العاملين، كما قيل للزاهد الثقة بشر بن الحارث الحافي يوم تعذيب أحمد: «قد ضُرب أحمد بن حنبل إلى الساعة سبعة عشر سوطًا.

فمدَّ بشر رجلَه، وجعل ينظر إلى ساقيه ويقول: ما أقبح هذا الساق ألَا يكون القيد فيه نصرة لهذا الرجل»[1].

مع أنه شهر وأذاع حبَّه لأحمد، لكن الخليفة تركه لشهرته بالزهد وحبّ العامة له، وخاف أن يوسع دائرة النقمة عليه.

فالمؤمن الصادق إن عذر نفسه وأفتاها بالتخلف، لنوع ضرورة أو ضعف يدريه من نفسه أو شبهة، عرف ما يوجبه ذلك من التواضع وترك التطاول على الدعاة، ويظل يتَّهم نفسه في اجتهاده، ويمنح الصابرين المقتحمين لسانًا جميلًا يكون لهم فيه نوع سلوة وراحة.

وأما أسير هواه فيجادل ويثرثر، ويقذف لسانه بكل لفظ صلب، ألا يوصف بتخلف، فيجمع بجداله نقصًا إلى نقص، والعياذ بالله.

ولن يزول المتخلف المستريح عن منازل الملومين حتَّى يفقه الوصف الحركي، وينطق بلُغة الدعاة، وينشد معهم ينقد على نفسه حاله الأوَّل:

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي، ص١١٩.

برئ الإسلام من شـــــاكٍ مضيم لا يـــــراه غير صـــــوم وصلاة

ذروة الدين جهـــــاد في الصميم فلنجاهـــــد، أو لتلفظنـــــا الحياة

فهذا هو القول الموجز والحكم الأخير في حالة المسلمين اليوم في جميع أقطار الإسلام.

إما جهاد وتعاهد على إرخاص قطرات الدم، وإما أن تلفظهم الحياة، ويستبدل الله تعالى بهم آخرين، أذلة على المؤمنين، أعزَّةً على الكافرين، يجاهدون في الله، ولا يخافون لومة لائم، ولا يغريهم جمال نساء ومال، ولا يرهبهم طغيان طاغية، واستئساد جاهلية.

نعم.. هذا أو لقب ذي العقل المستريح.

هذا.. وإلا فإنها الترهات.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة

المتوالية الفقهية الجهادية[1]

حين تصبح عقيدة المسلم، لن تجد صاحبها إلا مجاهدًا. وحين يقبل على الجهاد فإنه لن يقبل عليه بنفسية الممتن المتطلع لسطر إقباله مناقب تذاع بين الناس، وإنما يقبل عليه إقبالًا هادئًا مسترسلًا، يفهم معه أن جهاده جزء من كل، وشرط في إسلامه، وتكميل لإيمانه، لولاه لاعتوره النقص.

وإنها إحدى الحسنيين واضحة لديه:

إمـــا لفـــوز عاجـــل ومغنم أو لوفاة في الســـبيل الأكرم[2]

ويستحث أصحابه يحلي لهم ما هم فيه، ويعطيها لهم كلمة فصل:

فأنتـــمُ بيـــن حيـــاة صالحه أو ميتة تورث غنمًـــا رابحه[3]

فهي إما حياة -حين الفوز- تتحقق فيها أجواء الحرية، وتتحطم الطواغيت، فتجد القلوب والعقول لها مجالًا تحيا فيه حياتها الشعورية والتأملية، فنستأنس بتسبيح يشبع الفطرة، وبأفكار تقرب من المثال الكامل، فيكون للعيش معناه الجمالي، ويدوم بالحركة الدفاقة المترادة ما بين سلامة الاستجابة لأصداء الفطرة، وتحفيز الفكرة المبتكرة لغيرها في توالد تلقائي، فيترجم الجمال إلى لذة ونشوة هما مقصود النفس، وعنوان الحياة الصالحة.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤٧)، ٢٢ ربيع ١٣٩٣هـ/ ٢٤ أبريل ١٩٧٣م، ص٣٢-٣٨.
(٢) من شعر أبناء الخنساء في معركة القادسية طبقات الشافعية (٢٦١/ ١).
(٣) المرجع السابق.

أو: هي حياة، إذا كان القتل، في ربح الأعالي.. أعالي قلوب الأحياء الوارثين، وأعالي جنات رب العالمين.

وهذا هو ما يفسر لنا ثراء تاريخ صدر الإسلام وقرون الخير الأولى بنماذج أصفياء النفوس الذين نقل كلماتهم وحكمهم على استئناس قلبي أبصروا به الحقائق كاملة، ولم يكن ثمة فيشٌ في رؤيتهم إياها، وبنماذج أصفياء العقول الذين أنتجوا لنا منها وزن دقائق الحياة لمنحها مقاديرها الجديرة بها، وأحلها أماكنها اللائقة بها، وأخر وقدم، وقلص وضخم فيها، في تنسيق تنتظم به انتظامها المنتج، المطور، وهما مقصود استخلاف الإنسان في الأرض.

فالسلف إنما أعدونا الحكمة والفقه لما جاهدوا، ولكنا نظرنا إلى فقههم وحكمهم لأنهم سطروها، فتمتعنا بهما، ولم ننظر إلى جهادهم لأنهم لم يسطروه، ولم يؤرخوا لأنفسهم، من بعد ما أصابوا أصل مقصود نفوسهم، وأصل مقصود استخلافهم، وعاشوا في لذة الإصابة الغامرة، إلا نتفا التقطها من أخبارهم بعض المؤرخين، أشفقوا على أمثالنا من المتأخرين أن تضل إذا جهلنا الرابطة السببية بين جهاد السلف وفقههم، وقد ضللنا بمقدار ما جهلنا من هذا التاريخ الجهادي الذي تحلى به الفقهاء، ثم ضللنا أخرى وبعدنا عن دقة الفقه والاجتهاد بمقدار ما تركنا من هذا الجهاد، وطلبنا الفقه والحكمة من غير مظانهما، نظنهما في صيحات المنابر، ومحاورات البلغاء، ومن ثم وقف التطور، واستجدت حالات في الحياة تريد حكيمًا يصفها، وفقيها يحل إشكالها فلا تسمع حسًا.

ولن يتطور فقهنا حتى نستأنس في حياتنا.

ولن نستأنس حتى نذوق الحرية ونجيب فطرتنا.

ولن نذوق الحرية حتى تتحطم الطواغيت.

ولن تتحطم الطواغيت حتى نجاهد.

ولن نجاهد حتى ينفضنا تاريخ فقهاء السلف من روحه.

روح من جهاد فقهاء التابعين:

كان التابعون ﷺ زهادًا. لكن، لم يكن زهدهم انزواء، وإنما كانوا يجملونه بالجهاد.

ولم يكن جهادهم مجردًا، بل كانوا يجملونه بالفقه. وبذلك رسموا طريق الدعاة، ووضعوا شرط من يريد أن يتبع بإحسان..

ورابع قارب طبقة هؤلاء الثلاثة، خبره يفتح علينا أخبار طبقة واسعة بعدهم، هو الفقيه ابن الفقيه حفيد التابعي الفقيه، عيسى بن يونس بن التابعي أبي إسحاق السبيعي الهمداني عمرو بن عبد الله الكوفي. ثقة جليل، ومحدث ملأت رواياته الصحيحين والسنن.

قال أحمد بن حنبل: «كان سَنةً في الغزو، وسنةً في الحج»[1].

طبقة فقهاء مطلع القرن الثالث:

ومع بداية القرن الثالث يكون الانتشار التعبوي للجحفل الفقهي الميمون مؤرخًا بسعة، يقودهم الشافعي الإمام القرشي.

قالوا: كان راميًا ماهرًا، يرمي عشرة سهام على الهدف تصيب كلها[2].

ولذلك كثر في أتباع فقهه المجاهدون، كمثل الإمام القتال في جهاده الروم، وفي تحفته الميمية الطويلة التي يصف فيها مسيرة جيش الجهاد الذي ضمه، والتي

(١) تهذيب التهذيب (٢/ ٢٧٠).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٦٤).

هي إحدى معلقات الفقهاء، ويبلغ ذروة البيان خلالها حين يعطي الوصف الدائم على مر القرون لعصبة القاعدة الصلبة والصفوة المؤمنة في بيتين يقول فيهما:

فللحـــــق أنصـــــار، ولله صفوة يذودون عنه بالســـــيوف الصوارم

دعاة شـــــروا أرواحهم من إلههم بجناته، والله أوفى مســـــاوم[1]

ومنهم: محمد بن مصعب، من أصحاب مالك، ومن شيوخ أحمد بن حنبل، صدوق في الحديث صاحب غزو[2].

ومحمد بن علي الأسدي الموصلي، من أصحاب ابن عيينة، كان «من أهل الصلاح والفضل والجهاد، قتل في سبيل الله تعالى بشمشاط، مقبلًا غير مدبر»[3].

كأن في إقباله وإقدامه هذا ووفائه للمقصد الفقهي أنشأ أبو تمام تقريره عن المعركة.

إنها أبيات تصلح ديباجة لتقاريرنا عن معارك الغد، حين ترفع الأخبار بسبق إخواننا إلى الجنة..

ولعمرو الله إن فيها اهتزاز القلب والطرب.

يخفق القلب مع صدى حركة الإقبال وذروة سرعة الانعطاف نحو الموت التي صورها أبو تمام:

وقد كان فوت الموت سهلًا فرده إليه الحفـــــاظ المر والخلق الوعر

فأثبت في مســـــتنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

غدا غدوة والحمد نســـــج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر[4]

(١) المرجع السابق.
(٢) الجرح والتعديل، ج ٤/ ق (١/ ١٨٨).
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٧٢/ ١).
(٤) كتاب الثقات لابن حبان، ص١٤٦.

ومحمد بن عبدالجبار القرشي، من أصحاب ابن المبارك وشيوخ أبي داود، ثقة وصفوه بانه: «حج نيفا وأربعين حجة، وخمسًا وأربعين غزاة، وكان من كبار النساك»[١].

وكان أبو نعيم الكوني شيخ البخاري إذا راه قال: «هذا الذي لا تجف له لبدة، إما حاج وإما غاز»[٢].

ومحمد بن إسماعيل بن أبي سمينة البصري، من شيوخ البخاري وأبي داود، كان ثقة في الحديث، شجاعًا غزاء[٣].

ومحمد بن سليمان الأسدي الكوفي، ثقة من شيوخ أبي داود والنسائي، كان يرابط مجاهدًا في ثغور المسلمين تجاه الروم[٤].

وعلي بن بكار البصري، زاهد محدث ثقة من أصحاب الأوزاعي، قتل شهيدًا في سبيل الله تجاه الروم سنة سبع ومائتين[٥].

وعمرو بن مرزوق الباهلي البصري، أحد كبار أصحاب شعبة، وشيخ البخاري وأبي داود، كان ثقة من أهل العبادة والقرآن والجهاد والغزو في البحر[٦].

وإبراهيم بن شماس السمرقندي، محدث ثقة من أصحاب ابن المبارك. «كان صاحب سنة، وكانت له نكاية في الترك.. وكان رجلًا ضخمًا عظيم الهامة.. وله حظ من الغزو، وكان فارسًا شجاعًا، قتله الترك وهو جاء من ضيعته، وهو غار لم يشعر بهم»[٧].

(١) تاريخ الطبري.
(٢) المرجع السابق.
(٣) التهذيب (١٠٠/ ١٠).
(٤) المرجع السابق (٢٠٧/ ٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٢٧٨/ ٦).
(٦) المرجع السابق (٢٦٦/ ٧).
(٧) التهذيب (٢١٨/ ٥).

ادفنوا سيفي معي!!

ولكن الرائعة قصة أحمد بن إسحاق السرماري، أحد شيوخ البخاري الذين روى عنهم في صحيحه.

قال ابن حجر: «كان يضرب بشجاعته المثل - أخباره في المغازي والشجاعة كثيرة وذكره ابن حبان في الثقات فقال: كان من الغزائين، وكان من أهل الفضل والنسك مع لزوم الجهاد»

وحين حضرته الوفاة: رفع سيفه وناجاه، ولوح به وأظهر حبه العظيم له، وقال لمن حوله من تلاميذه يصف لهم قتاله الأتراك المشركين الذين كانوا في أنحاء بخارى: «أعلم يقينًا أني قتلت به ألف تركي، ولولا أن تكون بدعة لأمرت أن يدفن معي»[1].

وليس لك إلا أن تصدق، مع أنها قصة أقرب إلى ألا تصدق أول وهلة، فإنه ثقة يقول لك أنه يعلم يقينًا أنه قتل هذا العدد، والمرء أبعد ما يكون عن الكذب والمبالغة ساعة الموت.

وبمثل هذا البلاء يعطي المسلم مصداق الفقه، وصداق الحور.

تربية تتركز في البخاري:

وتتجمع التأثيرات التربوية لهذه السير الفذة لتنتج من شخص أمير المحدثين البخاري صاحب الصحيح مجاهدًا متحفزًا.

كان مرابطًا متيقظًا، وراميًا هدافًا.

قال كاتبه وراويه: «رأيته استلقى ونحن بقرير في تصنيف كتاب التفسير وكان أتعب نفسه في ذلك اليوم في التخريج، فقلت له: إني سمعتك تقول: ما أتيت شيئًا

(١) المرجع السابق (٤٤/ ٥).

بغير علم، فما الفائدة في الاستلقاء؟

قال: أتعبت نفسي اليوم، وهذا سفر خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو: كان بنا حراك[1].

وقال: «وكان يركب إلى الرمي كثيرا، فما اعلم أنى رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، بل كان يصيب في ذلك ولا يسبق»[2].

وللزهاد نصيب!

وفي الزهد والنسك والقناعة تطهير للقلب.

ومتى ظهر القلب وصفا: ظهر أثره على اللسان حكمة تفيض وتصف الواقع بصدق وإصابة، فتنفع الناس، وتكون توطئة ومقدمة للفقه أن ينطق، وترسم له طرق سيره.

محكمة الزاهد.. مدارج الفقيه:

ولم تخلد حكمة رهط الزهد الأول إلا بفيض التأمل القلبي المصاحب لحركات قتال الجاهلية.

منهم: محمد بن واسع، الزاهد الحكيم المشهور ثقة في الحديث، ومن كبار أتباع التابعين «كان من العباد المتقشفة، والزهاد المتجردين للعبادة، وكان قد خرج إلى خراسان غازيًا»[3].

وحاتم الأصم، الزاهد صاحب الحكم، قاتل المشركين في بلخ الواقعة في بلاد

(١) المرجع السابق (٢٨٥/ ٥).
(٢) المرجع السابق.
(٣) تاريخ بغداد (١٦٧/ ١٠).

الأفغان اليوم.

ومحمد بن عبد الله بن دينار، نزيل بغداد، فقيه ثقة، عابد معروف بصيام النهار وقيام الله مع صبره على الفقر، وكان يغزو في كل ثلاث سنين.

ومحمد بن إبراهيم أبو حمزة الصوفي، الذي آل قول الإمام أحمد بن حنبل له: «كان له مهر قد رباه، وكان يحب الغزو»[1].

وأحمد بن سعيد الصولي الزاهد، صحب الجن ونزل طرسوس للغزو، ومات بها[2].

قصص تهتف وتنادي أن نطلب الحكمة والفقه من مظانهما، يجعل الجهاد منهجًا لدعوتنا، وشرطًا لداعيتنا ومن نريده لبنة في قاعدة الأساس الصلبة.

ولكن..

لا بد من عود على بدء، ورجعة تحدد النسبية خلالها معنى الجهاد وحدوده وتفاضل صوره، وتقرير ضرورة اعتبار إقصاء الطاغوت المتسلط من أفضل الجهاد وأقرب صوره إلى حاجة حاضر العالم الإسلامي.

(١) التهذيب.

(٢) المرجع السابق.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. سباق في المجتمع المسلم[1]

حين ذِكر المتوالية الفقهية الجهادية، ورؤية تعاقب سيرها خلال تاريخ السلف: تتجسد لأول وهلة صورة الفقيه المجاهد، ويسبق إلى الذهن معنى ضرورة الجهاد للفقيه، ويتركز النظر إلى وجهه لما لعينيه من التوهج والبريق مثل الذي ينهمر منهما من الدموع، وفيه من الصرامة مثل ما فيه من البراءة، ويعلوه من الغبار مثل ما يعلوه من الوقار.

وتلك صورة صادقة كثر في الناس من يتخيلها، لغلبة بدعة انزواء العلماء، وقصورهم عن مواكبة تطور الأحداث، وتلبية حاجات الإسلام.

ولكن هناك صورة أصدق منها.

والأصدق منها: صورة المجاهد الفقيه؛ إذ إن الفقيه إذا تصدى للجهاد فإن نظرة الجند العرفية إلى وقار حامل الفقه، وإيجابهم على أنفسهم حمايته وإبعاد الخطر عنه، وقلة خبرته هو عادة بفن الحرب وتطوراته، كل ذلك يجعل منه تابعًا ومقودًا، لا رأسًا في الجيش وقائدًا؛ ولذلك لا يظهر أثر فقهه كله في سيرة الجيش وسياسته ومعاركه؛ لأنه شريك في الرأي فحسب، ولغيره ممن لا فقه له سهم معادل أو راجح.

ولذلك كان الصدق والأثر التام للمجاهد إذن فقه، فالإسلام بحاجة إلى مجاهد فقيه، يخطو، وينتشر، ويقدم، أو يتراجع ويهادن، على بينة وحسن تقدير، أكثر من حاجته إلى فقيه يترك العزلة فيجاهد؛ لأن سبق المجاهد إلى الجهاد كفيل بوضعه في

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤٨)، ٢٩ ربيع الأول ١٣٩٣هـ/ ١ مايو ١٩٧٣م، ص٣٦-٣٨.

مركز القيادة.

وفي هذا ما يتمم فهمك للمتوالية الفقهية الجهادية: أنك كما رأيت الفقه فيها خطوة مرحلية إلى الجهاد والشهادة، أن ترى الجهاد فيها محتاجًا إلى الفقه، ناقصًا بدونه، نقص انبهار ببريق الجاهليات وفلسفات لصيق الأرض، فيفصل بين جهاده وبين حكمه وتشريعه بعد النصر، أو نقص تعسف في التعامل، وتهور في الخطو، أو نقص اختلاط في النية، وحب شهرة وتطلع إلى الرئاسة، يكون بعده الافتئات على حقوق إخوانه في الجهاد عند أقل تباين في الاجتهاد.

ولا يزال دأبنا أن نحصي لك رجالًا من الفقهاء، دفعهم فقههم إلى الجهاد، ورجالاً من المجاهدين، ساروا في جهادهم على بينة من أحكام الشرع، وإصابة في تقدير ومعرفة الواقع.

ولا بد أن نبرز كثرة أفراد كل من الجمهرتين، ليقوم من معنى المتوالية الفقهية الجهادية شاهد في قلبك يذكرك إياها ولو لم تحفظ أسماء الرهط الكريم.

ثم لا يزال دأبنا أن نعضد ظاهرة التوالي بقصص من البطولة الفذة والشجاعة الخارقة التي لها من الإعجاب نصيب، لرجال تربوا في أحضان المجتمعات المسلمة، نعطيك الدليل أن سمتهم في الإقدام إنما هو منحة الإيحاء التربوي التي يحبو بها كل مجتمع مسلم أفراده عامة، ونقيم لك البرهان على المتوالية كما تضمن الانتصار، فإن سرعة الوصول إليه يضمنها تنامي التنافس في الخير والسباق إلى الجنة، وهو سباق يتمثل فيه أصل طريقة الإسلام في تنمية المجتمع الإنساني، واستفراغ وسع أفراده في تطويره وتحقيق كمال مقصود الاستخلاف في الأرض، فيسابق بينهم الكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن الطريق والغرس، ويظل يواكب تصاعد حاجات الفطرة الإنسانية، حتى يبلغ الذروة فيسابق بينهم في تحطيم الطواغيت.

فحركة المتوالية توجد المجتمع المسلم وتحرسه وتحفظ استمراريته وحياته والسباق إلى الجنة ينميه ويكثر خيره.

ولئن عشت مع أهل المشرق يحركون أوتار قلبك مع حركة متواليتهم، ويتسابقون أمامك يستفزون منافستك فإن لك بعد صحبة أخرى لأهل الأندلس يطمئنون نفسك من بعد الإيمان، ويكبرون لك صورة التوالي، ويبصرونك كيف يكون التعجيل في حركة السباق، حتى سرعة مادتهم أقصاها، فيتحولون طاقة تظل تمد الأمة بالحياة لحقب من المستقبل، وذاك دليل أتوا به في القديم على صدق الفيزياء الحديثة في تقريرها تحول المادة إلى طاقة عند بلوغها أقصى السرعة.

دولة العشرين:

«عشرون مسلمًا لا غير، يأتون من برشلونة من سواحل فرنسة، ويستولون على جبل هناك، ويبنون به حصنا، ويتزايد عددهم حتى يصيروا مائة رجل، فيؤسسون هناك إمارة تعصف ريحها بجنوبي فرنسة وشمالي إيطاليا، وتهادنها ملوك تلك النواحي، وتخطب ولاءها، وتستولي على رؤوس جبال الألب، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وإيطاليا، لا سيما معبر سان برنار الشهير، وتضطر جميع قوافل الإفرنج أن تؤدي للعرب المكوس لأجل المرور، ثم تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد البيامون مسافات بعيدة إلى أن تبلغ سويسرة وبحيرة كونستانزة في قلب أوروبا، وتضم القسم العالي من سويسرا إلى أملاكها، وتبقى خمسًا وتسعين سنة مستولية على هذه الديار، إلى أن تتألب الأمم الإفرنجية عليها، ولا تزال تناجزها إلى أن استأصلتها، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على ألف وخمسمائة رجل»[1].

(١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ لشكيب أرسلان، ص ٧٦، وأحال إلى تفصيل أخبار هذه الدولة

رجال في السباقا:

وكانت لأبطال الأندلس أغنية:

أغنية هي في البلاغة معجزة، كما أن قصصهم هي في تاريخ البطولة معجزة.

«يد تحمل الكأس الأحمر، في ظلال البيارق، على أنغام الصهيل».

ذاك هو نموذج البطل الأندلسي إذا أراد اللهو، وتلك أغنيته:

أجبنًا ورمحي ناصري وحســـــامي وعجزًا وعزمـــــي قائدي وإمامي

وحطًا على الرمضاءِ رحلي فإنها مهادي، وخفـــــاق البنود خيامي[1]

وأميرهم في البطولة: أميرهم في النسب.

إنه الأمير حريز بن عكاشة الأندلسي، من ذرية عكاشة بن محصن صاحب رسول الله ﷺ.

لجده سبق إلى الجنة، ثبت في الحديث الصحيح: أنه يدخلها مع أول زمرة من المؤمنين تدخلها.

وله هو سبق ولحاق بجده، إن شاء الله، بما قذف في قلوب الكفار من الرعب.

حارب الروم، فأراد ملكهم لقاءه، فخرج حريز «لابسًا لأمة حربه، يرمق الرومُ منه شخصًا أوتي بسطة في الجسم والبسالة، يتحدثون بآلات حربه، ويتعجبون من شجاعة قلبه، ولما وصل فسطاط الملك تلقته الملوك بالرحب والسعة، ولما أراد النزول عن فرسه ركز رمحه، فأبصر الملك منه هيئة تشهد له بما عنه حدث، وهيبة يجزع للقائها الشجاع ويكترث، فدعاه إلى البراز عظيم أبطالهم، فقال له الملك: يا حريز: أريد أن أنظر إلى مبارزتك هذا البطل.

في كتابه غزوات العرب في سويسرا وجنوبي فرنسا.

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري (٥/ ١٠٤)

فقال له حريز: المبارز لا يبارز إلا أكفاءه، وإن لي بينة على صدق قولي إن ليس لي فيهم كفء، هذا رمحي قد ركزته، فمن ركب واقتلعه بارزته، كان واحدًا أو عشرة.

فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه، ثم فعل ذلك مرارًا.

فقال له الملك: أرني يا حريز كيف تقلعه؟

فركب، وأشار بيده، واقتلعه، فعجب القوم»[1].

- ومنهم بطل آخر في أواسط القرن السادس الهجري، فإنه لما تفرق المسلمون واشتد أمر النصارى في أعقاب زوال دولة المرابطين في الأندلس: «اتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض»(٤).

قال عبد الواحد المراكشي: «وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم، بلغني عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة، ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلبًا وأسرعهم دمعة، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد، ولا يستطيع لقاءه بطل. كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس، إذا رأوا رايته قالوا: هذا ابن عياض! هذه مائة فارس.

فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح، وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ماردهم عن البلاد، وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد، ويذود عنها إلى أن توفي ﷺ ونضر وجهه وشكر له سعيه»[2].

ثم ابن فتحون السرقسطي الأندلسي، خال أم الفقيه الطرطوشي، صاحب كتاب «سراج الملوك».

(١) المرجع السابق (٥/ ٩٩).

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٨.

يقول الطرطوشي: «كان أشجع العرب والعجم، وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه، وكان يجري عليه في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه، فيحكى أن الرومي إذا سقى فرسه فلم يشرب، يقول له: اشرب، هل رأيت ابن فتحون في الماء؟

فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان، فأوغروا صدر المستعين، فمنعه أيامًا.

ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلى وسط الميدان ينادي: هل من مبارز؟

فخرج إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، وصاح الكفار سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومي يكر بين الصفين، وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي، فصاح الكفار سرورًا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يستجرئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقي الناس في حيرة، فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون، فدعاه وتلطف به وقال له: أما ترى ما يصنع هذا العلج؟

فقال: هو بعيني.

قال: فما الحيلة فيه؟

فقال أبو الوليد: فماذا تريد؟

فقال: اكف المسلمين شره.

فقال: الساعة يكون ذلك، إن شاء الله تعالى.

فلبس قميص كتان، واستوى على سرجه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويل

الطرف، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه، فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم طفر على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط في عنقه، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه من سرجه وجاء به يجره، فألقاه بين يدي المستعين»[1].

المتوالية الأندلسية:

فكذلك يربي المجتمع المسلم ابن عكاشة، وابن عياض، وابن فتحون، وكذلك يدفع بالعشرين.

ولم يأل فقهاء الأندلس جهدًا في أن تكون لهم متوالية ينافسون بها أهل المشرق في الاندفاع نحو الموت.

منهم: محمد بن طاهر القيسي التدميري الأندلسي، «كان عظيم القدر جدًا بالأندلس، بعيد الأثر في الخير والصلاح والعلم والنسك والانقطاع إلى الله تعالى، وكان من وجوه أهل «كورة تدمير» ذوي البيوت الرفيعة، وبرع بخصاله المحمودة، فكان في نفسه فقيهًا، عالماً، زاهداً، خيرًا، ناسكاً، متبتلًا. نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدعة، وطلب العلم في حدثان سنه، ورحل إلى قرطبة، فروى الحديث وتفقه وناظر، وأخذ بحظ وافر من علم المسألة والجواب، وكان أكثر علمه وعمله: الورع، والتشدد فيه، والتحفظ بدينه ومكسبه، ورسخ في علم السنة، وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر.. ونزل مدينة طلبيرة، وكان يدخل منها في السرايا إلى بلد العدو، فيغزو، ويتقوت من سهمانه، ويعول على فرس له ارتبطه لذلك، وكان له

(١) سراج الملوك، ص٣٣٩.

بأس وشدة وشجاعة وثقافة، يحدث عنه فيها بحكايات عجيبة، إلى أن استشهد مقبلا غير مدبر سنة تسع وسبعين وثلاثمائة»[١].

ويحيى بن غانية الأندلسي، أحد رجال علي بن يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين.

«كان حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس».

فمنها أنه كان رجلًا صالحًا شديد الخوف لله، عز وجل، والتعظيم له، والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع رواية للحديث، وكان مع هذا شجاعًا فارسًا، إذا ركب عُد وحده بخمسمائة فارس، وكان علي بن يوسف يعده للعظائم، ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيرًا من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة، مكاره قد كانت نزلت بهم»[٢].

ومنهم: الحافظ أبو الربيع الكلاعي.

«كان ﵀، حافظا للحديث، مبرزًا في نقده، تام المعرفة بطرقه، ضابطًا لأحكام أسانيده، ذاكرًا لرجاله، ريانا من الأدب».

خطب ببلنسية، واستقضى، وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة، والإقدام والجزالة. حضر غزوات، وباشر القتال بنفسه، وأبلى بلاءً حسنًا»[٣].

وقتل ﵀ في وقعة أنيجة سنة ٦٣٤هـ وهو ابن سبعين، «متقدمًا أمام الصفوف زحفًا على الكفار، مقبلًا على العدو، ينادي بالمنهزمين: أعَنِ الجنةِ تفرون؟ حتى قتل صابرًا محتسبًا، برد الله مضجعه»[٤].

ولزهاد الأندلس نصيب من الجهاد أيضًا.

(١) نفح الطيب (٣/ ٤)، وقد ذكرنا في مقالة هواية جمع الغبار سيرة المنصور بن أبي عامر.
(٢) المعجب، ص٣٤٢.
(٣) نفح الطيب (٦/ ٢١٨)
(٤) المرجع السابق (٦/ ٢١٦).

منهم: محمد بن سعدون التميمي. أندلسي زاهد متعبد، كثير الآداب. غزا غزوات، وتعرض للجهاد، وحرض عليه حتى توفي سنة ٣٤٤هـ[١].

هذا في كثير من أمثاله، نخشى أن نطيل ذكر أخبارهم.

تقرير عن المعركة:

فلما كانت مثل هذه البطولات: وجدت البلاغة الأندلسية مجالها لتصف وتكتب تقريرها وتنافس بلاغة أبي تمام في تقريره المشرقي.

فتمتع أيها الأخ بتقرير لسان الدين الخطيب: «الحمد لله ملهم الرشاد، الذي نلقي إلى التوكل عليه مقاليد الاعتماد، ونرفع إليه أكف الاستمداد، ونخلص لوجهه الكريم عمل الجهاد، لنتفيأ ظلال الجنة من تحت أوراق السيوف الحداد.

وبعد: فقد صبحناهم بكتائب منصورة، وإذا كثر الله العدد نما وزكا، وإذا أزاح العلل ما اعتذر غاز شكا، وقد بادر الكفار سرعان خيل المسلمين، فصدقوهم الدفاع والقراع، وخالطوهم هبرا بالسيوف، ومباكرة بالحتوف، فتركوهم حصيدًا، وأذاقوهم وبالاً شديدًا، وجدلوا منهم جملة وافرة، وأمة كافرة، وظهر القليل على الكثير، وباء الكفر بخطة التعثير، واستوى الدين الحنيف على المهاد الوثير.

وكنت لا ترى إلا نفوسًا تتزاحم على مورد الشهادة أسرابها، وليوثا يصدق في الله تعالى ضرابها، وقال الشهيد السابق: يا فوز استباقي. واغتنم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي، وتكلم لسان الحديد الصامت، وغصت الوهاد بالتكبير والتهليل، وانهالت الجموع المجاهدة في الله تعالى انهيال الكثيب المهيل، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل، وسمت الهمم الإيمانية، وخفقت بنصر الله تعالى عذبات الإعلام،

(١) المرجع السابق (٢/ ٣٣٩).

وأهدت الملائكة مدد السلام، فخذل الله تعالى الكفار، وكسرت الصلبان، وجلل الإسلام شعار العز والظهور، وأعرست الشهداء، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، وانصرفنا بفضل الله والمناجل دامية، والأجور نامية، وقواعدهم مدمرة تدميرًا، وعلا فوق مراقيها الأذان عزيزًا جهيرًا.

وإنها لعبرة لمن ألقى السمع، وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع.

لم ينبض للفتنة عرق.

وأهلك الله الطاغية، ومزق أحزابه الباغية.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الحاشر العاقب، ونبيه الكريم ذي المناقب، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين ظاهروه في حياته بأعمال السمر العوالي والبيض والقواضب، وخلفوه في أمته بخلوص الضمائر عن شوب الشوائب.

ولما ابتلانا الله بهذا العدو ومصادمة تياره، على تعدد أقطاره: تسلحنا بالوفاق، وكنا تحت عهد من الله وميثاق، ولم نقصر في إبرام العزم واستشعار الحزم، مع توفر العزائم والحمد لله على العمل الحميد، والسعي فيما يعود على الدين بالتأييد.

فإن من ظهر عليه عدو دين الله تعالى وهو من الله مصروف، وبالباطل مشغوف، وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف، فقد تله الشيطان للجبين.

ومن أفرد بالعبودية وجه الواحد الأحد المعبود، ووطن النفس على الشهادة المبوئة دار الخلود، أو الظهور على عدوه المحشور إليه بالشهود، صبرًا على المقام المحمود، وبيعًا من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود: كان على أمريه بالخيار المودود: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التَّوْبَة:٥٢] (١).

(١) مجموع مقتطفات متفرقة من كلام ابن الخطيب مما أثبته المقري في نفح الطيب.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة

سعة الرجاء رغم قلة العدد[1]

سعة الرجاء رغم قلة العدد: صفة بارزة في جيل تأسيس الحركة الإسلامية في أي قُطر، والناقد الساذج يظن ذلك من إغفال الدعاة لحساب قوة أعدائهم، ومغالطة للمحسوس فيدعوهم إلى ما يظنه واقعية ويمثلها لهم في صورة مصالحة مع المؤسسات الجاهلية، تعترف فيها الحركة الإسلامية بحكم الجاهلية، كحقيقة لا مفر منها، ويعترف حكم الجاهلية فيها بالمقابل للحركة الإسلامية بحق وعظه وإكمال الجانب الخلقي الذي يفتقده.

وليس الأمر كما يظن الساذجون والوسطاء الفضوليون، فإنهم يقيسون قياس أهل الرياضيات، يطبقون المعادلات الحسابية إزاء رجاء الدعاة، والدعاة يقيسون قياس المجاهدين، يطبقون المعادلات الإيمانية، إزاء تعنت الطغاة.

فمن حق المجاهد أن يرجو الرحمة، كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البَقَرَة:٢١٨].

ورحمة الله في الحياة الدنيا هي النصر والتمكين، وفي الأخرى: هي الغفران والتمتع في النعيم.

فكما أن الرحمة معلقة بالجهاد، فإن الجهاد مسوغ للرجاء العظيم الذي يتجاوز

(١) مجلة «المجتمع» العدد (١٤٤)، أول ربيع الأول ١٣٩٣هـ/ ٣ أبريل ١٩٧٣م، ص٣٨-٣٩.

حدود القياس الحسابي.

وجهان لحقيقة الجهاد الواحدة، بها صار غرس الروح الجهادية صفة لازمة للتربية الحركية للقاعدة الصلبة.

ولأن السير إلى هذا النصر لا بد له من سبل مستقيمة توصل إليه فإن منحة الله الرحيم سبحانه قد اكتملت للمجاهد وهدته هذه السبل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكَبُوت:٦٩].

«فأكمل الناس هداية: أعظمهم جهادًا»[١].

وبهذا كان الجهاد بابًا لوضوح العقيدة الصافية، والفقه الصحيح، والوعي الحركي، وسبيلًا يلجها باغي النصر، وعلامات على حصول الهداية، بل بات الجهاد عنصر الحياة للجماعة الإسلامية، بفقده يكون الموت، كما أشار الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأَنفَال:٢٤].

«قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله «لما يحييكم» هو الجهاد، وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم. يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد»[٢].

وتواطأ الشاعران، القديم والمحدث، على تقرير هذا المعنى، فقال الشاعر العربي القديم:

تأخرت أســـــتبقي الحياة فلم أجد لنفســـــي حياة مثل أن أتقدما[٣]

(١) الفوائد لابن القيم، ص٥٩.
(٢) المرجع السابق، ص٨٧.
(٣) الأغاني (١٢/ ٢٦٧).

وقال إقبال:

إنمـــــا العيش جهـــــاد لا يقر وركود الحي موت مســـــتمر[1]

حساسية القلب:

والحياة المرادة تكون حياة نصر، وليس أوضح من معنى الحياة في النصر، أو تكون، إن تأخر النصر، حياة بإدامة نفرة القلب من الكفر وهذا معنى لا يتضح إلا للدعاة ولا ينظره الراقدون.

فالقلب حي طالما هو نافر من الكفر، فإن زالت النفرة واستأنس، ورضي بالكافر أليفًا ومعايشًا وحليفًا: صار إلى الموت أقرب، وتحول تدريجيًّا إلى حال نفاق يدفعه إلى الانتصار لنظام الكفر وأداء العبادات في آن واحد، وهذا هو ما يفسر لنا موقف من نراهم من المصلين الصائمين الذين يعملون ضمن مراكز قيادية في أحزاب الكفر، يتفانون في تثبيت حكم الطغاة وامتحان الجماعات الإسلامية.

لقد بدأ انحرافهم من يوم فقدت قلوبهم هذه النفرة وأذعنوا للنظام الجاهلي السائد.

«فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار ويكافح الباطل والمبطلين، وإما أن يرتد على عقبيه كافرًا -والعياذ بالله- ومحال أن يقف سلبيًّا بين بين، محافظًا على موقفه، ومحتفظًا بدينه. إنه قد يخيل إليه هذا. يخيل إليه في أعقاب الهزيمة، وتحت وطأة الجرح والقرح، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم، وهو مع هذا محتفظ بدينه، وعقيدته، وإيمانه، وكيانه!

وهو وهم كبير. فالذي لا يتحرك إلى الأمام في هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء، والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان، لا بد أن يتخاذل

(١) ديوان رسالة المشرق، ص١٣٩.

ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر، والضلال، والباطل، والطغيان.

والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه من طاعة الكافرين والاستماع إليهم والثقة بهم يتنازل -في الحقيقة- عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى.

إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته، وأن يستمع إلى وسوستهم، وأن يطيع توجيهاتهم.

فإن لم تكن الهزيمة بادئ ذي بدء، فلا عاصم من الهزيمة في النهاية والارتداد على عقبيه إلى الكفر، ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس.

إن المؤمن يجد في عقيدته وفي قيادته غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته، فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب.

حقيقة فطرية وحقيقة واقعية، ينبه الله المؤمنين لها، ويحذرهم إياها وهو يناديهم باسم الإيمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٤٩].

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب، من الإيمان إلى الكفر؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان؟ وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم، فهو وهم، يضرب السياق صفحا عنه ليذكرهم بحقيقة النصر والحماية: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٥٠].

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية، ويطلبون عندها النصرة، ومن كان الله مولاه فما حاجته بولاية أحد من خلقه؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد»[1].

(١) الظلال.

وهكذا «فإن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام، ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان ورفض باطلهم الزائف وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام، ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم!

وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء والأذى والصبر على الابتلاء والأذى، والصبر على الهزيمة، والصبر على النصر -أيضًا، فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة، ثم يثبت ولا يرتاب، ويستقيم ولا يتلفت، ويمضي في طريق الإيمان راشدًا صاعدًا»[1].

طوبى للمجاهد:

ومرة أخرى يهم الناقد الساذج حين يظن أن الممارسة الجهادية للمسلم، ابتداء بنفرة قلبه الدائمة عن الكفر وانتهاء بحمل السلاح والقتال، ترهقه وتكلفه باهظًا، وتأتي ثقيلة عليه وإنما هي لذة كلها في كل أشكالها.

لذة في ساعة العمل؛ عاجلة يكون فيها تعبه أثمن مما في الوجود كله، حتى ليرقص قلبه طربًا إذا سمع لحن اهتزاز عصبه المشدود، أو نغمة صفير الريح في زنزانته التي يظنون أن ضيقها سيمتص نفوره، أو خرير دمائه وهي تنبثق نازفة في آخر لحظات حياته.

ولذة في الآخرة آجلة، حين يسكن أحسن دار وقصر، ليس هناك في الجنة قط أحسن منها.

(١) هذا الدين، ص١٠.

وجل كلام النبي المجاهد كان لوصف هاتين اللذتين اللتين لا يتصورهما قاعد مستأنس، كقوله ﷺ: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»[١]، وفي لفظ «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وقوله حاثاً: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه»[٣]، وفي لفظ: «ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار»[٤]. وحين انتهت الهجرة بقي الجهاد قائمًا يستنفرنا، ويحثنا رسول الله ﷺ على إجابته فيقول: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[٥].

وعن مجاشع رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ أنا وأخي، فقلت: بايعنا على الهجرة، فقال: مضت الهجرة لأهلها.

فقلت: علام تبايعنا؟ قال: على الإسلام والجهاد»[٦].

وأما الدار التي هي أحسن دار فقد رآها النبي ﷺ وحدثنا عنها فقال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها. قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء»[٧].

نحو الميتة الكريمة:

فلهذا الذي تبين إذن من تعليق حياة المجتمع المسلم على الجهاد، وارتباطها به: أفتى الفقهاء بأن الرباط مقدم على العبادات، لتعدي نفعه وعموم أثره وقصور أثر

(١) البخاري (٤/ ٢٠).
(٢) مسلم (٦/ ٣٦).
(٣) البخاري.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق.
(٧) المرجع السابق.

العبادة على صاحبها. بل فهموا من الآيات والأحاديث أنه مقدم على المجاورة التي هي من أفضل العبادات.

قال ابن تيمية: «وذلك لأن الرباط هو من جنس الجهاد، والمجاورة من جنس النسك، وجنس الجهاد في سبيل الله أفضل من جنس النسك، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التَّوْبَة:١٩-٢٢].

وفضائل الجهاد والرباط كثيرة.

فلذلك كان صالحو المؤمنين يرابطون في الثغور: مثل ما كان الأوزاعي، وأبو إسحاق الفزاري، ومخلد بن الحسين وإبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك، وحذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط، وغيرهم يرابطون بالثغور الشامية. ومنهم من كان يجيء من خراسان والعراق وغيرهما للرباط في الثغور الشامية؛ لأن أهل الشام هم الذين كانوا يقاتلون النصارى أهل الكتاب. وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال «من قتله أهل الكتاب فله أجر شهيدين»، وذلك لأن هؤلاء يقاتلون على دين، وأما الكفار الترك ونحوهم فلا يقاتلون على دين، فإذا غلب أولئك أفسدوا الدين والملك، وأما الترك فيفسدون الملك وما يتبع ذلك من الدين، ولا يقاتلون على الدين.

ولهذا كثر ذكر طرسوس في كتب العلم والفقه المصنفة في ذلك الوقت؛ لأنها كانت ثغر المسلمين، حتى كان يقصدها أحمد بن حنبل، والسري السقطي وغيرهم

من العلماء والمشايخ للرباط، وتوفي المأمون قريبًا منها»[1].

فليس هو ابن المبارك فقط يعيب مجاورة الفضيل بن عياض ويسير له تلك الأبيات الرائعة التي افتتحها بقوله:

يا عابد الحرمين لـــــو أبصرتنا لعلمت أنك فـــــي العبادة تلعب

وإنما هي جمهرة أهل النباهة من فقهاء السلف، جلهم ذهب مذهب ابن المبارك وجاهد كجهاد ابن المبارك. وفي أجواء الجهاد التي مارسها الإمام حسن البنا، واستنادًا إلى أقوال وصنيع أولئك الأئمة القدماء: قرر -الجهاد- أصلًا من أصول دعوتنا، وأعطاه مفهومه الواسع، وقال إنه يريد بالجهاد: الفريضة الماضية إلى يوم القيامة، والمقصود بقول رسول الله ﷺ «من مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية»

وأول مراتبه إنكار القلب، وأعلاها القتال في سبيل الله، وبين ذلك جهاد اللسان والقلم واليد، وكلمة الحق عند السلطان الجائر، ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد، وبقدر سمو الدعوة وسعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها وجزالة الثواب للعاملين وجاهدوا في الله حق جهاده.

قال: «وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم: الجهاد سبيلنا»[2].

ومن ثم كانت وصيته لأتباعه أن: «اعملوا للموتة الكريمة»[3].

فهي الكريمة، وحدها فحسب، ميتة المجاهد حال جهاده، قتلًا أو على فراشه لا ميتة من رقد.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، وطرطوس في الأناضول قريبة من البحر الأبيض، ولا تزال عامرة.
(٢) المجموعة، رسالة التعاليم، ص١٤.
(٣) المجموعة، رسالة الجهاد، ص٦٠.

الجهاد.. نهج دعوة وواجب داعية[1]

«وأما الحرب فهي عندنا: الفكرة المصلحة تريد أن تضرب في الأرض وتعمل»[2].

بهذه البلاغة الجامعة المانعة لخص مصطفى صادق الرافعي رحمه مبررات الجهاد الإسلامي.

وإنها لعبارة موجزة، لكنها لون ظاهر، وخط أصيل بارز في الصورة التي رسمها الرافعي لشخصيته الفكرية، وتعطي لناظرها، من أول وهلة، دلالات على كمال، وصفاء مشربه، ونجاته من حبائل إغراء أنصار السلام الموهوم.

فلأن الشيطان حي، باق مع حياة الإنسانية يغوي ويستصرخ أحزابه.. ولأن ما غير الإسلام من أديان سماوية محرفة، وأديان أرضية وضعية، وفلسفات لا ينفك عنها وعن أهلها الضلال والهوى..

ولأن الإسلام يحتكر الصلاح والإصلاح، لا يستطيع غيره أن يأتي ببرهان على أن له منهما نصيبا.

ولأن التاريخ يفضح صيحات السلام كلها، ويرينا أنها اتخذت أدوات خدعة ووسائل تمويه لاستعدادات الحرب وتمرير الخطط، وأنه لا يمكن تصور جو تنافس عقائدي حر تتحرك فيه العقائد لوحدها..

فإن الإسلام المصلح، يجب أن يضرب في الأرض إصلاحا، ويحصد ما هنالك.. لئن صعب على البعض إدراك هذا الصواب الذي سلكه الإسلام أول نشأته،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤٦)، ١٥ ربيع الأول ١٣٩٣هـ/ ١٧ أبريل ١٩٧٣م، ص٣٦-٣٧.
(٢) وحي القلم (١/ ٢٧).

وعسر عليهم فهم تعامله المتناسب مع حقائق الأمور، فإن الاعتداء الجاهلي العنيف على إسلام اليوم لا يدع لمقالة السلام مجالا.

يحاول المتطفلون على اسم الدعوة أن يعكروا هذه الرؤية هذه الأيام، وأن يرخوا النفوس بتنافس في الدينار هو في عرف المجاهدين قرين الحرام، ولكن هيهات، فإن الدعاة يفقهون أن الحلال للمجاهد، كما يقول الإمام: «أمر واحد: أن يقدم دمه وروحه فداء لعقيدته وهداية الناس»[1].

ويعلمون أن مروره بالقتل: وظيفة من وظائف حياته، وقانون من قوانين عمله، فإن الداعية القائد إلى الله: حبة سنبلة: «فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتنزع وما بها أنها نزعت، ولكنها أدت ما تؤدي، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما اغتنت ولا افتقرت، ولا أكثرت ولا أخفت، بل حققت موضعها، فإنها ما نبتت لتبقى، وما نمت إلا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبدا في قانون آخرته»[2].

قصص الأولين مواعظ الآخرين:

وإنما ثورة الجيل اللاحق روح تستمد من الجيل السابق، وتاريخ دعوة الإسلام في القديم والحديث تاريخ خصب حافل ببطولات الجهاد، كان ولا يزال مصدر إثارة تربوية للدعاة يعبر عنها نشيدهم المجلجل:

قد أثارت دعـــوة الإسلام فينا روح آبـــاء كـــرام فاتحينـــا

أســـعدوا العالم بالإسلام حينا فاســـتجبنا للمعالـــي ثائرينا

وتســـابقنا إلى حمـــل اللواء

(١) المجموعة، رسالة الجهاد، ص٥٥.
(٢) وحي القلم (٢/ ٦٠).

وفي هذه المقالة، وفي اللواتي يلينها، نصاحب بعض الآباء الكرام الفاتحين، ليستمد الناشئ المسلم روحًا من روحهم، وليثق برصيد ماضيه، ذلك: «أن القوة الباطنة التي تدفع إلى الكفاح والعمل للدعوة، لا تنبع إلا من الثقة بالماضي، وبأن هنالك رصيدا من الجهاد والإخلاص، وسندا من الكفاح والنجاح»[1].

وبحمد الله: هو رصيد ضخم جدًّا، لن يستطيع إغراء، أو إغواء، أو تخذيل، أو تنكيل، أن يثقلنا إلى الأرض ويصدنا عنه طالما اتصلنا به معرفة وتأملا.

فأما شهداء الإسلام في عصر النبوة الكريمة فإن قصصهم أشهر من أن نحتاج هنا لتكرار ذكرها، وحسب جندي الدعوة الناشئ اليوم أن يعرف قصة سلف واحد له من الجنود الناشئة الذين كانوا بين يدي رسول الله ﷺ.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

«رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ للخروج إلى بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟

قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة.

فعرض على رسول الله ﷺ، فاستصغره فقال: ارجع. فبكى عمير!

فأجازه رسول الله ﷺ.

قال سعد: فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد ود»[2].

(١) للندوي في رجال الفكر والدعوة، ص٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٥٠).

فرضي الله عنه من ناشئ تنبيك بطولته بخبر من كان معه من الناشئة، وخبر من رباه من الدعاة من وزراء رسول الله ﷺ.

يبكي حزنا أن يخرج من الصف ويتوارى احتيالا لنيل الشهادة، طريقتان يعلمهما عمير ناشئة الدعوة في هذا القرن.

ليست هي طرق المباهاة والتهور والتجاوز.

بل يدلهم كيف يتواضعون ويتملقون الدعاة المربين ليشركوهم شرف ما هم فيه فيمنحوهم بطاقة سفر، على مقعد صدق، في دعوة جهاد، إلى الشهادة.

رباعي اليمامة:

أو يكون ناشئ اليوم كأبطال اليمامة الميامين: البراء بن مالك أخي أنس، وأبي حذيفة القرشي، وسالم مولاه، الذي لو كان حيًّا يوم طعن عمر لاستخلفه، وثابت بن قيس بن شماس، خطيب رسول الله ﷺ، ورديف شاعره حسان، رضي الله عنهم.

حوصر المرتدون في حديقة الموت، فأغلقوا بابها.

فقال البراء: يا معشر المسلمين: ألقوني عليهم في الحديقة.

فقال الناس: لا تفعل يا براء.

فقال: والله لتطرحنني عليهم فيها.

فاحتمل، حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار اقتحم، فقاتلهم عن باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين، ودخل المسلمون عليهم فيها، فاقتتلوا حتى قتل الله مسيلمة عدو الله»[1].

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٠).

ولما رأى ثابت بن قيس انكشافًا في الناس تطيب، فوضع شيئًا من الحنوط على جسده، واستعد للشهادة، ثم قال: «ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عودتم أقرانكم»[1].

ثم تكلم فقال: «يا معشر المسلمين: أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أروني كما أريكم، ثم جلد فيهم حتى حازهم»[2].

وخر شهيدًا رضي الله عنه.

وبمثل هذا يكون الخطيب خطيبًا، يكون خطيبًا إذا جمع الحقيقة الخالدة وأصابها وعرفها ونقلها في كلمات لها أهلية الخلود.

كأنه يخطب في دعاة اليوم، ويرى تفرد الحركة الإسلامية، في ظل منحة العزة، أمام أحلاف أحزاب الجاهلية الجديدة، ويقول: «أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه».

فلم يبق إلا الإقدام بعدما منحت العزة.

«وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وحمل فحازهم حتى أنفذهم، وأصيب رحمه الله»[3].

و«قال سالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ».

فحفر لنفسه حفرة وقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، فقاتل[4].

ثم قال: «بئس حامل القرآن أنا إن فررت، فقطعت يمينه، فأخذها بيساره، فقطعت، فاعتنقها إلى أن صرع، فقال لأصحابه:

(١) صحيح البخاري (٤/ ٣٣).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩١).
(٣) المرجع السابق.
(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٨٨).

ما فعل أبو حذيفة؟ يعني مولاه.

قيل: قتل.

قال: فأضجعوني بجنبه»[1].

روائع في الفتوح:

ونتجاوز المشهور من قصص الفتوح لنرى روعة الخفي.

«عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، عن أبيه: أن أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا للزبير يوم اليرموك:

ألا تشد فنشد معك؟

فقال: إني إن شددت كذبتم.

فقالوا: لا نفعل.

فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم، وما معه أحد، ثم رجع مقبلًا، فأخذوا بلجامه، فضربوه ضربتين على عاتقه، بينهما ضربة ضربها يوم بدر.

قال عروة: كنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب بها وأنا صغير»[2].

ورفيقه: الصحابي حياض بن قيس القشيري، رضي الله عنه.

«شهد اليرموك، فقتل من العلوج خلقًا[3]، يقال: ألف رجل، وقطعت رجله وهو لا يشعر، ثم جعل ينشدها[4].

---

(١) الإصابة لابن حجر (٢/ ٧).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٩٧).

(٣) العلج هو المقاتل الكافر

(٤) أي ينادي في المسلمين عسى أن يكون أحد وجد رجله المقطوعة.

وفي ذلك يقول سوار بن أبي أوفى:

ومنا ابن عتاب وناشـــد رجله ومنا الـــذي أدى إلى الحي حاجبا

وأنشد له المرزباني يخاطب فرسه يوم اليرموك بعد أن قطعت رجله:

أقدم حـــذام إنها الأســـاورة أنا القشـــيري أخـــو المهاجرة

ولا تغرنـــك رجل نـــادرة أضرب بالسيف رؤوس الكافرة[1]

ولما انقطعت الهجرة يوم الفتح، كانت هجرة الدعاة مستمرة إذا تطلبها الجهاد، كما فعل الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ﷺ، أخو أبي جهل، حين فاتته الهجرة ولم يسلم إلا يوم فتح مكة، فخرج «في زمن عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام، فتبعه أهل مكة، فقال: لو استبدلت بكم دارًا بدار ما أردت بكم بدلًا، ولكنها النقلة إلى الله.

فلم يزل مجاهدًا بالشام حتى ختم الله له بخير»[2].

وقد قيل: إنه استشهد يوم اليرموك.

يُعلِّم الداعية بذلك أن يكون خفيف النقلة إلى الله متى دعاه الداعي، فإن كل أرض الإسلام وطنه.

* ويوم أجنادين قال هشام بن العاص ﷺ:

«يا معشر المسلمين، إن هؤلاء القلفان لا صبر لهم على السيف، فاصنعوا كما أصنع، فجعل يدخل وسطهم فيقتل النفر»

ثم: «ألقى المغفر عن وجهه، وجعل يتقدم في نحر العدو وهو يصيح: يا معشر

(١) الإصابة (١/ ٣٨٣).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٩٣).

المسلمين: إليّ إليّ، أنا هشام بن العاص، أمن الجنة تفرون؟ حتى قتل»[1].

وقريبه: عمرو بن سعيد الأموي ﷺ، كان يوم أجنادين أيضًا يحض المسلمين على الصبر، ثم حملوا.

«فمشى إليهم بسيفه، فما انكشفوا إلا وهو صريع وبه أكثر من ثلاثين ضربة»[2].

وهكذا كان معظم ذلك الجيل، ﷺ، حتى إن ابن أم مكتوم الأعمى ﷺ، أبى إلا أن يشهد القادسية، وكان معه اللواء يومئذ، وقيل: إنه استشهد فيها[3]، مع أن الله تعالى أنزل عذره في القرآن من فوق سبع سماوات: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) (النور: ٦١).

ووصف معقل بن يسار فتح أصبهان، فذكر أن أمير جيش المسلمين النعمان بن مقرن قال لجيشه: «إني أدعو الله، عز وجل، بدعوة، فعزمت على كل امرئ منكم لَمَا أمّن عليها:

اللهم أعط اليوم النعمان الشهادة في نصر المسلمين، وافتح عليهم.

وهز لواءه أول مرة، ثم هز الثانية، ثم هزه الثالثة، ثم شل درعه، ثم حمل فكان أول صريع».

قال معقل: «ثم جئت إلى النعمان ومعي إداوة فيها ماء، فغسلت عن وجهه التراب، فقال: مَن أنت؟

قلت: معقل بن يسار.

قال: ما فعل الناس؟

فقلت: فتح الله عليهم.

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١٩٣).
(٢) الإصابة (٢/ ٥٣٩).
(٣) المرجع السابق (٢/ ٥٢٣).

قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر.

وفاضت نفسه»[1].

ليلة يشغفها خالد حبًا!

هكذا كانوا: عشاق موت.

كانوا جيل جهاد، اجتباهم الله واختارهم ليكونوا هداة للبشر.

«رهبان بالليل، فرسان بالنهار، ترى أحدهم في ليله ماثلًا في محرابه، قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غري غيري فإذا انفلق الصباح ودوى النفير يدعو المجاهدين، رأيته رئبالًا على صهوة جواده، يزأر الزأرة فتدوي لها جنبات الميدان»[2].

ويظل هذا شأنهم حتى آخر لحظة، لا يذكرون إلا الجهاد، ولا يتشوقون إلا للشهادة، ويصرح أحدهم أنه لم يعش ليلة أحب إليه من ليلة إغارة، في صف من جيل التأسيس، صفوة القاعدة الصلبة، كما قال خالد ﷺ، عند موته:

«ما كان في الأرض من ليلة أحب إليّ من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين، أصبح بهم العدو؛ فعليكم بالجهاد»[3].

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١٤٣).
(٢) للإمام في المجموعة، إلى أي شيء ندعو الناس، ص١٤٠.
(٣) الإصابة (١/ ٤١٤).

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. حين تتكسر الأقياد[1]

لا يعدو النظر الجزئي لحقائق الإسلام وتاريخ الإسلام أن يمنحك بدوره فهماً جزئياً لحركة المتوالية المنتهية الجهادية في المجتمع المسلم، ولمحكمات ظهورها في مجال العمل والتأثير الفعلي، به نظن أن توالي توالد الجهاد من الفقه، وتوالي منح الفقه الربانية للمجاهد المتجرد الصادق، ينحصران في مجرد تعاقب قاصر لا يتعدى شخص الفقيه والمجاهد.

ولكن النظر الشامل، بما يملك من قدرة جمع الأحكام التفصيلية، ودقائق الأحداث التاريخية، وشوارد الآراء النقدية، ولمها في بؤرة واحدة يتسلط عليها تأملك معرفة وموازنة: ينقلك إلى رؤية جديدة تطلعك على خرق المتوالية للمجال الشخصي المحدود، وتعديها إلى تأثير ينتشر خلال المجتمع في حركة إشعاعية، تنطلق من مركز بدايتها في صورة فقه صائب أو مبادرة جهادية، فتتوسع نحو كل الجهات مثل الموجات، حتى تعم المجتمع المسلم كله، وبتعاقب توالد الفقه والجهاد أثناء حركة التوسع ذاتها، في ازدواج من تعاظم الخير وانتشاره، ينفرد بسمته المجتمع المسلم.

وسبب ذاك: أن أحكام الإسلام جاءت موافقة للفطرة الإنسانية، بل نابعة منها أصلًا، وقصرت نفسها على تنظيم إشباع هذه الفطرة، فمن ثَم يكون لصواب الفقيه صدى سريع في نفسه، يقدح في فطرته ميلها إلى تكميل حاجاتها، فتشرع في كل فعل جميل، وتلح في طلب الحرية إلحاحًا يخرجها إلى نيلها بالقتال.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٤٩)، ٦ ربيع الآخر ١٣٩٣هـ/ ٨ مايو ١٩٧٣م، ص٣٦-٣٨.

ويكون له صدى ثان في نفوس الآخرين، يستثيرهم إلى اللحاق به إذ يرونه يتجمل ويلح، في تكرار كأنه التقليد، وما هو بتقليد، لكنها طبيعة الفطر حين يُخَلَّى بينها وبين اختيارها، وحين يُحَلَّى لها التنافس في سباق نهايته الجنة.

وفي هذا ما يعطيك ضمانًا تضمن به عدم استمرار الضعف الذي يطرأ على أمة الإسلام، وإنها تظل حية، وأن متواليتها الفقهية الجهادية يمكنها التحرك مهما طال الجمود، متى ما قدح قادح وبدأ ودعا إلى التنافس.

وتاريخ الإسلام يدلي لك بشواهد من الاستجابة السريعة لدعوات التنافس، تعظمها وتسرع بها النصر إلى بركات ربانية في صورة الإعجاز.

فقد شهدت حقب تسلط ومبتدعة تُحركهم إلى ترويج بدعهم مخاوف افتضاح هدمهم في الجو العقائدي الصلب، أو تُحركهم عروق دساسة من الفلسفة التي نقضها الإسلام أو الأديان التي أجلاها، فكانوا يقسرون التجديد قسرًا على البدعة، بتخويف وإرهاب طويلين، فيما أغلب الجيل الخائف معاني الجمال الإسلامي في التعامل، فيرقد، ويستمرئ الذل، ويستخذل ويترك الجهاد، ويبدد طاقته في صراع داخلي على الرئاسة والمصالح الشخصية، لكن مشهدا فرديًّا من مشاهد الحرية والإباء يَمْثُل أمامهم يطرق فطرتهم فتكون انتباهة تتوالى أصداؤها، بسرعة أو بمقدار طول الرقاد وكثرة ما رسفوا فيه من الأقياد فيفقهون، فقه الاعتقاد ومعرفة الخالق كما وصف وفقه موازين العمل وأن العيش عيش الآخرة فينتفضون، فيجاهدون..

فإذا كان البادئ أميرًا صاحب سلطة، ومد الحرية للناس كلهم، وخلى بينهم وبين فطرهم، وحثهم على الجهاد: فإنك لا ترى ثم إلا مستجيبًا، وتمت المتوالية إلى حركتها في سرعة خاطفة.

قص التاريخ حديث من ورث الإمارة إرثا ونفسه فيها، ووهبه الوهاب عقلا وقلبا وزن بهما فهمه. ما بيَّن عن عز الفقه والجهاد في سبيل الله، وعز موهوم يمنحه تدليس يحاول إبعاد الفضيحة وقتها في سبيل الدنيا، فانتفض منقلبا على الأعراف الموجهة وخلى بين الفطر وحريتها، فعاد الفقه والجهاد.

وقص التاريخ حديث من كان فردًا، وعرف هذه الحركة السريعة لانتشار المتوالية حين تكون الأمة المحررة الفاكة للأقياد، فسلك دربها، ووصل إلى الناس، فوجدت الفطر مجالها الرحب، وعاد الفقه والجهاد والسباق.

مصداق من الشرق:

فحين تسلط البويهيون زمن الدولة العباسية جهدوا في نشر البدعة جهدهم، ومنعوا العلماء من تحديث العامة بمعاني العقيدة الصحيحة، واسترهبوهم، والبدعة شر كلها، وأظهر شرها أنها تغلف القلوب بغلاف من الرين يحجب عنه نور الحرية، فيعمى ألا يراها، ومن لا يراها لا يتشوق إليها، ويتعطل عن السباق، ويرجع سيفه إلى غمده.

وذاك الذي كان.

ولكن مبادرة السلاجقة سرعان ما أيقظت وحركت عقيدة السلف، وعادت صور من النصر طال افتقاده.

لها في الإعجاز مذهب كأنه مذهب الفتوح الإسلامية الأولى، وتعلوها من الربانية ملامح كأنها ملامح القادسية واليرموك.

ومن ظن أن في ذلك نوع غلو فلينصت إلى الفقيه الزاهد الطرطوشي، المتوفى سنة ٥٢٠هـ، يصف له انتصار الملك التركي السلجوقي العادل ألب أرسلان ﷺ، وكان قريبا من عهده.

يقول الطرطوشي: «كانت الروم قد جمعت جيوشا يقل أن يجمع لمن بعدهم مثلها، وكان مبلغ عددهم: ستمائة ألف مقاتل، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضا، لا يدركهم الطرف، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة لفتح الحصون في الحرب بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين، الشام ومصر والعراق وخراسان وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعد قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين، فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك الإسلام، فاحتشد للقائهم ألب أرسلان التركي، وهو الذي يسمى: الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدانيان، إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين وقالوا لألب أرسلان: غدا يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم في عدد لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقى المسلمون واجمين لما دهاهم.

فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو وقوتهم

وآلاتهم، فأمر ألب أرسلان أن يُعد المسلمون، فبلغوا أثني عشر ألف تركي.. فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص صواب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم أجمع رأيهم على اللقاء.

فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الإسلام وأهله، تم تأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: نسمي الله ونحمل على القوم.

فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام: أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وفاءت الأفياء، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا لنا، وصلينا نحن: عملنا أمرنا: فصبروا إلى أن زالت الشمس، ثم صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينه، وأن يربط على قلوبهم بالصبر، وأن يوهن عدوهم، وأن يلقي في قلوبهم الرعب، وكان ألب أرسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحدكم أن يفعل كفعلي، ويضرب بسيفه، ويرمي بسهمه، حيث أضرب بسيفي وأرمي بسهمي.

ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، فخلصوا إليه، وقتل من حوله، وأسر ملك الروم، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياما، وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم، واستحضر ملك الروم بين يدي ألب أرسلان بحبل في عنقه»[1].

وإنما أتيناك برواية للمعركة عن زاهد فقيه أندلسي لنبعد احتمال الاتهام بأنها مبالغات المؤرخين الرسميين. فظهر أن حركات الجهاد ترتبط مباشرة بطهارة القلوب ونقاء العقائد، في تبادل وتوال.

ومصداق من الغرب:

وحين تسلط محمد بن تومرت، على المغرب، وأسس دولة الموحدين: نشر البدعة أيضا، وكذب ودلس على الناس.

(١) سراج الملوك، ص٢٣٥.

قال عبد الواحد المراكشي:

«جعل يذكر المهدي ويشوق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته: ادعى ذلك لنفسه، ورفع نسبه إلى النبي ﷺ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك»[1].

ثم زاد فروج لأول مرة في بلاد المغرب مقالة إنكار صفات الرب عز وجل مما أخذه عن المعتزلة والجهمية، وكانت تلك المقالة بدعة شرقية حتى ذلك الوقت، أشاعها المأمون والمعتصم والواثق، وكبتها المتوكل بعدما تفرس في مغزى ثبات الإمام أحمد بن حنبل ضدها، ثم أحياها بنو بويه، واستأصلها السلاجقة أخرى.

ثم زاد بعد، فمهد لعقيدة وحدة الوجود الباطلة.

لكن ما أن انقضى جيله حتى نرى المتوالية الفقهية الجهادية تبدأ انطلاقها من نفس بيت الإمارة الموحدية، تصحح انحراف ابن تومرت، فينبذ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك الموحدين ﷺ البدع التي ورثها، ويصحح اعتقاده، ويتبرأ من دعوى العصمة، ويقول بقول السلف في الصفات.

يقول عبد الواحد المراكشي: «صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين -الشك مني- إما البخاري أو مسلم، وأغلب ظني أنه البخاري، هذا مع ذكر جمل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع حفظ في اللغة، وتبحر في علم النحو»[2].

(١) المعجب في تلخيص أخبار الملة، ص٢٥٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٠.

واستشهد غازيا أثناء حصاره للروم في مدينة شنترين، لخطأ وقع فيه رجل من حاشيته.

«ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم كثرة خصب وانتشار أمن، ودرور أرزاق واتساع معايش، لم ير أهل المغرب أياما قط مثلها[١]. وكان أمر البدعة وباطلها واضحا لديه، حتى أراد محوها بالسيف، وقال: «ليس إلا هذا (وأشار إلى المصحف)، أو هذا (وأشار إلى سنن أبي داود)، وكان عن يمينه، أو السيف»[٢].

كان قادحا، أورى ولم تقر عينه برؤية المغرب الطاهر من البدعة، ولكن المتوالية الفقهية الجهادية كانت قد تحركت، ودفعت بابنه أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف ليأخذ دوره، ولئن مات أبوه على بقية من العيوب فيه، فإنه قد استكمل النجاة والصفات.

«وهو الذي أظهر أبهة ملك الموحدين، ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل، وبسط الأحكام الشرعية وأظهر الدين، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر»[٣].

«وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس»[٤]، وكان يقصد «حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث»[٥].

إلا أنه أفرط في ذلك حتى حرق كتب فقه المالكية في الفروع بعد أن جردها من الحديث، وكان يريد محو المذهب من المغرب، والاقتصار منه على موطأ مالك إلى جانب كتب الحديث.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٥.
(٣) نفح الطيب للمقري (١١٥/ ٦).
(٤) المعجب، ص٣٥٤.
(٥) المرجع السابق، ص٣٥٥

وجاهر بالتبرؤ من بدعة ابن تومرت، فقد روى أحد المقربين إليه وهو أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري، قال: «قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل، أني لا أقول بالعصمة. يعني عصمة ابن تومرت»[1].

وسأل طالبًا من طلبة العلم عما قرأ؟ فقال: «أقرأت تواليف الإمام».

قال الطالب: «أتعني ابن تومرت، فنظر إليَّ نظرة المغضب وقال: ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئًا من السُنَّة ثم بعد هذا قل ما شئت»[2].

وقد منحته هذه السُنَّية منحة عظيمة، فكان: أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثًا، وأكثرهم إصابة بالفن، كان لا يكاد يظن شيئًا إلا وقع كما ظن.

وهذه عدة الفقيه إلى صواب الرأي، وعدة المجاهد إلى الانتصار، ولا يحرم أحد صواب القول إلا حرم صواب العمل، وما اعتقد أحد صواب الظن إلا طال عليه الطريق.

لهذا كان يشعر أنه مكلف بأن يبرهن للأمة صواب نظرية التوالي الفقهي الجهادي، وأن يحدوهم إلى النصر مجددًا.

وفي سنة ٥٨٦هـ بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب، وهي من غرب الأندلس، فتوجه إليها بنفسه، وحاصرها. وأخذها، وأنفذ في الوقت جيشا من الموحدين والعرب، ففتح أربع مدن مما بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة، وخانه صاحب طليطلة، وسأل الهدنة والصلح،

(١) المرجع السابق، ص٣٦٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٣٦.

فهادنه خمس سنين، وعاد إلى مراكش.

وأنشد القائد أبو عبد الله بن وزير الشلبي، وهو من أمراء كتاب إشبيلية، قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج كان الشلبي المذكور مقدما فيها:

ولما تلاقينا جـــرى الطعن بيننا فمنـــا ومنهم طالحـــون عديد

وجال غرار الهنـــد فينا وفيهم فمنـــا ومنهم قائـــم وحميد

فلا صدر إلا فيـــه صدر مثقف وحول الوريد للحســـام ورود

صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حر الـــجلاد جليد

ولكن شـــددنا شـــدة فتبلدوا ومن يتبلـــد لا يـــزال يحيد

فولوا وللســـمر الطوال بهامهم ركوع، وللبيض الرقاق ســـجود

ولما انقضت مدة الهدنة.. خرج طائفة من الإفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثا فظيعا، فانتهى الخبر إليه، متجهز لقصدهم في جيوش موفرة.. وتزاحف الفريقان مكان المصاف شمالي قرطبة.. فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين.. فهزمهم شر هزيمة، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة، وهذه وقعة الأرك الشهيرة[1].

والذي يقوله عبد الواحد المراكشي أن أبا يوسف هزم في هذه المعركة خمسة وعشرين ألف علج فارس من الروم، ومائة ألف راجل.

إن رؤية هذه الظواهر في حركة سير التاريخ الإسلامي، من انتفاضة الفقه

(١) نفح الطيب (٦/ ١١٥).

على باطل البدعة وجعل الانتفاضة طريقا إلى النصر، هي رؤية ضرورية جدًّا لدفع البأس، من نفوس الدعاة، إزاء ما يرون من استفحال أمر التربية الجاهلية وتوطد حكم الجاهلية، ولبعث الثقة في نفوسهم بإمكان عز الإسلام حاكمًا ومربيًا مهما ضعف معناه في نفس الجيل، ولإدراك أننا نعيش أيام كسوف فحسب، شمس الإسلام لا تغرب أبدًا، كما قال عبد الله الكيلاني:

أفلت شموس الأولين وشمسنا

أبدًا على فلك العلى لا تغرب

كما أن هذه الرؤية ضرورية جدًّا من باب آخر للداعية إلى دخول درب الإصلاح من بابه الواسع ذي الأثر السريع، وتناوله من مكانه القريب.. حيث يكون باستطاعته فك الأقياد عن هذا الجيل لتقوده فطرته إلى إسلامه الذي سلبوه إياه بخبث وتدليس.

إن تكسير الأقياد خطوة مرحلية نحو توالي الفقه والجهاد. كذلك الذي عندنا في علم الدعوة.

زمرة القلب الواحد[1]

عهود متكاملة تلك التي يلتزم الدعاة بها، لا ينفك بعضها عن بعض، ولا يتجزأ.

فهم يعلنون ميثاقهم مع أول قدم:

الكفـــوف فـــي الكفـــوف فاشـــهدوا عهودنـــا:

الثبـــات فـــي الصفـــوف والمضـــاء والفنـــا

فكما أنهما المضاء والفناء تسرع إليهما عصبة الدعاة الفقهاء، عبر جهاد مستبصر، فإنها الطاعة الواعية، والثبات في صفوف لا تسمع خلالها لاغية.

وكما أن الإيمان بالجنة يدفع إلى سباق في الجهاد، فإنه أيضا يدفع إلى سباق آخر في الطاعة والحب الأخوي والصفاء القلبي، بين أفراد الجماعة المسلمة، كل يحرص على أن يكون ضمن المقدمة السابقة، والزمرة الأولى التي تدخل الجنة، بما كان لهم من الوحدة، وأنهم كما يقول النبي ﷺ: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد»[2].

فهي طاعة تبغي أن تصيب هذا الصفاء، وتنسب صاحبها إلى هذه الزمرة الفائزة، من الإيمان تنطلق، وبقواعده تسترشد، وإليه تعود، وليست هي استكانة خاضع راهب، ولا تملق طامع مصلحي راغب.

إنها طاعة إسلامية مميزة، ليست ككل طاعة، يعتبرها الدعاة ركنا في إيمانهم، لا

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٦٧)، ١٤ شعبان ١٣٩٣هـ/ ١١ سبتمبر ١٩٧٣م، ص٢٨-٣٠.
(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٤٣).

كمال له بدونها، ويعتوره النقص بفقدانها.

قوم يرون الحـــق نصر أميرهم ويرون طاعـــة أمـــره إيمانا

ولذلك يسوغ من أجلها اتهام العقل عند اختلاف الاجتهاد، والضغط على القلب عند نداء الرغبات، حفظا لهذا الإيمان من أن ينثلم.

فتور ذي أخلاط:

وما دامت هذه الطاعة قد انتسبت إلى الإيمان، فإنها معرضة لما يتعرض له الإيمان من الزيادة والنقص، فإن الإيمان يزيد وينقص كما يقول جمهور المحدثين والفقهاء، وأصبحت ككل عمل إيماني، يعلو فيصل الأوج والذروة أحيانا، اعتقادا وممارسة، وينحدر متضائلا تارة أخرى، والفائز من لا يغالي عند التعالي، ولا يسرف عند الهبوط، بأن يلزم هدي السنة النبوية الشريفة، كما قال النبي ﷺ، في الحديث الصحيح من أنه:

«لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى»[1]، وفي لفظ آخر صحيح أيضا: «فمن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدى»[2].

والشرة: هي بلوغ أقصى الجد والاجتهاد والحرص على الإتقان.

والفترة: هي الفتور، أي التراخي من بعد الجد، والجنوح إلى الكسل، والسكون، وإيثار الدعة، والراحة.

والطاعة من هذا الكل، لها شرة وفترة، وتتضح صورها للمؤمن أو تغبش. وتقييد الطاعة المتصاعدة بالعزة السنية والحيلولة دون تحولها خنوعا وذلا جمال،

(١) مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد محمد شاكر.
(٢) المرجع السابق.

إنما يكمله جمال آخر يمسك بزمام رغبة التفلت الجامحة، ويمنع تأديتها إلى تسيب وتفرد وافتتان يحرم مقترفه أجر العمل الجماعي، ويمنعه ولوج الجنة مع تلك الزمرة، ويظل هذان الجمالان يتألقان حتى يغدو وجه الواحد من المؤمنين الذين مع تلك الزمرة على هيئة القمر البدر ليلة تمامه، كما أخبر الرسول ﷺ، في نفس الحديث الآنف.

من هنا كان فحص القلب واجبا؛ ليعرف المؤمن درجته من الزيادة والنقصان، فيحمد ربه أو يستدرك.

هنا كان نداء الجنيد ﷺ أن: «انظر ماذا خالط قلبك؟»[1].

فسماها أخلاطا، أي أنها شوائب، تعكر الصفاء، وتوهم بالاطمئنان في غير موضع الرجاء.

أخلاط مردية، تغر وتخدع، تعطيك الصورة، وتمنعك الحقيقة، وتطرحك أرضا من بعد شرة، وتسرق منك هوية الانتساب إلى زمرة القلب الواحد.

فتعرف عليها معنا، في جولة فقهية، نكفك بالعلم شر الجهل.

وداد وانتماء:

وإنما يساعدك على التعرف الإنصاف، فإنك مجاهد، والمجاهد حر رفض الذل فتحرك، وللحر سمات وطباع، ذاك السير إلى العز أولها، وليس بكلها، وكما أن الحر به يعرف، فإنه برد الجميل من بعده ينخلع عن نوع من خلق العبودية ويصرف، وذلك الذي أشار إليه الإمام الشافعي حين يقول: «الحر من راعى وداد لحظة، أو انتمى لمن أفاده لفظة»[2].

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٧٩).

(٢) أورده الشيخ أبو غدة خلال تحقيقه لرسالة المسترشدين للمحاسبي، ص١٤٢.

وهذه الدعوة علمتك دهرا معنى الوداد، وأفادتك كل الألفاظ لا مجرد لفظة، فإن كنت حرا راعيت ودادها، وأخلصت لها، وابتعدت عن فتن تتربص بها، وإن سلبك الانتصار للنفس حريتك فشأنك وما اخترت.

ولا ينتصب أحد لفتنة من بعد ستر، ولا يكسل كسلان فينقطع ويترك ويستبدل أصحابا بأصحاب، إلا لنقص معنى الحرية فيه، وإلا لتقمصه بعض أثواب عبودية الدنيا.

وما ثبت داعية على الطريق وازداد بذلا وإيثارا إلا لاكتمال معنى الحرية والوفاء فيه، ومراعاته الوداد وما أرشد إليه الشافعي من الانتماء.

وإنه معدن الأخلاق والعفة تحرص عليه قبل أن يكون شرط علم وكفاية إدارة، وكانت الطاعة من قبل في جمهرة الدعاة تتحرى عفة القائد قبل أن تسأل عن خبرته في السياسة، فقال الشاعر:

سكن الدعاة إلى أمير سلامة عف الضمير مهذب الأخلاق

أعطته صفقتها الضمائر طاعة قبل الأكف بأوكد الميثاق

وكلا نريد، خلق وخبرة، ولكن ميزان الدعاة في أحكام التفاضل يقدم ويؤخر بعيدا عن أعراف السياسة، يعلمون أن الخلق تقوى، وأن التقوى باب الوعي، بوجودها يتعلم الساذج، ويلهم الصواب إلهاما.

ثم إنه تأديب شامل يجبر الحر على دوام الانتماء إلى الدعاة الذين ربوه، وما هي لفظة عابرة.

فإن دعاة غذوك الفكر بهم هُدي الشرق والمغرب

وفي أدب منهمُ قد نشأت ونعم لعمرك ما أدبوا

وقد حفزك القرآن إلى أن تقيس المؤدب المربي على توقير المسلم للرسول ﷺ، لما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور:٦٣]، «فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ، حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه، وهي لفتة ضرورية، فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هيبة.

وفرق بين أن يكون هو متواضعًا هينا لينا، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض، يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير»[1].

ولا تقولن: فلان من أترابي، أو: هو متأخر عني، لم يربني، فربما أسدى لك نصيحة يوما ما عصمتك، ورب ناشئ لم يعرف الدعوة إلا هذا اليوم، ترى من حماسه ما يعديك، ويستفزك للخير، وكل ذلك تربية، يطلب منك لمثلها الوداد.

الإمارة الناصحة سباقة:

ولا شك أنه واجب مزدوج وحرص ينبغي أن يصدر عن كلا الطرفين، قيادة تسبق، وداعية يطيع.

فالقيادة يجب أن تكون سابقة لمجموع الدعاة في طرحها للاجتهاد الذي يقتضيه تطور الأوضاع، وفي تنسيقها لدروس التجربة، فإن من لم تسعفه بفقه واضح سيدور دوما مع الخطأ، ويراوح في مكان محصور، وليس لك من سبيل لوم، وإلا أرهقته من أمره عسرا.

والقيادة من بعد يجب أن تكون سابقة في توفير مناخ العمل للجميع وفقا لتطور كفاياتهم ونمو آمالهم وتوسع آفاقهم، وإلا فإن من لم تصرف طاقته في دروب الخير

(١) الظلال (١٨/ ١٢٧).

المستقيمة سيبددها في متاهات الشر، أو يجمعها، ليعصف بك. وكل ذلك من كمال معاني النصح والجهد الواجبة على كل أمير في قول النبي ﷺ: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجاهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»[1].

إنها طاقة هائلة تتمثل في كل جيل من الدعاة، إما أن يجاد استخدامها وإلا ضغطت وهدمت، بطغيان وفتن وتهورات.

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه وتقتـــــاده من جانبيـــــه فيتبع[2]

فأمر الطاقة المعطلة المحبوسة كالفيضان والسيل تماماً، يكون خيراً لمن عرف شق الجداول للاستفادة منه، وضرراً لمن أهمل، فكل جيل سيل، بيدنا أن نجعله مفيداً أو نتركه يضر.

التحريش الغامض:

وكان هذا هو السر الكامن فيما قرره القرآن الكريم من تفرق المسلمين وجعل بأسهم بينهم إذا تركوا الجهاد، فإن في الجهاد تصريفا للطاقة في دروب الخير، تتحول لتستهلك نفسها إذا حصرت، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التَّوْبَة:٣٩]، إيماء جلي إلى هذا المعنى.

قال ابن تيمية في تفسيرها: «قد يكون العذاب من عنده، وقد يكون بأيدي العباد، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم، وإذا لم ينفروا في سبيل

(١) صحيح مسلم (١/ ٨٨).
(٢) الأغاني (١٦/ ٣٩٣).

الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض»[1].

وقديما قال أهل المثل: «العسكر الذي تسوده البطالة يجيد المشاغبات»

فإنما يكون تحريش الشيطان في مجالات الركود، ولئن أنجى الله المصلين من عبادة الشيطان، فإنه سبحانه قد ترك له مجالا للتحريش، كما قال النبي ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[2].

لا يقول لهم: هذا تحريش، وأنا شيطان، وإنما يلبس لباس الزاهد العابد، ويتكلم بفصاحة الناصح الأمين، حتى إذا خدع وأوهم، وفرق وأبهم: ولَّى مقهقها وهم يبكون.. هكذا دائما أسلوب الشيطان: «يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العباد به يهلكون»[3].

لا خير في طاعة هاوية:

وإنما يعصى الشيطان بمبادرة من الداعية يجدد فيها العزم على الطاعة، فإنه هو المسؤول عن هذه المبادرة، وإليه يتوجه الخطاب، وإن ظن أن في الطاعة تفويتا لصواب يعتقده.

فإنما يبنى كيان الجماعات والجيوش والدول على هذا التنازل من الأكثرية لقلة ترسم الطريق وتقود، كافرها ومسلمها، في القرون الأولى وفي المستقبل.

ومن أحدث ما قرأنا عن شروط انتصار الجيوش كلام القائد الإنجليزي مونتغمري، المنتصر في العلمين على رومل، حيث يقول في مذكراته:

«إنني أدخلت عنصراً مهماً في نظام العمل، وهو أن أوامر القيادة يجب ألا تناقش

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٤٤).
(٢) صحيح مسلم (٨/ ١٣٨).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩).

من قبل الضباط الصغار، كما لاحظت عادة في كثير من الحالات، لأنه متى كثرت الخطط لا بد أن يفشل الجنود، لكونهم غير واثقين من صوابية خطة واحدة»[1].

فكثرة الإدلاء بالآراء تسبب الخلاف، فالجدال، فتضييع الوقت، فاختلاف القلوب، ففقدان الحماس، فالوهن والتراجع.

عندئذ تكون الطاعة محكومة بالهوى، يطيع المطيعون فيما وافق مذاهبهم وكان الأمر عليهم خفيفا، ويعصون إن خولفوا وكان الأمر عليهم ثقيلاً.

«يسارعون إلى الطاعة فيما يحبون، ويبطئون فيما يكرهون، فإن امتحنوا بأمر يكرهونه وفيه صلاح الجماعة عذروا وولوا، أو أطاعوا كارهين، وامتثلوا ساخطين.

وإنما أداء الواجب أن تؤديه في المنشط والمكره، وتصدع به فيما تحب وتبغض، وأن تتلقاه عزيمة لا رخصة فيها، وحزما لا تردد فيه، وجدا لا هوادة لديه، حتى لا يكون للرأي فيه تردد، ولا للهوى فيه خيار، وهو الواجب تلقاه راضيا، وتمضي به مقدما، وتحتمله صابرا، وهو حلو عندك، وإن أمر، ونافع، وإن بك أضر.. هكذا تمضي الجماعات والآحاد بواجباتها، غير معذرة فيها، حتى يكون أداء الواجب ديدنا لا مفر منه، وعزما لا محيص عنه.

ذلكم قياس الصدق في الآحاد، وميزان الإخلاص في الجماعات»[2].

وإنما تلك الطاعة الهاوية بقية من خلق بني إسرائيل يربأ المؤمن بنفسه عنها، فإنهم طلبوا القتال في سبيل الله ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البَقَرَة:٢٤٦].

«سمة خاصة من سمات بني إسرائيل في نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلت

(١) مجلة «الحوادث» اللبنانية، عدد (٨٦٥) الصادر في ٨/ ٦/ ١٩٧٣م.
(٢) الشوارد لعبدالوهاب عزام، ص ١١٦ مع حذف.

من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرق الكلمة، والتولي عن الحق البين، ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية، فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد، المعيقة التأثير، وهي -من ثم- سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تفاجأ بها، فيتعاظمها الأمر، فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل»[1].

من أجل ذلك كانت التربية على الطاعة من أساس دعوتنا، فأوضح الإمام المرشد أن طريقنا يعتمد على: «التكوين: باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض» «والدعوة فيه خاصة» لا يتصل بها إلا من استعد استعدادا حقيقيا لتحمل أعباء جهاد طويل المدى، كثير التبعات، وأول بوادر هذا الاستعداد: «كمال الطاعة» والشعار في هذه المرحلة: دائما «أمر وطاعة»، من غير تردد، ولا مراجعة، ولا شك، ولا حرج»[2].

(١) الظلال (٢/ ٢٢٦).

(٢) المجموعة، رسالة التعليم.

نحو تربية تستدرك[1]

ما تأمل متأمل من دعاة الإسلام ذاك الحوار الصريح بين موسى عليه السلام والعبد الرحيم، إلا وفرح بكل كلمة تقال له تبين له أدب الطاعة.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾ [الكَهْف:٦٦-٦٩].

إنها ليست بالكلمات العابرة يقولها موسى يراعي بها أدب المجاملة، ولكنه عهد سن خلاله سنة طاعة التابع لمن اختار اتباعه برضاه، واصطلاحات شرعية يَعرف مدلولَها رسم بها قانون تفويض القادة حق الأمر.

وإنما قالها توكيدًا من بعد أن خاف عليه العبد الرحيم إبهامًا يخرجه إلى حيرة ففترة، وأن يكون مكانًا تلجأ إليه الدهشة.

وبهذا التخوف من العبد الرحيم، وإيراده احتمال ذهول التابع، حازت بحوث فقه الدعوة مبررًا وسببًا مقبولًا لأن تخاطب الحين بعد الحين كل داعية، تحذره الغفلة وبطء الوفاء، فإن من هو خير منه قد خوطب بمثل ذلك وجرى معه الحوار، ولم يك عاصياً إذ ذاك، ولا أظهر استغرابا ولا كان قد حار.

إن الطاعة ليست بدعة نتنادى لها اليوم، ولكنها المذهب القديم الذي أعلنه موسى عليه السلام، فأداه فنه في الطاعة إلى فن في القيادة سديد. ألا وإن أزمة الإسلام ومشكلته

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٦٨)، ٢١ شعبان ١٣٩٣هـ/ ١٨ سبتمبر ١٩٧٣م، ص٢٨-٢٩.

الحاضرة تكمن في حاجته إلى القادة، ولن يصل مخلص إلى وعي فن القيادة حتى تتعود قدمه المشي في درب الطاعة اللاحب السليك.

لذة تغري القلب فيتورط:

ويتساءل البعض عن شباب ناشئة، امتلأت قلوبهم أول مقدمهم الدعوة إيمانا ومحبة وأخوة وحماسة، فلما لبثوا سنوات، بردت حماستهم واختلفت آراؤهم وخرجوا إلى تعصب فرَّق بينهم.

إنه وصف يترجم ظاهرة تتكرر في بلاد شتى، في أوقات متعاقبة.

وسبب ذلك، والله أعلم، أن القلب الإنساني يشعر بلذة عارمة إذا تمكن صاحبه من تنفيذ ما يعتقده صوابا، لكنه لا يقنع، بل يتسع ممتدا إلى آفاق مترامية، فيتطلع إلى إشباعٍ كامل يستغرق هذا الامتداد الواسع، ويريد تصاعد اللذة سريعًا، فلا يصبر بما أودع الله فيه من سر العجلة، فيخرج مدفوعا بطمعه وعجلته إلى إفراط في تشغيل الجوارح بما يعود باللذة على القلب، فتتعب وينعكس تعبها على القلب في صورة ملل، فتختلط اللذة بالمغارم وتعود ثقلًا محمولًا من بعد ما كانت مركبًا حاملًا، وتظل المغارم تضغط عليه حتى ينكمش ويضيق من بعد الاتساع الذي جبل عليه وشب في كنفه، فلا يعود فيه محل لحلم، ولا لاحتمال يتركه لغيره في أن يصيب ولا لمصلحة غيره في أن تأخذ حقها.

إن هذه الظاهرة في عمل القلوب وطبائعها تفسر لنا بعض جوانب ما نرى في عمل الدعوات الإسلامية من جناية الأخطاء التخطيطية والتربوية على أمثال هؤلاء الشباب الدعاة، ولعل البعض يظن أن أمر تصويبها يحتاج إلى معادلات وإحصاءات وخطوط بيان، بينما هو أقرب من ذلك لمن جرب عن كثب، إذ يمكنه أن يتناوش التصويب من خلال معرفة بسيطة بسياسة القلوب، ليست بنائية عنه، ولا هي في مكان بعيد.

اقتحام قبل أوانه:

فمن أظهرِ ما تبديه الحقبة الأخيرة من تاريخ الدعوة من هذا الصواب اللذيذ الذي أغرى بالتوغل واستدرج الدعاة فأتعب وأرهق: هو ذلك التدخل المستعجل في الميدان السياسي من قبل بعض أجزاء الحركة قبل استكمال مجموع الدعاة للتربية الإيمانية العقائدية العبادية الأخلاقية.

فمما لاشك فيه أن شمول الإسلام وتردي أحوال الأمة واستعلاء الطغاة كل ذلك يمنح الصواب لمبادرات الدعاة السياسية وللغيرة التي يبدونها على مصالح الأمة الاقتصادية وقضاياها المصيرية، ولكن قصور الطاقة الحركية، وقصور المدى الذي وصل إليه ذلك الجزء في السيطرة على طبائع القلوب التي يحملها دعاته والتي من شأنها الفطري أن تكون متقلبة، يضمران ذلك الصواب، حتى يغدو هزيلًا، ويجردانه من واقعية هو بحاجة إلى تزكيتها له، ومن استدامة هي شرط في حصول تأثيره وارتفاعه عن مجرد الفورة، ومن إمكانية في التصعيد الذي يكفل غلبته على ما سيستجد من مقاومة الخصم ودفاعه عن مصالحه.

ولئن كان الحديث عن هذه الجوانب متشعبًا واسعًا، فإن قرة عين الدعاة برؤية زمرة القلب الواحد، والانغماس فيها، تجر جرًا إلى تلمس ما فعله ضعف تربية القلوب في أجزاء الحركة المستعجلة من اختلافات وفتن في صفوف دعاتها، تماهل معها السير، وذهلوا خلالها عن قواعد التعامل الإيماني، وجفل بسببها الأنصار، حتى غدت دروسًا بليغات تلح علينا إلحاحًا لأن نراجع أنفسنا ونستدرك نقصنا، بجولة إيمانية طويلة نُصفِّي فيها عقائدنا ونزيد عبادتنا، ونسمو بأخلاقنا وأذواقنا ونثبت قلوبنا، ونجرد دعوتنا للآخرين على أساس عقائدي إيماني خال من أي وعد سياسي يزهد بنا معها الطامع، والمستعجل ومتقلب القلب.

إن الممارسة السياسية يجب أن ننزلها في منزلة قريبة من الحرام، ما لم تكمل طاقتنا على التصعيد، وتحكم تربيتنا للقلوب، وإلا وجدت الفتن لها مجالًا.

ريث يوحي:

إنها ليست بدائية الأسلوب، ولا بداوة المحيط، جعلتا دعوة كل الأنبياء عليهم السلام تركز على معنى التوحيد، وتدندن حوله وتتممه بمكارم الأخلاق.

كلا إنهم ليسوا كما يظن المستعجلون.. إنها حكمة الله جعلتهم يعلمون أتباعهم الريث والاحتجاب التربوي، وفصاحة اللغة القلبية.

وهو حب الله، يروونه ويبشرون به من يكون حليمًا متأنيًا، كما قال النبي ﷺ، للأشج رضي الله عنه رئيس قبيلة عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1].

فحلم الحليم حصانة له ضد الافتتان يعصمه عن الغضب والانتصار للنفس فيلزم العدل في أحكامه، وأما تأني المتأني فأظهر في تأديته إلى العصمة، يمنح فرصة للتأمل والقياس فيزول الالتباس.

وإنها فطنة الرسول ﷺ حين رأى تكرر الآيات التي تذم المتكبرين، فراح يعلم الأجيال مقاصد القرآن، فقال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[2].

أي جحد الاحتكام إلى قواعد الشرع، وغمط الناس حقوقهم بعدم تنزيلهم منازلهم وبتجاهل حسنات المخالفين.

ورثة الأنبياء على درب الأناة:

ثم هي كذلك الحكمة كانت تحوط ورثة الأنبياء حين كان إغراء المال يقوى، أو

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧).
(٢) المرجع السابق (١/ ٦٥).

حين كانت الفتن تسود، ويكثر قيل وقال، فما هو بأول طَرْق لأبواب الوعاة حين طرق أولئك باب الفضيل بن عياض رحمه الله.

«فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي، والدموع تتقاطر من وجهه ولحيته، وهو يضطرب.

فقال لهم: ما بالكم؟

فقالوا له: عظنا يا أبا علي».

ولا هو بأول جواب من مثله حين وعظهم فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالسُنَّة، عليكم بالصلاة.

ويحكم!

هذا الزمان ليس بزمان حديث، وإنما هو زمان: احفظ لسانك، وأخف مكانك وعالج بالليل، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر[1].

إنها السياسة التربوية الدائمة لكل جماعة إسلامية عاملة.

يريد الإسلام أن نصفيها قلوبًا.

تربية طويلة، لأطول مما منحناها من الوقت آنفًا.. مادتها القرآن والسُنَّة وخلوات الثلث الآخر، تعلمنا صواب القول والعمل وإنكار الذات، وتقذف في القلب ميزانًا فرقانًا بين معروف ومنكر.

يجب أن تتعود قلوب الدعاة على أن تأخذ ما تعرف أخذ عبادة وسرور ورجاء ثواب، وأن تدع ما تنكر، ترك عبادة ونفور وخوف عقاب.

(١) تنبيه المغترين للشعراني، ١٢٢.

طريقة سلفية في تعليم الوفاء:

وبهذه السجية أشرق جمال وفاء من وفى ممن سلف وظل ينير مجالس أجيال الذاكرين حتى وصل إلى دعاة اليوم يحثهم إلى اتساء واقتداء، ويلوم من تخلف ويوسعه تقريعًا.

إنها ومضات إشراق الوفاء تدفع عمر بن الخطاب ﷺ، إلى التغني بها وإلى جعلها عنوان المسلم، فسيرها كلمات هاديات لمَّا جاءه عدي بن حاتم الطائي ﷺ في وفد.

يقول عدي: فجعل يدعو رجالًا، ويسميهم.

فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟

قال: بلى.

أسلمت إذ كفروا.

وأقبلت إذ أدبروا.

ووفيت إذ غدروا.

وعرفت إذ أنكروا.

فقال عدي: فلا أبالي إذن»[1].

تلك جوانب شخصية المسلم الحق وهويته:

إقبال حين الإدبار.

ووفاء حين الغدر.

ومعرفة حين الإنكار.

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٢١).

لا يبالي بعدها إن جهل اسمه الجاهلون أو ذهل عن نسبه الناظرون، طالما أنه شمخ بمنقباته على حضيض من حام حول دنيا وحظوظ، وتسامى بهن محلقًا إلى الأفق الأعلى.

ثم يظل خير طالب السلامة يزداد.

ويعظم حتى يكون مربيًا لغيره، معلمًا، يعلمهم سبيل الستر والبراءة، كما كان التابعي الجليل كعب بن سور ﷺ، فإنه لما حدث الخلاف بين الصحابة، وجر إلى القتال:

«دخل في بيت، وطيَّن عليه، وجعل فيه كوة يناول منها طعامه وشرابه، اعتزالًا للفتنة»[1].

ومن لم يخبر التربية يظن ذلك تكلفًا يهيجه الرياء، وربما سارع إلى رمي كعب بقلة العقل، ولكنها التربية بالمنظر العملي يفعل ذلك ليراه المتورط المستدرج والمدعو المغري، فيكون ثم سؤال من أنفسهما لأنفسهما ومراجعة وتحقيق وتدقيق لعل القلوب تسكن وتهدأ، فترجع إلى العقول فكرتها وتنظر الأمور مع عاقبتها، وتتجاوز رؤية يومها إلى مصيرها في غدها.

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٢).

شهيد فلسطين الأول (الحلقة الأولى)[1]

كان العلامة الدمشقي، عميد كلية الآداب بجامعة دمشق سابقًا الأستاذ «سعيد الأفغاني» قد نشر في العدد (١٦٩) من مجلة العربي الكويتية، مقالا بعنوان «سبب خلع السلطان عبدالحميد»، أورد خلاله وثيقة معزوة إلى السلطان نفسه ينسب فيها إلى رجال حزب الاتحاد والترقي سعيهم لديه للاعتراف بوطن قومي لليهود في فلسطين وأنهم قرروا خلعه لما رفض ذلك، ومع صراحة الوثيقة، وكثرة القرائن التي أوردها الأستاذ «الأفغاني» للتدليل على صحتها، فإن الدبلوماسي الكويتي الأستاذ «عبد الله أحمد حسين» قد رد عليه في العدد (١٧٨) من مجلة العربي نفسها، وأتى بمقال عنوانه «السلطان «عبد الحميد» طاغية وليس خليفة» رجَّح فيه أن الوثيقة موضوعة، ونفى منقبة «عبد الحميد» هذه، وانتقد عموم سياسته، ووصفه بالاستبداد، ورماه بكل نقيصة.

وقد حدد الأستاذ عبدالله حسين منطلقه في تبرير ردِّه فقال: «إن المقال هذا -يعني مقال الأفغاني- والأمة العربية تخوض معركة التشكيك والحرب المعلنة عليها فكرياً وعقائدياً لا يجوز أن يمر دون أن يحاول أي مفكر عربي حر أن يناقشه مع الأستاذ أملاً في الحصول على الحقيقة..».

ولا شك أنه منطلق جميل يسنده الواقع، ونحب نحن أيضًا -مع ما لنا من ملاحظة على اصطلاح الأمة العربية- أن ننطلق منه في محاولة للوصول إلى حقيقة «عبد الحميد»، لا نرتاب في أن الأستاذ «عبد الله» أراد مثلنا الوصول إليها، ولكنه أخفق وخانه منهج

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٦٩)، ٢٨ شعبان ١٣٩٣هـ/ ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣م، ص٢٤-٢٦.

البحث الذي ارتضاه لنفسه، فراح ضحية للإشاعات وذهل عن أقوال الثقات.

فالكاتب يعتمد على مصدر سماه: عصر السلطان «عبد الحميد» دائرة في الأقطار العربية، ولم يسم مؤلفه ولا أعرف هذا الكتاب ولا أحب معرفته، بما أغناني الثقات المشاهير من أوصاف لعصر «عبد الحميد» وما إخال الكاتب يصدر عن نسيان في إغفاله ذكر المؤلف وإنما يرجح عندي أن المؤلف ليس بمسلم فتعمد إهمال ذكره.

وأما الكتاب الآخر الذي اعتمده الأستاذ فهو لمؤلف سوري اسمه «يوسف الحكيم» لم يذكره «الزركلي» في «الأعلام» ولا أعرفه، وليس هو بالمشهور، وكأني بهذا الاسم يحمل نغمة مسيحية.

فمن هذين الكتابين استمد كاتب العربي منهج بحثه، وهو منهج قاصر يرى كل منصف قصوره ثم قرنه بمنهج في التحليل مستمد من خلفية قومية عربية عارمة يكاد الجيل المحدث من القوميين العرب يتنكر لضيق أفقها، فضاق مجال رؤية الحق عنده بسبب هذين المنهجين في البحث والتحليل، وفاته ما قصد..

منهجنا في البحث:

وأما نحن فقد اتخذنا هنا منهجاً في البحث أدق وأسلم فلجأنا إلى «شكيب أرسلان ومحمد جميل بيهم، وعبد الرزاق البيطار، ونعمان خير الدين الألوسي، ومصطفى كامل»

– فأما «شكيب» فمن أشراف الناس، عربي قح، ثابت النسب إلى ملك العرب «النعمان بن المنذر»، وقد عاصر «عبد الحميد» وعاش دهرًا في الآستانة يخالط الساسة، ولا نعرف أحدا يشك في سعة علم «شكيب» وصدقه وإخلاصه وحيازته الزعامة السياسية عن جدارة، وإن كنا نحن دعاة الإسلام لنبلو عليه بعض الفلتات، مثل حسن ظنه ببعض قادة الاتحاد والترقي وببعض زعماء البهائية.

ومن دلائل الأمانة التي يحملها «شكيب» أنه بيروتي وكان بعض صحبه فيمن أعدمهم «جمال باشا» في بيروت، ومع ذلك ظل يؤرخ للعهد العثماني بروح منفتحة، ولم يستفزه ما حدث، وقصر انتقاده فوجهه إلى جمال فحسب.

وأما الأستاذ «بيهم» فمؤرخ اختص بدراسة التاريخ العثماني وله فيه أربعة كتب جعلته مقدمًا على غيره في الجامعات والمجامع العلمية بعيدًا عن التهم، وقد تورط فيما تورط فيه غيره من الاستعجال في وصف «عبد الحميد» بالاستبداد واتباع السياسة الخاسرة، ثم تبين له الصواب بعد معاناة نفسية طويلة، وتأمل وازن، ونظر متأن، فنشر مقالاً استدراكيًا في العدد ٥٥٦ من مجلة «الأسبوع العربي» اللبنانية الصادر في ٢ شباط ١٩٧٠ بعنوان «السلطان الأحمر لم يكن طاغية» واصطلاح الأحمر يورده رواية عن الغير، أي أن من يقولون عنه أنه الأحمر ليس طاغية، وقد رجع في هذا المقال رجوعاً شجاعاً عما ذكره في كتبه، ومدح «عبدالحميد»، وأعلن براءته، وكل الذي نورده هنا من الأستاذ «بيهم» فمن مقاله هذا فقط وفي كتبه فوائد أخرى ولا شك، ولكن حال ضيق وقتنا عن النقل منها.

وأظن أن الأستاذ «بيهم» في غنى عن التعريف بشرف مكانته، فهو ينتسب إلى أسرة بيروتية عريقة في الفضل.

وأما «البيطار» فعالم دمشقي فاضل، عرف بالورع ومكارم الأخلاق، وله شعر ومشاركات أدبية، وكان معاصراً لـ«عبد الحميد»، ومن حاشية الأمير «عبد القادر الجزائري»، وهو جد الأستاذ «محمد بهجة البيطار».

وأما «نعمان الألوسي» فعلامة بغداد المقدم زمن «عبد الحميد»، وهو ابن علامة العراق الجهبذ «أبي الثناء الألوسي» صاحب تفسير روح المعاني، وناهيك به فضلاً وشرف نسبة.

وأما «مصطفى كامل» فهو زعيم ساسة مصر وقائد جيل النهضة، كان فائر الحماسة عظيم الإخلاص، وقد اشتهر بتأييده لـ«عبد الحميد» وفكرة الجامعة الإسلامية، وقرأت بعض كتابه عن «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، حيث أخلص خلاله الدفاع عنها، ولكنى لم أستشهد بشيء منه هنا لعدم وجود الكتاب بين يدي.

وأما أنا فعربي عبَّادي، عامري مضري، عدناني، فرح بنسبي هذا، ولكن عربيتي لم تمنعني من العمل لاستئناف الحكم الإسلامي، ولا من الشعور بروابط الأخوة الإيمانية التي تربطني بكل مسلم غير عربي.

أقول هذا دفعًا لما يتوهمه البعض حين عبت على كاتب مجلة العربي منهجه القومي العربي العارم، فأنا لا أعرف نفسي إلا عدوا للشعوبية، ولا أعرف أجيال فقهاء الإسلام على مر العصور إلا أعداء لها.

منهجنا في التحليل والحكم:

وإسلامية المنهج والمصادر لا بد أن تدفع إلى نظرات إسلامية في تحليل الأحداث والنصوص، وفي تحليل أهمية مكانة التوصل إلى حكم صائب حول «عبد الحميد» في هذه «الحرب المعلنة علينا فكريًا وسياسيًا» كما يقول كاتب العربي.

فهناك جملة موازين إسلامية وتقديرات واقعية يغفل عنها كل من ينطلق من خلفية قومية.

نزن المسلم بحسناته وأخطائه معًا:

فالميزان الأول يدعونا إلى أن نزن كل مسلم بحسناته وأخطائه، وإيجابيات أعماله وسلبياته معًا، فقد حفزتنا عقيدتنا إلى أن نزن الناس في الدنيا كما يزنهم ربهم تعالى في الآخرة، وليس هناك من كامل أو معصوم غير الأنبياء، وإنما نعرف أن فلانًا

له حسنات ترجح على زلاته، أو العكس، فيكون ممدوحًا أو مذمومًا بحسب ذاك، وهذا الميزان يوجبه العقل والذوق السليم قبل الشرع.

إننا حين نمدح «عبد الحميد» لا ندعي أنه سادس الخلفاء الراشدين بعد الأربعة وعمر بن عبد العزيز، ولا نجرده من الأخطاء، ولكنا جمعنا أخباره واستقصينا، فرأينا صوابه أكثر من الخطأ، وحميته الإيمانية أعظم مما جاء به من التقصير.

الأعمال فاضلة ومفضوله وثم كبائر ولمم:

والميزان الثاني يتمم الأول، بـه تكون الحسنات درجات متعددة في الفضل، والآثام درجات في السوء، تتصاعد وتتنازل، فثم أعمال فاضلة ومفضولة، وكبائر ولمم، ورب عمل فاضل واحد يمحو مئات صغائر الإثم.

ومنقبة «عبد الحميد» الكبرى تكمن في وفائه لفلسطين ورفضه إغراء اليهود ولم يستطع أحد بعده من حكام العرب والترك أن يأتي بما يفوق مأثرته هذه التي تكفي لإهدار كل ما ينسب له مـــن أخطاء على فرض ثبوتها، بل لم يجد أخلافه إلا التراجع والهزائم وطلب الحلول السلمية التي تعترف بإسرائيل.

وأما فكرة الجامعة الإسلامية، وما كان لها من الأهمية في محاربة الاستعمار وإنهاض مسلمي الهند وغيرها فمأثرة أخرى قد لا تقل عن الأولى.

كل حاكم بما كسب رهين:

والميزان الثالث يقضي بفصل عمل كل عهد من عهود العثمانيين وتحديد مسؤوليته، فغالبًا ما يجابهنا القوميون بهجوم على الاتحاد والترقي، وسياسة التتريك، وإعدامات جمال باشا حين نتحدث دفاعًا عن «عبد الحميد»، إنما كلامنا عن «عبد الحميد»، وأما عهد الاتحاد فقد حمل الأتراك فيه مسؤولية ما حدث بالدرجة الأولى،

وحملها العرب بدرجة ثانية، وكلاهما أخطأ، وربما يكون أنور باشا هو الوحيد الذي حاول تكفير أخطائه، فقاد مقاومة إسلامية في أنحاء بخارى للاستعمـــــار البلشفي الأحمر، وخر قتيلاً في ساحة المعركة فيما نحسبه شهادة والله أعلم سنة ١٩٢٢، ووجد المصحف مربوطًا على يده.

احتمال صواب كل مجتهد:

وثمة ميزان رابع يجيز اختلاف الحكم على الحوادث تبعا لوجهة نظر المحلل، وكم في سياسة «عبد الحميد» من صواب يراه البعض جريمة، وأخطاء يرونها صواباً اضطر إليه.

فمساعدته المعنوية لعرابي باشا مثلاً ضد الخديوي المصري يراها شكيب من جملة أخطائه، وأنه كان يجب على «عبد الحميد» أن يفرط بعرابي لكي يستميل الخديوي فتتقوى الجبهة المناوئة للغرب بدل إعطائه مبرراً للارتماء في أحضان الإنجليز[1].

بينما يرى المحلل القومي وجوب مساعدة عرابي، لعواطفه العربية الأصيلة ضد نفوذ الجنود المنحدرين من أصل شركسي وتركي في جيش الخديوي، ممن لا يخلون من منازع شعوبية أو مصلحية.

إن «شكيب أرسلان» لم يكن خائناً للعرب لما جهر برأيه هذا، ولكن اختلاف التقدير السياسي، ورؤية الحوادث عن قرب ومعاصرتها أقنعته بذلك.

تماثل الأحداث يقتضي تماثل الأحكام:

وهو ميزان خامس سيق إليه كاتب العربي سوقاً، فمن غريب الأقدار أن أكثر ما

(١) تعليقات شكيب أرسلان على تاريخ ابن خلدون، ص٣١٧ المطبوع بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٣٦.

أورده من تهم لـ«عبد الحميد» استند فيها على ظواهر في حكمه، أو نسبها له، تكررت بحذافيرها في عهد السياسة القومية التركية التي أعقبت «عبد الحميد»، أو في عهد السياسة الحاضرة للقومية العربية، مع أن التهم التي نسبها إلى «عبد الحميد» تحتاج إلى دليل لثبوتها، وبعضها سنورد أدلة على خلافها، بينما سياسة القوميتين هي مسرح شاهدناه ولا زلنا نعيش مآسيها.

فمثلا يقول الكاتب: «قد سار السلطان على أسلوب استبدادي، ولم يلغ الدستور لأنه يريد أن يسلك طريق الشريعة الإسلامية، وإنما لأنه ضاق صدرًا بوقوف النواب في المجلس يهاجمون قواد جيشه ورجال حكومته، لأنهم جميعًا أثبتوا بشهادة الأتراك أنفسهم الإهمال الذي وصل إلى حد الخيانة، حتى لقد كان بعضهم يدس على بعض خلال معاركهم مع الروس، وكانت فضائحهم تزكم الأنوف، حتى أهدوا الروس نصرًا رخيصًا ضد إمبراطورية آل عثمان».

وكأنه يتحدث هنا عن الهزائم الشنيعة التي مني بها الجيش الذي خلع «عبد الحميد» في الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ أمام من هم أقل شأناً من الروس، من البلغار والصرب واليونان، فقد وصفها شكيب وصفاً مطولاً، ولنقف عند وصفه لجبهة الحرب الرئيسة مع البلغار، حيث يقول: «صارت المعارك هناك عبارة عن سلسلة هزائم، تتلو إحداها الأخرى بدون أن يوفق الترك في معركة واحدة إلا ما ندر، فسقطت المراكز التركية المهمة، مثل قوصوه، ومناستر، واسكوب، وجميع البلاد التي تتبعها، وكل هذا بين ٢٣ أكتوبر و ١٨ نوفمبر، ولو قيل إنه لم تقع مع تركيا حرب أشأم من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم تكن في هذا القول مبالغة»

«واستولى الذعر على الدولة نفسها في الآستانة، فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يعملون، وكان عندهم جيوش كثيرة في المملكة لا تزال في أراضيها، وإنما كانوا في

جمود تام بسبب الفشل غير المنتظر، فلم يفكروا في استجماع قواهم، وكانت الإدارة أشبه بالفوضى، وقد رأينا ذلك بأعيننا».

ثم تحدث عن القائد البارع أحمد عزت باشا الأرناؤوط الذي لم يكن حاضرًا تلك الحرب، فقال: «كان لا يصدق بانكسار الجيش العثماني في ظروف الأحوال التي انكسر بها، لكثرة ما رأى من أغلاط القيادة»[1].

فهذا مبلغ من القادة الذين خلعوه، والذين خاب نقدهم للقادة الذين استعملهم فألغى الدستور كما يقول الكاتب.

وأما فضيحة القادة الذين استعملتهم القومية العربية سنة ١٩٦٧ فسببوا لها هزيمة سيناء، وفضائح الظافر والقاهر، وفضيحة سهرة الخمور ليلة العدوان لضباط القوات الجوية، كما ورد خبرها خلال محاكمات زمرة المشير عبد الحكيم عامر، مما نشر في جريدة الأهرام، والنصر الرخيص الذي حازه اليهود، فنترك تقدير كل ذلك لإنصاف الكاتب.

إن الاعتذار لقادة القومية العربية أو الاعتذار لرجال الاتحاد، يوجب اعتذارًا مثله لـ«عبد الحميد».

وكذلك ما ينسب لـ«عبد الحميد» من البطش بخصومه، فعلت أضعافه حكومة الاتحاد وحكومة أتاتورك، ولم تتخلف حكومات القومية العربية من السياق، فاعتلى عبد القادر عودة ومحمد فرغلي وسيد قطب وزمرة من الأبرار في مصر المشانق بأمر القومية العربية، واندقت أعناق المئات في العراق بأمر القومية العربية، ويوم صدور عدد مجلة العربي الذي ننقده كانت الأخبار تحمل أنباء إعدام أكثر من ثلاثين ضابطاً في سورية بأمر القومية العربية، ولا تجد فيمن أعلم في هذه البلاد الثلاث إلا عربياً

(١) التعليقات.

مناهضًا للشعوبية، أو لعله كان يحكم باسم القومية العربية قبل يوم.

إن تماثل الأحداث يقتضي تماثل الأحكام، ولا يجوز للكاتب أن ينزه القومية عن الخضوع للمقاييس التي انتقد «عبد الحميد» وفقها، فإن كان يرى الاعتذار لها، فليعتذر له، وليس له أن يرد هذا بأن الذين قتلتهم القومية العربية خونة من الرجعيين، فإنه يتفق وإيانا مثلاً على أن المشير عامر كان اليد اليمنى للقومية العربية قبل قتله.

الأتراك المسلمون قبل اليسار العالمي:

وهذا ميزان سادس يفرضه واقع المعركة التي نخوضها كما يقول الكاتب، فقد تنادت القومية العربية في مرحلتها الحاضرة لاستغلال اليسار العالمي وتجنيده إعلامياً للضغط على إسرائيل، وصرنا نقرأ أخبار فتوح دعاة القومية ونجاحهم في استمالة أنفار من الهيبين اليساريين ذوي الشعور الطويلة والروائح الكريهة وجعل مجالسهم التي تئن منها كراسي مقاهي أرصفة شارع الشانزيليزيه بباريس تنتصر للقضية الفلسطينية، وتؤيد الحل السلمي، وتطالب بتطبيق قرار مجلس الأمن.

إن التخطيط القومي يريد للعرب بهذا أن يغفلوا عن أسود إسلامية تربض حول بلادهم مستعدة لأن تفدي دماءها لفلسطين.

ومن هذا فإن الدفاع عن «عبد الحميد» يتجاوز في أهميته مجرد الأمانة التاريخية وإنزال الناس منازلهم ويقوم بدور الانفتاح العربي، يتجاوز القوميات، ليجند المد الإسلامي الجديد في تركيا، الذي يحزنه الطعن في «عبد الحميد» والتاريخ العثماني ليضعه في خدمة القضية الفلسطينية.

إن الحكومة التركية الحاضرة شأنها ليس أسوأ من بعض الحكومات العربية التي أسرفت تجاه فلسطين وقصرت، وهي إلى زوال، ولا يزال الشعب مسلمًا،

ويجب أن نتعامل مع التيار الإسلامي الجديد الجارف في تركيا تعاملاً مباشراً، وأن نقدمه على اليسـار العالمي التافه المخادع، ولن نتمكن من التعامل معه حتى نطرح تأثير الدعايات اليهودية القديمة والماسونية عنا، ونعي منقبة «عبد الحميد» كما وعاها الجيل الجديد الحاضر من الأتراك.

إن الطعن بـ«عبد الحميد» ليس إلا استمرارية لتخبط السياسة القومية العربية في تأييدها اليونان في قبرص ضد الأتراك، وللهند ضد باكستان، وللحبشة دون مراعاة أوضاع ثورة إرتيريا، ولن نستقطب أبطال المستقبل في تركيا حتى نعي حقائق تاريخ أبطال الماضي من أسلافهم.

الثقات يوثقون عبد الحميد:

بمثل هذه الموازين كان الثقات من معاصري «عبد الحميد» يزنون، فلم يبد لهم «عبد الحميد» في غير صورة التوثيق.

فللشيخ «عبد الرزاق البيطار» شبه فتوى في توثيقه وتصحيح بيعته أوردها خلال ترجمته لـ«عبد الحميد» ضمن كتابه القيم «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»، فقال: «أما الآن، فالناس لله الحمد لهم خليفة، وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان «عبد الحميد» بن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد، وبيعته في أعناق المسلمين، وسلسلة سلطنته من أحسن الدول الإسلامية، مقيمين للشريعة السنية، محبين للصحابة وآل البيت ناصرين أهل السنة المحمدية، قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز خلع بيعته، ولا الخروج عن طاعته، ثبت الله دولته، وأيد سلطنته، فمن خلع بيعته أو ترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد»[1].

(١) حلية البشر (٨٠٦/ ٢).

ومثله نعمان خير الدين الألوسي، له شعر قدَّم به كتابه «غالية المواعظ» واقتبسه البيطار يقول:

بمولانـــا أميـــر المؤمنينـــا لقد ســـرت قلـــوب العالمينا

وفي ظـــل الإله هـــمُ أقاموا وظل اللـــه يـــأوي القائلينا

أنام الـــكل في ظـــل ظليل فـــكان لجمعهم كهفـــاً أمينا

وأصنـــاف الرعية قـــد تراءت بأنـــواع المعـــارف عارفينا

مليك ليـــس يشـــبهه مليك فلا تطلب لـــه ملـــكًا قريناً

أدام اللـــه دولتـــه علينـــا وأيدنـــا بـــه دنيـــا ودينا

وأبقـــى ذاتـــه العليـــاء فينا وأعطانـــا بـــه فتحًـــا مبينًا

وأبقى عبده المولـــى «حميدًا» حميد العيش دهـــر الداهرينا[1]

ومن عادة كاتب مقال مجلة العربي أن يتململ في مثل هذه المواضع، فهو يسارع خلال مقاله إلى رمي كل عالم من علماء الإسلام عاون «عبد الحميد» بأنه مصلي متستر بالدين، إلى آخِر الدعاوى الفارغة التي لا برهان لها، ومن الأحوط له هنا، قبل أن يتورط بمهاجمة هذين الرجلين، أن نذكره بأنهما من أعيان الناس ووعاتهم وفضلائهم، ولا يأتيان بمثل هذا الكلام مجازفة، ويعلمان ما في نطقهم من إثم لو خالف الحقيقة.

وأما شهادة «شكيب» فأوضح، ونقل شهادة جمهور الناس له يوم موته فقال بعد أن شرح نفي «عبد الحميد» إلى سلانيك: «ولا شك في أنه كان قد بقي أُناس كثيرون متحفزون لإعادة السلطان «عبد الحميد» إلى العرش في أول فرصة، ولكن هذا الحزب كان يرى لزوم السكينة إشفاقاً على الدولة.

(١) حلية البشر، ترجمة نعمان الألوسي.

ولما اشتعلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان «عبد الحميد» إلى الآستانة، وأنزلته في قصر «بكلربكي»، حيث بقي إلى أن مات سنة ١٩١٧، وحضرت مأتمه، وشهد الجمهور شهادة حسنة، لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه وإيمانه»[١].

وهذه شهادة قيمة جدا تنهض للرد وحدها على كل افتراء وتضعيف، ولو نظرنا إلى القسم الأول من هذا القول لعلمنا مبلغ اعتقادهم إيمان «عبد الحميد» بحيث جعلهم يتحفزون لانقلاب يعيده ولم يحجموا إلا سدًا للذريعة.

فلو أضفنا إلى هذه التوثيقات عنوان مقال الأستاذ «محمد جميل بيهم»، والذي صار حكمة سائرة وبندًا في قانون التاريخ الحديث، حيث قال: «السلطان الأحمر لم يكن طاغية» ثم لو أضفنا السلوك العملي السياسي للزعيم مصطفى كامل، لانكشف لنا نور وجه «عبد الحميد» الذي يبدد دائمًا كل ما هنالك من ظلام.

هذا ما سمح به المجال في هذا العدد، وإلى الحلقة القادمة حيث سنفصل الرد على جميع الشبهات التي أثارها مقال مجلة «العربي».

(١) التعليقات، ص٢٤٦.

شهيد فلسطين الأول (الحلقة الثانية).. عبدالحميد[1]

إن شهادة شكيب السالفة تثبت أنه سمع الجمهور يقولون بحسن إسلام وإيمان عبدالحميد.

واصطلاح «الجمهور» يعني: معظم الناس، كما يقال: جمهور الفقهاء، ولم يكن يقصد العامة من الناس الذين هم خلاف الصنف المثقف كما قد يتوهم المبتدئ.

أما أنَّ خلع عبد الحميد حقيقة واقعة وأنَّ معظم الأيادي التي جندت لخلعه كانت أيادي أبناء المسلمين فذلك لا ينهض لأن يقوم دليلاً على صدق كل القبائح التي تنسب إلى عبد الحميد، فإن التاريخ يعرف مثل هذا بكثرة، ولم يك عثمان ابن عفان كعبدالحميد حين قادت الأيدي الخفية جموع أبناء المسلمين والغوغاء لقتله والتمثيل بجثته ورمي جنازته بالحجارة، حتى جندوا الشريف القرشي الساذج، مثل محمد بن أبي بكر الصديق مع الصعلوك التافه البوال على الأعقاب، مثل عمير بن ضابي ليدخلا سوية على عثمان ﷺ، ويفجرا دمه الزكي على نسخة القرآن، وهما يعلمان هجرته ورشده ومصاهرته النبي ﷺ، ولكن الدعاية السياسية غرتهما وألبستهما المنظار الأسود الذي لا تتبين الأعداد من خلاله.

ومثل هذه الظروف تكررت دومًا، فقتل الخوارج الغوغاء عليا ﷺ، وقتل جند الأتراك المتوكل، والقصص كثيرة.

وكما أنها كثيرة في تاريخنا الإسلامي فإنها كثيرة أيضًا في تاريخ دول الكفر،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٠)، ٦ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٢ أكتوبر ١٩٧٣م، ص٢٠-٢٢.

حتى رأينا التنكر الشنيع لنابليون ثم رأينا تنكر منظمة الجيش السري لديغول بالأمس القريب، وكلاهما عشق بلاده فرنسا عشقًا ورصد لخدمتها مواهبه.

فإذا ما جاء حزب مشبوه واستغل أخطاء عبد الحميد وهفواته لتجنيد الناس لخلعه، فإن الأمر لا يتجاوز أن يكون قصة مألوفة في التاريخ السياسي القديم والحديث الإسلامي والفكري، وفي كل قصة كانت الغاية تبرر الوسائط، ويفتي المنقلبون أنفسهم بجواز الكذب والمبالغة والخداع والإشاعات في حملتهم الإعلامية المضادة، والعاقل يتروى ويتأنى في تصديق كلام الخصوم حتى تثبته أو تنفيه القرائن وشهادات الثقات.

ولقد كانت المسألة الحميدية مسألة فكرية قبل كل شيء، بين حاكم يعتقد الإسلام ويقود معسكراً محافظًا مع ما للناقد المسلم المدقق من ملاحظات انتقادية لحكمه ومعسكره، وبين ساسة تأثروا بمبادئ الغرب ودعايات الماسونية وفلسفات الفرنسيين.. يريدون إحداث انقلاب فكري في سيرة الدولة العثمانية يتجاوز مجرد خلع عبد الحميد.

وقد أعلن التاريخ الانقلابي فيما بعد ما أضمره الانقلابيون من ذلك من قبل.

وآخر دليل على صدق كلامنا هو المشاركة الغربية في ملاحقة سمعة عبد الحميد بعد خمسين سنة من نهاية حكمه، يستثيرون ورثة الاتجاهات الانقلابية تلك ويستعبدونهم، من بعد تراخيهم، على ورثة المعسكر الحميدي الذين بدأوا يفيقون ويحاولون إعادة تركيا إلى حكم الإسلام.

وتتمثل هذه المشاركة في صورة من صورها بنشر كتاب الدكتور رامزور عن تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨.

ألف الدكتور أرنست رامزور، أحد موظفي السفارتين الأميركيتين في تركيا

ولبنان، وترجمه سنة ١٩٦٠ الدكتور صالح أحمد العلي، وهو عراقي من شيعة أستاذه المستشرق الانكليزي الشهير جب وممن يعتنق مذاهبه، وقدم له الدكتور نقولا زيادة، وهو مسيحي لبناني من أركان الجامعة الأميركية ببيروت، ونشرته باللغة العربية مؤسسة فرانكلين الأميركية، وهي إحدى الواجهات العلنية للدائرة الثقافية في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كما يعترف الجميع، فضلاً عن الراسخين في العلم، والراسخون في السذاجة يقولون آمنا به، كل من عند غربنا.

ومع أن هذا الكتاب يتبنى آراء أعداء عبد الحميد بحماسة ظاهرة ويحاول جهده أن يخفي اليد اليهودية والماسونية في الانقلاب، إلا أنه جدير بأن يطلع عليه دعاة الإسلام لما فيه من فلتات لسان تكون للداعية المسلم حججًا لم يفطن المؤلف إلى دورها في فضح الصورة الحقيقية للانقلابيين، سنذكرها ها هنا..

إلحاد قادة حركة الاتحاد:

فرامزور يذكر لنا النص الكامل لأول إعلان وعرض كامل لأهداف جمعية تركيا الفتاة المنشور سنة ١٨٩٥ في جريدة «مشورة»، (أي: الشورى) التي كانوا يصدرونها في باريس، وفيه قولهم:

- إننا نرغب في العمل لا لخلع الأسرة الحاكمة التي نعتبرها ضرورية لحفظ النظام السليم، ولكن لنشر فكرة التقدم[١].

والمسلم الواعي يعرف جيدًا مدلول اصطلاح «فكرة التقدم» هنا وكونه إشارة إلى رغبة تفلت من الإسلام، تدل على ذلك سيرة كاتب ذلك الإعلان الأول وأبرز قائد للجمعية خارج تركيا، وهو: أحمد رضا مؤسس الجمعية، وراعيها الأول ورئيس

(١) رامزور في كتابه: تركية الفتاة، ص٥٧.

مجلس المبعوثان العثماني بعد نجاح الانقلاب أي البرلمان، يقول رامزور:

– لقد كانت أمه نمساوية أما أبوه فكان يعرف باسم: إنكليزي علي بك، نظرًا لميوله للإنكليز وحبه لهم، لقد تثقف أحمد رضا ثقافة حرة[١].

كانت فلسفة أوغست كونت قد جذبت إليها أحمد رضا، فأصبح شخصية مألوفة في دوائر الفلسفة الوضعية في باريس، كما صار يسهم أحيانًا في مجلة الغرب، وهي التي كان ينشرها الوضعيون الفرنسيون[٢].

والظاهر أن أصحاب هذه الفلسفة كانوا يشتهرون بالإلحاد الصريح، فأذعن أحمد رضا لإلحاح أعضاء الجمعية وحذف شعار الوضعيين عن مجلة مشورة لئلا يكون الشعار حجة عند عبد الحميد في التدليل على إلحادهم[٣].

وحسنة أحمد رضا الوحيدة أنه سنة ١٩٠٢ لما اجتمع في باريس «أول مؤتمر للأحرار العثمانيين» برئاسة طامع في العرش من أبناء أخوات السلاطين هو الأمير صباح الدين كان الاتجاه السائد الذي أقر ضمن مقررات المؤتمر هو طلب مساعدة الدول الأوروبية وتدخلها لمصلحة الشعوب العثمانية فرفض أحمد رضا ذلك واعتبره مسا بالاستقلال، مع أن المؤتمرين أهملوا اعتراضه وفاوضوا الدول وحصلوا على وعد صريح بالمساعدة سنفصل ذكره[٤].

وصباح الدين هذا هو ابن عمة عبد الحميد هرب إلى باريس وصار القائد الثاني للجمعية ينافس أحمد رضا والتصق بالأرمن وجمعياتهم وعاونهم وعاونوه كما يذكر رامزور وكان في فرنسا شديد الصلة بالأوساط الكاثوليكية الفرنسية عن طريق قس

(١) المرجع السابق، ص٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص٦٠.
(٤) المرجع السابق، ص٩٥.

من قساوستهم اسمه فيش[1].

وولع ببعض فلاسفة الغرب ولوعا ينم عن بدائية وبساطة في التفكير، وفصل رامزور تأثراته الفلسفية هذه مما لا مجال لذكره هنا، ولكننا نذكر حكم رامزور العام عليه حين يقول: إن المرء ليميل إلى الاستنتاج بأن حياته الأولى في تركية لم تتح له قط فرصة لدراسة بلاده، وإن تربيته قد جعلته أوروبيا أكثر منه تركيا[2].

فهذان هما أمثل قائدين في معسكر أعداء عبد الحميد، وأما الانتماءات الفكرية والاجتماعية لبقية القادة فتشكل فضائح أكبر سيمر بها حديثنا تباعًا.

لقد كانت تلك المعركة صورة مشابهة للمعركة الدائرة اليوم بين دعاة الإسلام وخصومهم ممن خدعتهم التربيات الغربية والشرقية، وكما أن سلسلة قياداتهم اليوم تمر بميشيل وجورج وقسطنطين ونقولا وبطرس وكلوفيس وأبناء سكنة الحي اليهودي، فإن قياداتهم بالأمس كانت تمر بتلامذة الفلسفة الفرنسية، والأرمن واليهود والبكطاشية واللامتية وأبناء سلانيك.

حلف مع اليهود:

أما اليهود فخبر مشاركتهم في حركة الاتحاد والترقي متواتر مشهور وعلى الأخص يهود الدونمة من سكان سلانيك الواقعة في القسم الغربي من تركيا قرب البحر الأسود.

يقول رامزور: ربما كانت سلانيك آنذاك أكثر المدن تقدماً في الإمبراطورية العثمانية لأن الأوروبيين في سكانها المنوعين كانوا أكثر من العثمانيين، وكان نصف سكانها تقريبًا من اليهود السفارديين الذين لقوا منذ زمن بعيد في تركيا الإسلامية

(١) المرجع السابق، ص١١٢.
(٢) المرجع السابق، ص١١١.

تسامحًا دينياً لم توفره لهم إسبانية المسيحية، وفي القرن السابع عشر أسلم عدد منهم مع رئيسهم شبتاي سيوي، الذي اعتبر نفسه مسيح أزمير ثم صاروا يدعون منذ ذلك الحين: الدونمة[١].

وسبب إسلامهم يسوقه رامزور فيقول: في سنة ١٦٦٦م خُيِّرَ شبتاي سيوي بين الموت والإسلام لا بسبب تعصب ديني مفاجئ أظهره الأتراك، بل لأن أحمد كوبروللو الصدر الأعظم شعر بأنه كان يخلق كثيراً من الخلافات بين اليهود في تركية، وقد قبل شبتاي سيوي الإسلام، ثم اتبعه في عمله عدد من أتباعه الذين اعتقدوا أن لعمله غاية ما.

أما كلمة دونمة فمعناها: المبدل لدينه، ويبدو أن هناك أساساً للاعتقاد بأن الدونمة ظلوا متمسكين بدينهم القديم في السر[٢].

بل إن تمسكهم أكيد فإن الرئيس الثاني لإسرائيل منهم.

ففي مثل هذا الوسط اليهودي ترعرعت حركة الاتحاد بإجماع المؤرخين، ودخلها اليهود بكثرة حتى وصل اليهودي السلانيكي «قرة صو» إلى مراكزها القيادية، فكان أظهر الأربعة الذين ذهبوا إلى عبد الحميد في قصره وبلغوه قرار الخلع.

يقول شكيب: ذهبت لجنة مؤلفة من عارف حكمت باشا وآرام أفندي من أعضاء مجلس الأعيان، ومن أسعد باشا مبعوث دراج، وفراسو أفندي مبعوث سلانيك، فبلغوا السلطان قرار خلعه[٣].

والتفت إلى أن العضو الثاني مسيحي وأظنه أرمنيًا.

(١) المرجع السابق، ص١١٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٤.
(٣) تعليقات شكيب على تاريخ ابن خلدون، ص٣٤٦.

وهذه الحادثة يثبتها رامزور أيضًا فيقول:

أما كاراسو الذي أصبح فيما بعد بارزًا في جمعية الاتحاد والترقي فكان أحد أعضاء الوفد الذي نقل إلى عبد الحميد نبأ خلعه سنة ١٩٠٩، وكان عضوًا في البرلمان التركي[١].

وذكر أنه كان أستاذًا أعظم في المحفل الماسوني المعروف باسم: مقدونيا ريسورتا[٢].

وهنا استعمل المترجم حرف الكاف بدل القاف، والكل واحد. والحقيقة أن المشاركة اليهودية في الحركة قديمة فقد ذكر رامزور أن بعض اليهود حضروا المؤتمر الأول للأحرار العثمانيين المنعقد بباريس سنة ١٩٠٢، وهو حضور قد لا يثير الاستغراب لدى المؤرخ القومي لكون بلاد الدولة العثمانية تضم يهودًا كثيرين، ولكن وعاة المسلمين يعرفون ما يعنيه هذا الحضور اليهودي الذكي مع آخرين من السذج يترأسهم الأمير صباح الدين الذي يصفه رامزور بالسطحية وقلة الثقافة والاطلاع وضحالة الخبرة السياسية، ولا نشك في أن دورًا قياديًا متلفعًا مستتراً قد قام به أولئك اليهود في ذلك المؤتمر.

بل ربما هو أقدم من ذلك، ففي الإعلان الذي لخص به أحمد رضا أهداف الجمعية ونشرته مشورة سنة ١٨٩٥ كما أسلفنا ذكر صراحة أنهم يطالبون بالإصلاحات، لمصلحة العثمانيين كافة، سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو مسلمين[٣].

فقدم ذكر اليهود وهو تقديم ينم عن شيء واضح.

(١) رامزور، ص٢٠١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠٠.
(٣) المرجع السابق، ص٥٧.

وظل التأثير اليهودي على هذه الوتيرة يلاحق الجمعية حتى بعد زوال حكمها حين خسرت الحرب العظمى وهرب أركانها إلى برلين، فيذكر شكيب أن اليهودي الاتحادي مازلياح كان يلازم طلعت باشا رئيس الجمعية في ألمانيا[1].

إذن فهو حضور يهودي دائم، في أول عمل الاتحاديين وفي أوسطه وفي آخره ونهايته ليمنعوهم التوبة التي انفلت لها أنور باشا فقط.

المكر الماسوني في خدمة الانقلاب:

ولعل النفوذ الماسوني كان أكبر حجمًا وأكثر شجاعة على الظهور خلال صفوف الاتحاد والترقي من النفوذ اليهودي الصريح، فالماسونية فن من فنون العمل اليهودية التي يستدرجون بواسطتها من يجفل لأول وهلة من الاسم اليهودي المكشوف.

ويؤكد رامزور مرة أخرى على وجود الأثر الماسوني في عمل الحركة منذ البداية وحتى النهاية، ففي سنة ١٨٨٩ زار المدعو إبراهيم تيمو، الألباني الذي ترأس أول خلية للاتحاد والترقي داخل البلاد العثمانية، محفلاً ماسونياً إيطالياً في برنديري «وتعلم شيئاً كافيًا عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي وقد تأثر بتنظيماتها فيما بعد لما قرر أن ينشئ في تركية جمعية سرية تشبهها[2].

ولما تقدم العمل وسرت حركتهم إلى سلانيك كان للماسونية هناك الدور الأول.

يقول رامزور: لم يمض وقت طويل على المتآمرين في سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونية، إذ لما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية فإن المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون

(١) حاضر العالم الإسلامي (٤/ ٣٨٠).
(٢) رامزور، ص٥٠.

انقطاع بطريقة سرية طبعًا، وضمت إلى عضويتها عدداً ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد.

لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية في سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة، وعلى ما يبدو أن الجمعية استعملت بعض المحافل أو ربما جميعها لتكون محلات للاجتماع، وضمت كثيرًا من أعضائها واستخدمت الفن الذي نماه الماسونيون في اختبار المرشحين للعضوية.

ومن المحتمل أيضًا أن عمل الجمعية سار بسرعة تثير التقدير بسبب هذا الاتصال مع ماسونية سلانيك[١].

ومن المؤكد أنه كان في سلانيك عدد من اليهود، وكان كثيرون منهم ماسونيون، وهذا وضع يثير بالطبع كثيرًا من الشكوك، وخاصة في نفوس من كانوا يرون في الماسونية محاولة تقوم بها اليهودية العالمية للسيطرة على العالم.

وقد أدى هذا إلى أن عدداً كبيراً من الكتب، إن جاز إطلاق هذه التسمية عليها، تصور فيها ثورة تركية الفتاة كمظهر آخر لهذه المؤامرة الثوروية العالمية التي يقوم بها الماسونيون واليهود[٢].

ولا ندري لماذا يسميها شكوكًا وهو نفسه يعترف في محل آخر بأن: من أحسن الأمثلة على ذلك هي سيرة عمانوئيل قرة صو أفندي لقد كان قرة صو، وهو يهودي من سلانيك أستاذًا أعظم في المحفل الماسوني المعروف باسم مقدونيا ريسورتا، وينسب إليه بعض الفضل في أنه عني بفكرة استدعاء أعضاء تركية الفتاة للاجتماع في المحافل الماسونية[٣].

(١) المرجع السابق، ص١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠٠، ويحيلنا إلى رثاء لقرة صو نشر في صحيفة التايمس اللندنية يوم ٨/ ٦/ ١٩٣٤م.

وهو يعترف أيضًا بأن جميع الذين هربوا إلى باريس دخلوا المحافل الماسونية الفرنسية ماعدا أحمد رضا[١].

ورامزور خلال بحثه هذا يحاول جاهداً أن يخلع عن الأذهان الفكرة المنطبعة في أذهاننا عن الدور الكبير الذي لعبته الماسونية في توجيه حركة الاتحاد والترقي، ويحاول إقناعنا بأنه كان دوراً محدودًا، لكنه كان أمينا من جهة أخرى فأورد أقوال طائفة من الكتاب الغربيين الذين يخالفونه ويرون دورا أكبر للماسونية ويورد أنه:

حتى رجل معروف باطلاعه على الشرق الأدنى مثل سيتون واطسن حمل على القول: إن الأدمغة الحقيقية في الحركة كانت يهودية، أو يهودية مسلمة، وقد جاءت مساعداتها المالية من الدونمة الأغنياء ومن يهود سلانيك، ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فيينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن[٢].

فلنا قناعتنا المؤيدة لواطسون ولرامزور قناعته التي تمليها عليه وكالة الاستخبارات.

وللباطنية دورهم:

ولم يكتف المنقلبون بالاعتماد على المساعدة الماسونية اليهودية، وإنما تعدوها إلى الاعتماد على طريقة الدروشة «البكتاشية» أو «البكطاشية» الباطنية الإباحية التي تنتشر في الأناضول، المتفشية في جيش الإنكشارية القديم.

ويأتي رامزور بالبراهين على ذلك، وعلى صلة هذه الطريقة المغالية بالماسونية الفرنسية، وصلة رئيسها بالأديب السياسي الفرنسي الماسوني فولتير[٣].

(١) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٠، وأحالنا إلى ص١٣٤ من كتاب واطسن هذا المعنون بـ«ارتفاع الأممية في البلقان»، المطبوع بلندن لسنة ١٩١٧م.

(٣) رامزور، ص١٢٩.

ثم يقول: ولعل من أسباب تأييد حركة تركية الفتاة أيضًا أن البكطاشية كانوا يميلون في أمر الخلافة إلى العقيدة الشيعية في الإمامة، مما لا يجعلهم مرتاحين إلى ادعاءات السلطان العثماني. ويرى بيرج أن البكطاشيين أعاقوا سليم الأول في حملته ضد إسماعيل شاه إيران في سنة ١٥١٤م بسبب عطفهم السري على الفرس الشيعة.

لذلك قد تكون محاولة عبد الحميد لاستعادة أهمية الخلافة مسؤولة إلى حد ما عن إثارة المعارضة البكطاشية[١]، وتبلغ تقريرات رامزور فروة أهميتها حين يقول:

ومن المؤكد أن عددًا من أعضاء تركية الفتاة كانوا أعضاء في الطريقة البكطاشية وأن بعضهم كانوا ماسونيين وبكطاشيين في الوقت نفسه، ومن هذا الصنف طلعت باشا، ورضا توفيق، وشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي[٢].

فأما طلعت فهو قطب حركة الاتحاد أثناء حكمها ورئيس الوزراء وأما رضا توفيق فهو فيلسوف الحركة، وموسى كاظم هو الذي أفتى بخلع عبد الحميد.

ينقل رامزور عن رسالة لرضا توفيق يقول فيها: إن الغالبية العظمى لشيوخ البكطاشية ودراويشهم أميون تمامًا غير أن في إستانبول ومراكز الثقافة الأخرى عدداً كبيرا من البكطاشية ذوي مكانة سامية وثقافة عالية.. إنني شخصيًا أعرف بعض الوزراء، ومشيرًا، وسفيراً، وعدداً من القضاة والكتاب والشعراء.. الخ، واثنين من شيوخ الإسلام على الأقل، أحدهما موسى كاظم أفندي، كان عضوا في وزارة طلعت باشا زعيم لجنة الاتحاد والترقي، وكان مثلي ومثل طلعت باشا، بكطاشيا وأستاذاً ماسونيا في نفس الوقت، فمن الصواب إذن أن أصحاب الطريقة البكطاشية كانوا مستعدين عقليًا للترحيب بأية ثورة سياسية وإصلاح اجتماعي يؤيد الحرية التامة للعقيدة وتحسين

(١) المرجع السابق، ص١٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٣١

الإدارة التركية، لقد كان بين أعضاء اللجنة الثوروية في استانبول بعض البكطاشية وقد ساعد كافة البكطاشيون تقريبا اللجنة على النجاح في تحقيق أهدافها[١].

وهذه الرسالة التي ينقل منها المؤلف أخذها من رضا توفيق مباشرة سنة ١٩٤٠م، يداً بيد كما يفيد هو[٢].

وأصحاب بدعة اللوم أيضاً:

واستمر أعداء الإسلام في تجميع كل من أعطاهم القياد من أعضاء الفرق الباطنية المبتدعة، وجندوا فرقة «الملامتية» في خدمة حركة خلع عبد الحميد.

وبدعة هذه الفرقة قديمة جداً، يدعوهم الشيطان إلى ارتكاب المحرمات والكبائر، ليتاح لهم أن يتوبوا ويلوموا أنفسهم ويحوزوا فضيلة النفس اللوامة كما يزعمون، ومن هنا جاءهم اللقب وما زالت بقاياهم في الأناضول وأعالي سورية، وعمل الحكم الطائفي البعثي في سورية على تهجير بعضهم إلى دمشق والاستعانة بهم.

يقول رامزور: إن بورصة لي محمد طاهر بك، وهو أحد أوائل أعضاء جمعية وطن وحريت في سيلانيك، كان عضوًا بارزًا في تلك الطريقة وبعد أن انضم، وبسبب شخصية طاهر بك على التدقيق: ظفر الجماعة المتآمرون بتزايد مهم، حيث أقبل كافة الإخوان الملامتية ينضمون إليها دون تردد، نظرًا لما يكنونه من احترام كبير لطاهر بك.

هذه بالطبع قضية تتعلق بالأشخاص، غير أن الملامتية كانت كالبكطاشية حرة لدرجة تكفي لجذب أناس من نوع طاهر بك. لقد كان الناس يعتقدون أن الملامتية كالبكطاشية تعتنق بعض المعتقدات الماسونية[٣].

(١) المرجع السابق، ص٢٠٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٨.
(٣) المرجع السابق، ص١٣١.

فكأنهم عرفوا إثم خلع عبد الحميد فاقترفوه لتبلغ النفس اللوامة ذروتها..

صورة قبيحة وعصابة مجموعة:

وهكذا وضحت صورة المعسكر الانقلابي..

أقليات حاقدة وباطنيات مشعوذة وماسونيات ماكرة، ويقود اليهود الجميع.

ومع كل هذه القرائن التي تكفي لتصديق عبد الحميد فيما ادعاه في رسالته التي ذكرها الأستاذ سعيد الأفغاني فإن كاتب العربي يدَّعي أن الوثيقة موضوعة وأنها مجرد حديث خرافة وهو -جرياً مع أسلوب الإرهاب الفكري والقومي- يتهم الوثيقة بأنها:

من صنع أولئك الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى عهد الاستعمار على أنه عهد خلافة لا عهد استعمار، والذين أصبحوا يكتبون هذه الأيام للتشكيك في التاريخ العربي الحديث ورجال اليقظة العربية ويحاولون أن يخلقوا في الذهنية نوعًا من الارتداد إلى تلك الخلفية المظلمة من عهد الاستعمار العثماني.

هكذا كلما برز مخلص ليقول قولة الحق وجهت إليه مثل هذه التهم الرخيصة.

إن إنكار الوثائق وإثبات تزويرها في الدراسات التاريخية الوثائقية الحاضرة، لا يتم بمجرد الظن والتخمين والاتهام وإنما باتباع الوسائل العلمية الحديثة في مقارنة الخطوط المدعاة بالخطوط الثابتة لكاتب الوثيقة المدعاة، وإجراء التطبيق، وغير ذلك.

والأستاذ محمد جميل بيهم، الخبير بالتاريخ الحميدي يثبت في مقاله رفض عبد الحميد لعرض اليهود فيقول إنه: رفض رفضًا باتًا ما عرضته عليه الصهيونية العالمية من أموال في سبيل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين.

وإن ما يدعيه عبد الحميد في رسالته من اشتراط الاتحاد والترقي عليه مساعدة اليهود إزاء أحلامهم في فلسطين لا يستدعي حتمًا أن يكون ذلك قولهم له ساعة تبليغهم قرار الخلع، وإنما كان من جملة ما ينادون به ويعتقدونه كثمن يؤدونه لليهود مقابل إعانتهم السلانيكية لهم.

وما المانع أن يكون قره صو قد خاطبه بذلك على انفراد، أو مع آرام، أو بحضور الاثنين الآخرين لما بلغوه قرار الخلع؟

إن من عادة اليهود أن يستدرجوا الخصم إلى ورطة فإذا وقع عرضوا عليه الإنقاذ مقابل ثمن، ومن الجائز جدا أن يكون قرة صو قد عرض عليه الاستمرار في الحكم مقابل ليونته إزاء حلمهم في فلسطين..

وأيًا كان فإن العرض اليهودي قبل سنة الخلع ثابت بشكل قطعي أورده هرتزل مؤسس الصهيونية في يوميات مذكراته، واعترف برفض عبد الحميد لإغرائهم المالي لقاء مساعدة اليهود في الهجرة إلى فلسطين، ويوميات هرتزل مطبوعة باللغة العربية مشهورة متداولة.

ولا ندري لعل كاتب العربي يتهم هرتزل بالكذب في ذلك لصنع دعاية لعبدالحميد!

إن هذا الأمر أشهر من أن يحتاج إلى إيراد مصادر، وأكبر دليل عليه كون التضيق على هجرة اليهود قد استمر في عهد عبد الحميد كله وفي وقت كان هرتزل يستشفع بقيصر ألمانيا حليف عبد الحميد حين زيارته للقدس ليتوسط له في السماح بالهجرة فلم يسمح، ونشرات مركز الدراسات الفلسطينية تؤيد ذلك، بينما انفتحت لهم الهجرة في عهد الاتحاد.

إن كتب التاريخ المدرسي قدمت إلى أجيال منا تاريخ أمتهم مشوها ومبتورًا

حجب عنهم قصة الصفقة اللئيمة التي عرضها عملاء اليهود على السلطان عبد الحميد آخر الخلفاء العثمانيين يفتحون له خزائن المال اليهودية ويسددون كل ما على دولته من ديون نظير بيع فلسطين وطنًا لليهود!

واعتذر ﷺ عن رفض الصفقة بأن فلسطين ليست من أملاكه الخاصة ليساوم عليها في صفقة بيع وشراء فكان هذا الرفض إيذانًا بالقضاء عليه وعلى كل ما يمثله من خلافة إسلامية.

وتاه خبر الصفقة كلها في ضجيج الأفراح التي ملأت أرجاء وطننا احتفالاً بسقوط الخلافة العثمانية.

وفيما كنا ثملين بنشوة الخلاص من أغلال الاحتلال التركي! كان أولياء اليهود من المستعمرين ورثة ثأر الصليبية، قد تقاسموا فيما بينهم ما سموه: تركة الرجل المريض.

ودخلت هذه الكلمة في معجمنا التاريخي، السياسي والفكري دون أن تثير فينا أدنى حساسية لدلالتها الخطرة، أو ندري أن الخلافة العثمانية تقرر إسقاطها من يوم أن رفض السلطان أن يساومه عملاء اليهود[1].

(١) من مقال قيم للأديبة د. بنت الشاطئ.

رد على مقال مجلة «العربي» (الحلقة الثالثة)
شهيد فلسطين الأول عبدالحميد[1]

اتضح لنا إذن، أن خلع عبد الحميد لم يكن يمثل رغبة ثقات المسلمين، وإنما كان خلعه مؤامرة دبرتها الأقليات الحاقدة، من اليهود، والنصارى الأرمن، والماسون، والحركات الباطنية والابتداعية، على حين غفلة من أولئك الثقات الذين شلتهم دعايات هذه العصبة الحاقدة، وباستغلال بعض المصلحين من أبناء المسلمين الذين فتنتهم الفلسفة والتربيات الغربية، ولم يكن جهد الأقليات لينجح لولا أن المدد الأجنبي كان لهم ظهيرًا.

الإنجليز يعاونون الخونة:

فقد ضمن الإنجليز للمنقلبين توفير المعونة عند الحاجة، ودخل الأمير صباح الدين معهم في مفاوضات بواسطة خائن من أعوانه اسمه إسماعيل كمال بك، وذلك أثناء فرصة سنحت لهم قبل ١٩٠٨ بسنين، وفشلوا في استغلالها.

يصف رامزور خطتهم فيقول: «أما الخطة التي رسمت فكانت بسيطة، حيث تم الاتصال بالمشير رجب باشا، وهو ألباني كان قائدًا للقوات التركية في ولاية طرابلس الغرب، فوافق على القيام بالعملية التي كانت تتطلب نقل قسم من جيشه إلى سلانيك، ومنها يدعو أبناء أمته الألبان لمساعدته، أو أن ينقلها إلى بعض الأماكن الاستراتيجية كبولاير على خليج ساروس، وبذلك يتمكن من الاستيلاء عليها والسيطرة على

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧١)، ١٣ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٩ أكتوبر ١٩٧٣م، ص ٢٠-٢٢.

الدردنيل.

لقد اعتقدوا على ما يقول إسماعيل كمال، أن هذه الحركة ستلفت أنظار أوروبا وتضغط على السلطان الذي كان يمكن إخافته بسهولة، فيضطر إلى الموافقة على ما يفرض عليه من شروط.

ويستمر إسماعيل كمال في روايته فيقول: إنه بعد أن ضمن وعدًا من رجب باشا بالتعاون، عرض الخطة بكاملها على السر ادموند مونسن، السفير البريطاني في باريس وبعد أن فكر هذا في الأمر، زوده برسائل إلى وزارة الخارجية البريطانية، فأخذها معه حالًا إلى لندن[1].

ويستمر رامزور فيذكر نجاح إسماعيل كمال في الحصول على وعد بريطاني بالتأييد، حولوه بموجبه إلى القاهرة حيث بحث مع الاستعماري الحاقد على الإسلام اللورد كرومر تفاصيل المعونة.

ويعقب رامزور على هذه الرواية مؤكدًا صحتها، فيقول: «يبدو أن الخطوط العامة للقصة التي لخصها إسماعيل كمال بك صحيحة في الأساس[2].

وأنها: «تبدو متينة الأساس، رغم عدم تأكيد المصادر الأخرى لها[3].

وهذا هو المقدار الذي أقره رامزور في محاولة منه لتخفيف حجم الشبهة التي تحوط بالانقلابيين، كما فعل تجاه تقدير حجم المشاركة الماسونية، ولكنه أحالنا إلى مصادر تذكر ولوغًا أوسع في هذه الخيانة لم يصدقها هو، وتنسب لهم اتصالات مماثلة بالنمسة وإيطاليا واليونان، مع أنه يقر ويعترف بحصولهم على أموال تلاعب بها من بعد هذا المتآمر الخائن إسماعيل كمال.

(١) رامزور، ص١٠٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٤.

ومع كل هذا، فإن رامزور في آخر كتابه، يجهد نفسه لإقناعنا بأن الحركة التي أطاحت فعلًا بعبد الحميد لم تكن وراءها دولة أجنبية، ولم يكن من الواجب عليه أن يجهد نفسه، فإن تدخل الدول إنما يكون عند الحاجة، فلما كفت جموع اليهود والماسون والأرمن والبكتاش والفلاسفة دول الاستعمار مؤونة التدخل السافر فإنه لم تعد هناك حاجة لوضع نفسها في المكان المفضوح.

وما أدرانا بتفاصيل كل الذي حدث؟ إنما هي فلتات لسان رامزور وأمثاله نستشهد بها فحسب، ولم تظهر حتى الآن دراسة وثائقية تسلط الأنوار على الحقائق كاملة.

وهل يعقل أن تتخلى دول الاستعمار في النهاية عما تعودت من إعانتهم منذ البداية؟

إن المعونة الاستعمارية ثابتة منذ خطواتهم الأولى، ويثبت رامزور أن دوائر البريد الأجنبية التابعة للسفارات والمتمتعة بامتيازات خاصة تعفيها من التفتيش كانت توزع صحيفة أحمد رضا «مشورت» منذ بداية صدورها في أرجاء البلاد العثمانية[1].

قضية الأرمن كانت الزناد :

وقد كشف رامزور مدى الحماس الذي دب في الدول الاستعمارية الصليبية لخلع عبد الحميد بعد حدوث مذابح الأرمن، يؤزهم العرق الدساس.

يقول رامزور:

«لقد ترك عبد الحميد في البداية انطباعًا جيدًا في بلاده وفي الخارج، وظل عدة سنوات لا يلقى من شعوبه أية معارضة لحكمه، كما أن المراقبين الأجانب أجمعوا تقريبًا على الثناء على السلطان الجديد[2].

(١) المرجع السابق، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

«غير أن هذه المدائح وقفت فجأة بسبب المذابح الأرمنية التي حدثت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر[١].

ثم يروي كيف أن الدول الاستعمارية كادت أن تخلعه سنة ١٨٩٦ بعد هذه المذابح[٢].

إذن، فالدعايات المسيحية المنتصرة للأرمن هي التي كانت زناد الدعاية المضادة، ولم يكن عبد الحميد مرشحًا للخلع منذ بداية حكمه، ولكن الذي حدث للأرمن هو الذي رشحه للخلع، مع أن عبد الحميد بريء من مسؤولية المذابح، وأن الغوغاء هم الذين تسببوا فيها، وأن الأرمن هم الذين بدأوا باحتلال مبنى البنك العثماني وقتل بعض موظفيه، ردًا على القمع الذي جوبهت به ثورتهم التي ثبت أن الروس والإنكليز دفعوهم إليها دفعًا، وليس بسبب سوء المعاملة كما قد يتوهم البعض، بل العكس هو الصحيح، وأن النصارى من رعايا الدولة العثمانية ما كانوا يثورون إلا لما يرون من توفر روح التسامح الذي يدفعهم إلى استغلال المواقف لإحراج الدولة وكسب مزيد من الامتيازات.

لسنا نقول هذا، وإنما يقوله كبار الساسة النصارى الأجانب، كمثل «دجو فارا»، أحد كبار ساسة رومانيا ومؤرخيها ممن عاصر عبد الحميد.

يقول هذا الخبير: «إن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها، لأن هذه الأمم، بواسطة هاتين الحريتين، كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتمالأ وتسير سيرًا قاصدًا في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية[٣].

(١) المرجع السابق، ص٤٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٧٤.
(٣) حاضر العالم الإسلامي (٣/ ٣٢٧).

وهذا النص هو من خاتمة كتاب لهذا السياسي ترجمه شكيب أرسلان وأودع خلاصته فصلًا من فصول حاضر العالم الإسلامي، وفيه يذكر هذا الروماني، بالأسماء والأرقام والتواريخ، مائة مشروع استعماري نصراني بالتمام والكمال لتقسيم الدولة العثمانية، ولم ينجح إلا المشروع المائة في أثناء الحرب العالمية الأولى.

يقول شكيب معقبًا على القول السالف: «وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فإنها الحقيقة التي لا شائبة فيها.

ولذلك نجد ملاحدة أنقرة يجعلون من جملة حججهم في التقصي من الشريعة الإسلامية قولهم: إنه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم تطرأ عليها هذه المصائب التي لزمتها مدة ستة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين، وبأن الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول في الإسلام أو الجلاء».

أفلم يكن أجدر بكاتب العربي أن يحول قلمه إلى الانتصار لمسلمي الفلبين الذين تذبحهم الصليبية الحاقدة ذبح النعاج هذه الأيام بدل أن يهاجم حاكمًا إسلاميًا خلعته الصليبية بتهمة مذابح هو منها برا ء؟

أو لا يرى الكاتب أن أقل تقدير لرقم ضحايا جزيرة «أبا» في السودان، من الركع السجَّد الذين قتلتهم قنابل طائرات القومية العربية اللادينية يصل إلى أكثر من ضعف أكثر تقدير لقتلى الأرمن المنفذين لخطة التحرش الروسية؟

وأين كان ضمير كاتب العربي حين بارك زعماء القومية العربية ذبح السفاح عبيد كرومي لاثني عشر ألف عربي مسلم في زنجبار قبل سنين قلائل حتى يقف اليوم متحمسًا في النيل من خليفة مسلم كل تهمته التي خلعته أنه لم يستطع السيطرة على الغوغاء الذين قتلوا أقل من نصف ضحايا زنجبار؟

أم أن عين الرضا عن كل عيب كليلة؟

إننا لنأسف إذ نقرر أن كاتب العربي كان ضحية للدعايات الأرمنية واليهودية، وأنه لم يكن عادلًا في إصداره الأحكام.

افتراء على سلطان التسامح:

وبسبب هذه المذابح الأرمنية، والتبني الاستعماري للقضية الأرمنية، ركزت الدعاية المضادة كلامها على كثرة القتل، ووصفته بأنه السلطان الأحمر، تعني: الأحمر بدماء الأرمن.

وأما نفس رجال الاتحاد والترقي زمن حكم عبد الحميد فلم يكثروا من ذكر هذه التهمة، وإنما كانوا يطالبون بالدستور والإصلاح الذي يرونه.

فلما انقضى ذلك الجيل، وجاء جيل جديد لا يميز مصادر الكلام، برز فيهم أمثال كاتب العربي، وخلط تهم الأرمن بتهم غيرهم، والتهم التي قيلت أيام حكم عبد الحميد مع التي قيلت بعد خلعه.

إن محمد جميل بيهم يؤكد مرتين في مقاله أن تهمة القتل لم تنشأ إلا بعد خلعه، فيقول: «ولما نجحت جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ في ما كانوا يسمونه: الانقلاب، وخلعت السلطان في العام التالي بالاتفاق مع الأرمن: أصبحنا نسمع الخطب والقصائد والأناشيد تندد به وتتهمه بالخيانة، ونقرأ الصحف والمقالات والكتب تحمل الحملات الشعواء عليه، ملصقة به كل فرية، حتى لم تتورع عن الزعم بأن السلطان كان يضع بعض الأحرار في أكياس ويلقيهم في البوسفور»

ثم يقول: «لم يلبثوا بعد خلع السلطان أن انقلبوا عليه، وافتعلوا مع غيرهم الأقاصيص والافتراءات التي وصلت إلينا الآن، والتي أوهمت بعضنا بأنها حقائق

لا ريب فيها»

وكان قد بين في أول مقاله أنه يريد أن يتحدث: «إلى جيلنا الجديد عن هذا السلطان حديثًا لا يستمد مادته من القصص والروايات التي لفقها أعداؤه، بغية كشف النقاب عن الحقيقة»

فهي أقاصيص وافتراءات إذن، وثم تلفيق وقلة ورع وإيهام وعداء كما يقول بيهم، وكل ذلك بعد الخلع.

ومع عنف التهمة فإن أعداء عبد الحميد لم يوردوا مثلًا للذين قتلهم غير مدحت باشا وأحد رفاقه من أصهار السلاطين، قالوا إنه خنقهما بعد نفيهما إلى الطائف، ونتحدى كاتب مجلة العربي أن يأتينا باسم ثالث من غير الأرمن الذين ذبحتهم الغوغاء، أو من غير ثوار البلغار واليونان الذين قتلوا في المعارك.

يقول الكاتب إن عبد الحميد كان يعدم الكثيرين بدون محاكمة، فمثل من يا ترى أعدمه؟

فأما مدحت فكان ماسونيًا، وحوكم بقتل السلطان عبد العزيز وحكم بالإعدام وأثبتت التهمة عليه كما يقول رامزور[1]، وإن كان يعود فيقول إن أطباء السفارات الأجنبية لما فحصوا جثة عبد العزيز رجحوا أنه انتحر انتحارًا، ومع ذلك فإن عبد الحميد نفاه مجرد النفي، والقول بأنه مات مخنوقًا لا ننفيه، ولكن لا يوجد دليل على ذلك يكفي لاعتقاد حصوله بجزم.

وكيف لا يخاف عبد الحميد مدحت باشا وقد كان هو المحرض على خلع عمه عبد العزيز؟

(١) رامزور، ص٤٦.

يقول شكيب: «كان السلطان عبد العزيز سليم الطوية جسورًا، إلا أنه كان مسرفًا، ترك على الدولة ديونًا كثيرة على أن من أهم مآثره اعتناؤه بالأسطول، ففي زمانه كان للدولة قوة بحرية عظيمة، وكانت هي الدولة الثالثة في البحر، وقد كان في أيامه من رجال الدولة مدحت باشا، وكان مولعًا بالحرية، فنما بواسطته حزب الأحرار، وصاروا يتحدثون بخلع السلطان لكثرة إسرافه، واستمالوا إليهم السر عسكر حسين عوني باشا، ودبروا على السلطان مكيدة، فاتفقوا مع ناظر البحرية، وأتوا بالأسطول فرنسا أمام سراي طولمة بغجة، بينما العساكر كانت تحيط بالسراي من جهة البر، ثم أدخلوا على السلطان من أبلغه أن الأمة خلعته، فأراد السلطان أن يستخف بهذا الموضوع، فأطلعوه على العساكر المحيطة بالقصر من جهتي البر والبحر، وأنزلوه من السراي ووضعوه في قصر آخر[1].

وأي حكم في الأرض، في القديم والحديث، لم يضطر إلى معاقبة من يحاول الانقلاب عليه؟

أما أن الحاكم رجعى، وأن المنقلب تقدمي، وحديث الاستبداد والحرية، فكل ذلك من الأمور النسبية، كل يراها من زاوية أفكاره ومفاهيمه، فحزب البعث شقان، وكل شق يتهم الآخر بالرجعية، ويكفينا أن نقرر حسن إسلام عبد الحميد، بقرائن رفضه الصفقة اليهودية وشهادة الشهود وعداوة اليهود وجموع الماسون والباطنية له، والحاكم المسلم له أن يأخذ على يد المفسد الذي يموه على الناس، ويريد ربطهم بالمفاهيم الغربية الكفرية باسم الحرية.

بل في الحقيقة: إن الطامعين لم يطمعوا بعبد الحميد إلا لعزوفه عن العقاب ورؤيتهم سلامة من سبقهم في الطريق.

(١) تعليقات على تاريخ ابن خلدون، ص٣١١.

فقد تحدث رامزور[1] عن محاولة انقلابية سنة ١٨٩٦ بقيادة كاظم باشا، اكتشفت ليلة تنفيذها نتيجة هذر أحد منفذيها وسكره حتى الثمالة، فأحبطت، فلم تزد العقوبة على النفي فقط، وكانت عقوبة رأس المؤامرة أن عين حاكمًا على إحدى ولايات ألبانيا، حتى أن رامزور نفسه تعجب من ذلك، وذكر[2] أن سياسة عبد الحميد كانت كذلك طيلة حكمه.

ومع كل هذا فإن التضليل اليهودي يريدنا أن نقول: إنه السلطان الأحمر.

التجسس الحميدي:

ومسألة الجواسيس قرينة لمسألة القتل، يتهمون عبد الحميد بإطلاق يد الجواسيس، أي رجال المباحث والأمن، في حكم الناس وهي مسألة لها أصل، ولكن المبالغة قد ضخمت حجمها، وبسببها مال شكيب إلى قسوة غير معتادة منه في الكلام على عبد الحميد، لكنه حذرنا من تصديق المبالغات التي اقترنت بها، فيقول:

«وفي زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال في مكدونية، لأن السلطان كان أكثر همه في المحافظة على شخصه، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس، فاستكثر من الجواسيس، وصار بأيديهم تقريبًا الحل والعقد، وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع، بل كان يرمي

أكثرها ولا يصدق ما فيها، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس، فساءت سمعة الحكومة، وسخط الرأي العام على هذه الحالة وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح، ويجود ويمنح، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل، وذلك بسبب كثرة

(١) رامزور، ص٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الإدارة، ويعللون سوء الإدارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية، وهذا وإن كان صحيحًا إلى حد محدود، فليس بصحيح على إطلاقه، لأن خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية، لا تذكر قضية الجواسيس في جوانبها شيئًا[1].

وهذا دفاع واضح أوله لوم واعتراف، ولو أنصفنا لسألنا: أي نظام في العصر الحديث يمكنه الاستمرار بلا جهاز أمن؟

إن نفس وجود أجهزة المباحث لا ينبغي أن يشكل لومًا، وإنما سوء استخدامها، وتصديق كل روايات رجالها.

اضطرار عبد الحميد إلى تفريق نصارى البلقان:

ويعيب أعداء عبد الحميد عليه أيضًا سياسته التي سموها سياسة «فرق تسد»، وهي كلمة أطلقتها دعايات نصارى البلقان الذين يحكمهم عبد الحميد، كان يفرق بينهم، فظنها كاتب العربي وأمثاله أنها سياسة اتبعها عبد الحميد إزاء كل المواطنين.

لقد كانت سياسة عبد الحميد هذه عين المصلحة، فإن نصارى البلقان كانوا في ثورات دائمة، يتلقون المعونة من روسيا ودول الغرب بكثرة، ولم يكن كسر شوكتهم ممكنًا إلا بالتفريق بينهم.

ومن أجل جلاء هذه النقطة أنشأ محمد جميل بيهم مقالته الدفاعية عن عبد الحميد، فبين أنه «كان مضطرًا لاتباعها غير مخير».

ثم شرح فقال: «قد اضطر السلطان المشار إليه لاتباع سياسة فرق تسد أيضًا، ذلك لأن الدول الطامعة ببلاده لم تكن تكتفي بتأليب شعبه عليه من غير الأتراك

(١) التعليقات، ص٣٣٤.

والمسلمين، وإنما كانت تعمل لضم الموالين له إلى العناصر الناقمة عليه، مستعينة على ذلك بشتى الدعاوى ضده في مدارسها وصحفها، أو بواسطة عملائها في الداخل والخارج، ولا سيما في بلاد الشام وكردستان».

ثم يشير إلى ملاحظة: «وضع السلطنة الشاذ الذي لم يكن يصلح وقتئذ إلا للحكم الفردي ريثما تعد العدد للدستور المنشود، ذلك بأن السلطنة كانت مؤلفة من عناصر تكاد لا تحصى، وكان أكثرها يتربص بها الدوائر، فما أن أعلنت الدستور بعد عبد الحميد وما فيه من حرية، وأنشأت المجلس النيابي، حتى اصطدمت هذه العناصر بعضها بالبعض الآخر، وأمسى هذا المجلس ساحة عراك بينها، وكذلك بين بعض النواب والمسؤولين».

إن دهاء عبدالحميد الذي منع اتفاق العناصر المسيحية في البلقان، وتلك حسنة من حسناته، لم يفطن لها كاتب العربي كما لم يفطن لها رجال الاتحاد والترقي من قبل؛ إذ ظنوا أن ثورات البلقان سببها سوء الإدارة لا الصليبية العالمية التي تؤججها.

يقول شكيب: «لما كان الاختلاف شديدًا بين العناصر المسيحية في البلقان الرومي والسلافي والبلغاري، في زمن السلطان عبد الحميد سعت روسيا كثيرًا في التأليف بينهم حتى يتمكنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك، ولكن السلطان عبد الحميد بدهائه ويقظته كان دائمًا يمنع الاتفاق بينهم، ويستميل هذا العنصر تارة، وذاك العنصر أخرى.

أما جمعية الاتحاد والترقي فاغترت بقوتها وظنت أن إعلان الدستور قد نفى كل خطر عن السلطنة، ونامت عن مراقبة السياسة الخارجية، بل بلغ غرور بعض أعضائها في أول الأمر أن اعتقدوا حركات البلغار واليونان والسربيين لخلع الحكم العثماني إنما السائق فيها مجرد سوء الإدارة العثمانية، وأنه لو اصطلحت الإدارة العثمانية لأخلد هؤلاء إلى السكون، وحقيقة الحال أن هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتى

يطردوا الأتراك من شبه جزيرة البلقان، وأن المسألة عندهم تاريخية محضة لا تعلق لها بالإدارة في حسنها وعدمه، فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول، فيجب أن تخلو تمامًا من المسلمين مرة ثانية.. هذه هي فكرتهم الحقيقية، وأوروبا كلها تميل إلى هذه الفكرة، ولما افتتح البلقانيون سلانيك قال أحد وزراء الإنكليز: لا يمكننا إلا أن نفرح باسترجاع المسيحيين للبلدة التي بها ابتدأ انتشار النصرانية.

وإذا رجعنا إلى الحقائق ترى أن الحروب الصليبية وإن كانت غير مستمرة إلى اليوم تحت هذا الاسم، كما كانت في القرون الوسطى، فهي مستمرة بالفعل، بالروح نفسها، وإن كان قد تغير الاسم[1].

ولما تحالفت دول البلقان وأصبحت الحرب البلقانية وشيكة الوقوع ونقلوا عبد الحميد من منفاه في سلانيك إلى الأستانة قال عبد الحميد: «كم من مرة أوشك هذا الاتحاد أن ينعقد وسعيت كل سعي حتى منعته[2].

لقد كانت إرساليات التبشير، والسفارات، هي التي تحث النصارى على الثورة، وليس سوء الإدارة، ولعل المثل الأرمني الذي يورده شكيب يصلح لوصف أسباب الثورات في كل البلقان أيضًا.

يقول شكيب: «صار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص من خطوب الدولة ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم، وإن كانت قد درست معالم ذلك الملك، وكانوا هم تفرقوا شذر مذر.

وزاد هذا الادعاء عندهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم في أوروبا وأمريكا، فجميع هؤلاء الشبان الذين كانوا يتعلمون في الديار الأوروبية والأميركية

(١) المرجع السابق، ص٣٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٧٤.

كانوا يعودون متشبعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية، وكان الأوروبيون بواسطة رسالاتهم الدينية الكثيرة يذهبون إلى الديار التي فيها أرمن من تركيا ويفتحون المدارس والملاجئ، وكان جميع من يتعلم في هذه المدارس الأوروبية يخرج كارهًا للدول، عدوًا للمسلمين، وذلك بسبب المبادئ التي كان الأوروبيون -ولا سيما القسس والمبشرون- يرضعونهم إياها من الصغر.

فأهم عوامل الشقاق الذي وقع بين الأرمن وبين سائر الرعية العثمانية كان هو التعليم في مدارس الأوروبيين، فأصبح غير ممكن تساكن الجنسين بعضهم مع بعض، وظهرت عند الأرمن نزعات شيطانية، ونزعات عدوانية تخالف ما كان عند آبائهم بتمامه، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم وبين المسلمين، ودارت الدائرة على الدولة في الحرب التركية الروسية[1].

وفي هذا الوصف ما يخفف من تبعة المذابح حتى عن الغوغاء أنفسهم، فإن الاستقذار كان يثير العامة كما أن فيه بيانًا لدور الطعنة التي وجهها الأرمن إلى الدولة العثمانية من الخلف أيام الحرب الروسية، وليست الهزيمة بسبب نوعية قادة عبد الحميد فحسب.

وإلى حلقة رابعة أخيرة في العدد القادم، إن شاء الله، نستوفي الكلام فيها عن السياسة الخارجية لعبد الحميد والدهاء الذي أبداه فيها، وعن سياسته العربية ومقدار التحريش الأجنبي في الثورة العربية.

(١) المرجع السابق، ص٣٢٤.

رد على مقال مجلة «العربي» (الحلقة الرابعة والأخيرة)
شهيد فلسطين الأول عبدالحميد[1]

والحديث عن سياسة «فرق تسد» الداخلية التي اتبعها عبد الحميد تجاه مذاهب النصرانية المختلفة عن السياسة الخارجية لعبد الحميد، رغم وجود بقية لحديثنا عن سياسته الداخلية، ذلك لأنه اتبع نفس سياسة التفريق بين الدول الكبرى الطامعة فيه.

سياسة الجذب الوقتي:

وأحب أن أسميها «سياسة الجذب الوقتي» بدلًا من التفريق، فإنها كانت تعتمد بصورة أساسية على الاستفادة من التعارض المتوالي بين مصالح الدول الكبرى، فيقدر لكل مرحلة موقفًا نسبيًّا في الميل مع طرف من الأطراف، تبعًا لتبدل ميزان قوى تلك الدول، ولم يكن عبد الحميد بالمنحاز انحيازًا دائمًا مع كتلة معينة.

ويدَّعي بيهم أن تمكن عبد الحميد من الاستفادة من هذا التضارب الأوروبي لصالح الدولة العثمانية إنما هو «قول متفق عليه» بين المؤرخين، وأنه: «استطاع بدهائه أن يمد أجل «الرجل المريض» طيلة ٣٣ عامًا وهو يعلق على الزمن كبار الآمال».

لكن كاتب مجلة العربي لا يروق له ذلك، فأجهد نفسه في تصوير عبد الحميد كصنيعة لسفراء الدول الكبرى، ويستدل على ذلك بمجالسته إياهم، كأن الكاتب يتحدث عن فرد مغمور من عامة الناس يتملق السفراء ويعرض عليهم استعداده، للعمالة!

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٢)، ٢٠ رمضان ١٣٩٣هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣م، ص٢٠-٢٣.

ولم لا يجالس السلطان سفراء إنكلترا وفرنسا وكلتاهما إذ ذاك طرف قوي مخاصم لروسيا، وتخشيان وصول نفوذ القيصر إلى البحر الأبيض وتهديده لمصالحهما الواقعة آنذاك أو المحتملة التي يخططون لها؟

أو ليس من تمام الحكمة أن يستفيد من المعسكرات العالمية المتناحرة؟

أو ليست السياسة القومية العربية المعاصرة تعتمد على الاستفادة من مثل هذا الصراع؟

ومطالعة التاريخ الصحيح ترينا أن الزحف الروسي الكبير الضخم الثاني نحو الآستانة في بداية حكم عبد الحميد، والذي جمع له القيصر كل قوة روسيا وحلفائها ورومانيا، لمَّا أصاب نجاحًا، لم يوقفه إلا التدخل العسكري الإنكليزي، لا تثبيتًا للسلطان، ولكن لأن مصالح الإنكليز تقتضي حرمان الروس من الإطلال على البحر الأبيض، فكان موقف الإنكليز هذا مثل موقفهم الأول في حرب شبه جزيرة القرم أيام أبيه، وإن كان هذا الموقف من ناحية أخرى يؤدي إلى استفادة الإنكليز من هذا الضغط الروسي في أنحاء أخرى، فهي تدافع عن الآستانة خوفًا من وصول الروس إلى البحر الأبيض، ومن باب آخر تشارك فرنسا في احتلال أجزاء من بلاد الإسلام، مما يخضع للحكم العثماني أو لا يخضع، مغتنمة أثر الضعف الذي أحدثته حروب روسيا في كيان الدولة العثمانية، ولم يكن عبد الحميد خائنًا ليقف مكتوف اليد، ولولا هذا الضعف لكان له معهم نزال.

يقول شكيب: «وإذا نظرنا إلى حروب الروسيا نجد أنها كانت تقدم رجالها وأموالها، وتنفق النفائس والأنفس في سبيل غيرها.

فاستقلال اليونان، والجبل الأسود، والسرب والبلغار، والرومانيين، واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك، واستيلاء فرنسا على تونس، واحتلال الإنكليز لوادي

النيل والسودان، واحتلال إيطاليا للإريتري ثم لطرابلس، وبسط إنكلترا حمايتها على لحج وحضرموت وظفار وسلطنة عمان، وجزيرة البحرين ومدينة الكويت ونزولها في جزيرة قبرص، كل ذلك من نتائج الضعف الذي أوقعته الروسيا بتركيا، فالروسيا كانت تطبخ والآخرون كانوا يأكلون»[1].

نعم، الشيء الوحيد الذي فعله السلطان بعد ذلك هو أنه أجر قبرص إلى الإنكليز ليتخذوها قاعدة حربية، وكان مضطرًا إلى ذلك كموقف سياسي بعد أن بات الخطر الروسي يهدد الآستانة نفسها، وبعد أن أعانه الإنكليز معاونة عظمى في رد الروس، وإلا فإن نفور السلطان من الإنكليز كان عظيمًا لما حذوا حذو روسيا في الاقتطاع من جسم دولته.

يقول شكيب: «وفي زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثة الجُلَّى، وهي احتلال الإنكليز لمصر، وبسببها نفر السلطان من إنكلترا نفورًا شديدًا، وصار الإنكليز يعملون بكل الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية»[2].

وهذا هو الذي حدا به إلى التحول نحو ألمانيا لمَّا وصلت علاقاته مع الإنكليز إلى طريق مسدود.

فبعد احتلال الإنكليز لمصر أراد السلطان «إجراء تحصينات في القلاع التي إلى الغرب من العقبة، فاعترضت إنجلترا على الدولة في ذلك، فأصر السلطان على التصرف ببلاده بحجة أنها بأجمعها بلاد عثمانية، فاستبد الإنكليز في هذه المسألة استبدادًا شنيعًا، وأنذروا الدولة بالحرب، وكأن مصر أصبحت في نظرهم من جملة الإمبراطورية البريطانية، فازداد السلطان عبد الحميد شنآنًا لبريطانيا العظمى، وكان

(١) التعليقات، ص٣١٦.
(٢) المرجع السابق، ص٣١٦.

ذلك من جملة أسباب موالاته لألمانيا، وانعقدت بينه وبين الإمبراطور غليوم الثاني مودة أكيدة صارت تزداد بمرور الأيام، وعول السلطان على ألمانيا في تدريب جيشه، واستدعى فون غولتس من قواد ألمانيا، ليكون على رأس المدرسة العسكرية في الآستانة، واستجاد غيره من أهل العلم والصنعة في ألمانيا واستخدمهم في حكومته، وكان يرسل كل سنة عددًا كبيرًا من الطلبة إلى ألمانيا، وبقي السلطان عبد الحميد صديقًا للإمبراطور غليوم إلى نهاية ملكه»[١].

ومع ذلك بقيت الدولة العثمانية غير قادرة على مناوشة الإنكليز وإخراجهم من مصر وغيرها، فقد «كانت مشكلاتها الكثيرة، وعداوتها مع الروسيا، تقيدها تقييدًا شديدًا من الاندفاع في عداوة إنكلترا»[٢].

«وبقيت الحال على غير استواء بين إنكلتره والدولة العثمانية مدة سلطنة عبد الحميد كلها، وذلك كله بسبب مصر»[٣].

فهذه إلمامة سريعة بمجرى السياسة الخارجية لعبد الحميد التي لم يتجاوز فيها منطق الضرورة وعرف الحكومات الحاضرة، فكان يجذب هذه الدولة إلى مساعدته وقتيًّا بإغراء وتقديم منفعة تشكل مفسدة صغيرة ليتمكن من دفع مفسدة كبيرة متمثلة في تحالف الدول الأخرى ضده، ثم يغير موقفه ثانية بتغير سياسات هذه الدول، ولم يعرف التاريخ السياسي مصلحة محضة، ولا مفسدة محضة، وإنما هو تعارض دائم بين المصالح والمفاسد، والمغانم والمغارم، والكسب والخسارة. والحاذق من يوازن بين هذه المتعارضات، ويتحمل المفسدة اليسيرة لدفع أكبر منها، ويستسيغ تفويت مصلحة صغيرة لنيل أعظم منها.

(١) المرجع السابق، ص٣٢٠
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

الميول العربية تطغى على عبدالحميد:

ولا بد من رجعة إلى بحث السياسة الحميدية تجاه العرب، والعوامل الكامنة خلف ردود الفعل العربية لأعمال الذين خلفوا عبد الحميد في الحكم، لندرك مدى الضرر العظيم الذي أصاب العرب من جراء خلع عبد الحميد، وغفل عنه كاتب العربي وأمثاله.

ولئن كان العرف السياسي العالمي والمنطق الفقهي الإسلامي يعطيان عبد الحميد ويسوغان له جرأة في الاجتهاد السياسي، وفق موازين تعارض المصالح والمفاسد، لكونه حاكمًا مسؤولًا، فإنهما من باب آخر يضيقان على المحكومين نوع تضييق، ويدعوانهم إلى حذر شديد من الوقوع في خطأ في تحديد علاقاتهم بالحاكم من تأييد أو معارضة، وما حدث بعد عبد الحميد من نكسات وتورطات في سياسة خلفائه وورثة حكمه يعطينا صورة واضحة تلوم عقلاء العرب أيام عبد الحميد، وتبين أنهم لم يركنوا إلى هذا الحذر، ولم يتقنوا الاجتهاد في موضع تعارض ظاهر بين المصالح والمفاسد التي تكتنف المحاولة الانقلابية على عبد الحميد، وأنهم كان يسعهم تحمل نواقص الحكم الحميدي، ورفض الفكر الانفصالي الذي بدأت تبثه دوائر التبشير وجامعة بيروت الأميركية، والإشارة الواضحة التي كانت توجب على العرب مضادة الانقلاب هو ذلك الانفتاح الحميدي المتدرج عليهم في التوظيف، والعناية المتزايدة ببلادهم، وهو انفتاح مقبول منه وإن أرجع بعض أعدائه سببه إلى عداوة العناصر الأخرى لـــه، وليس على المسلم المتشدد من ناحية أخرى حرج في قبول هذا التعاون ذي الأساس العربي، فإنه خال من المعنى القومي الضيق، متصل بحقيقة كون العرب أقدر على فهم الإسلام الصحيح والعدل به، في وقت غلبت فيه لكنة الأعاجم ونفخت تربيات المتأثرين بالغرب في روح الكثيرين من غير العرب معاني الشعوبية وأحيتها جذعة.

وكاتب العربي قد أشكل عليه فهم هذه الطبيعة المتدرجة للانفتاح الحميدي تجاه العرب، فراح يتساءل عن صدر أعظم كان عربيًّا.

والحقيقة أن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي وإن كان شركسي الأصل كما يقول الأستاذ الزركلي في قاموسه الرائع عن الأعلام، إلا إنه، في الموازين القومية، يعتبر عربيًّا، لأنه هاجر إلى تونس شابًّا صغيرًا، وعاش بها، وتقمصته الروح العربية، فنزع منازعاتهم، حتى إن أغلب الكتاب يظنونه عربيًّا.

ولو تجاوزناه لصادفتنا جمهرة عربية تحيط بعبد الحميد.

رأس هذه الجمهرة: الشريف «أحمد عزت باشا الفاروقي»، موصلي ينتهي نسبه بتواتر، يشهد القضاة فيه، إلى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وكان أديبًا ألمعيًّا، وموظفًا كبيرًا من موظفي الدولة، فقربه عبد الحميد وجعله «مير ميران»، أي: أمير الأمراء في بلاطة[1]، وهو أهم منصب في الدولة كما يقول الأستاذ بيهم، و«أن نفوذه المستمد من السلطان كان يجعله الرجل الأول في السلطنة»، أي أهم من الصدر الأعظم أيضًا.

ويعدد الأستاذ بيهم هؤلاء العرب، فيذكر منهم غير الفاروقي: «شفيق بك المؤيد، المفوض في الديون العمومية، وشفيق بك الكوراني، رئيس الضابطة، وسليم بك ونجيب بك ملحمة، اللذين أدركا رتبة الوزارة، وشكري باشا الأيوبي، ناظر الأعمال العسكرية، وكل هؤلاء من سوريا ولبنان.

وقرب إليه أيضًا من العراق طالب بك النقيب، وأحمد باشا الزهير، وعينهما أعضاء في مجلس شورى الدولة، وهو فضلًا عن ذلك رفع رتب بعض ضباط العرب إلى درجات عالية، فكان في عداد ياورانه، أي المرافقين: الفريقان محمد باشا ومحيي الدين باشا، ولدا الأمير عبد القادر الجزائري، وفؤاد باشا المصري، كما كان من أركان

(١) حيلة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للبيطار (١/ ٢٥٥).

أساتذة المدارس الحكومية العسكرية المشير شفيق باشا وشقيقه وهيب باشا، وهما من قرية المتين بلبنان» ، وظل الأستاذ بيهم يستطرد فذكر بعض العرب من أساتذة جامعة الآستانة، والعرب الذين زوجهم عبد الحميد من أميرات أسرته.

فأي دلالة على الانفتاح أكبر من هذه؟

وحجة عبد الحميد في تدرج الانفتاح والعدول عن التوسع السريع كما يرغب الكاتب يكشفها الأستاذ بيهم، ويوضح أن تقريب عبد الحميد للعرب: «كان له رد فعل عند شباب الأتراك العنصريين، فكان بالتالي في عداد الأسباب التي حملتهم على الخروج عليه». فهو تدرج يراعي ردة الفعل الشعوبية التي بدأت تغذيها مدارس التبشير، وتحريشات اليهود والماسون، ودوائر الفلسفة الكونتية الفرنسية، كما أسلفنا.

وقد صاحب هذا الانفتاح ما أحب أن أسميه «الاستدراك العمراني الحميدي في البلاد العربية»، فإنه أولاها عناية تكفر عن تقصير سلفه.

ففي نطاق هذه العناية كان مد سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة، وهو مشروع هندسي جبار في مثل ذاك الوقت، أراده عونًا له في تسهيل الحج لشعوب الشمال وتحقيق المقصد الشرعي في ترويض المشاعر الانفصالية بواسطة اجتماعات الحج، وتوطيد معاني الجامعة الإسلامية التي بدأ الدعوة إلى إحيائها، ولم يكن هذا المشروع لمجرد تسهيل التحرك العسكري كما يدعي أعداؤه.

وأصرح من هذا: منقبته المجهولة في القلاية بري العراق، فإنه استقدم المهندس الفرنسي وخبير الري العالمي مسيو شونديفر، أجرى مسحًا عامًا لمشاكل الري في وسط العراق لا يزال هو الأصل للدراسات الحاضرة، وعلى موجب تقاريره بنى عبد الحميد سدًّا إروائيًّا جبارًا على نهر الفرات مقابل بغداد اسمه «سد الهندية» مع منظومة قنوات تتبعه أعادت إلى أرض السواد سوادها بعد اصفرار، ولا يزال هذا السد

قائمًا حتى اليوم ينفذ مهمته الإروائية، وقد زرته حين زيارتي للعراق، ورأيت الجهد الهندسي الذي فيه، بالنسبة إلى ذاك الوقت، يعادل الجهد الذي تصنع له حكومات اليوم أكبر الدعايات، ولكن أحدًا من العرب لا يعرف شيئًا عـن سد الهندية لأن عبد الحميد هو الذي بناه!

فإذا أضفنا إلى هذين المشروعين مدارس ومساجد ومرافق كثيرة منتشرة في البلاد العربية تعلوها الطرة الحميدية، لأدركنا مدى الضرر الذي جلبه خلع عبد الحميد على العرب.

دور الإنكليز في تأليب العرب:

وقد جفل كاتب العربي جفلة شديدة من قول الأستاذ سعيد الأفغاني في أن العدوى القومية قد سرت إلى العرب، وراح يبين أصالة القومية العربية بإطناب.

والواقع أن يد التحريش والإعانة الإنكليزية قد مدت فعلًا إلى ثورة الشريف حسين بإجماع المؤرخين، وأعمال لورنس جزء منها، وهذه الثورة وإن كانت قد حدثت بعد خلع عبد الحميد بسنوات، إلا أن التحضير لها يرقى إلى زمنه، وكذلك تأثر رواد القومية العربية بالأفكار الغربية وتعاونهم مع اتجاهات السفارات الغربية يعودان إلى زمن عبد الحميد وإن لم يظهرا إلا بعده، فيكون كلام الأستاذ الأفغاني في مقاله صحيحًا.

وشكيب أرسلان يثبت حصول هذه العدوى، ويبين أن سوء الإدارة لم يكن وحده هو الباعث على الثورات، بل التدخل الأوروبي أيضًا، ويقول: «إن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هي الجامعة الدينية، ولولاها لكانت هذه السلطنة تفككت منذ قرون، ولكن سوء الإدارة في الداخل من جهة، ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى، حملا الكثيرين من العرب

والأرناؤوط بنوع خاص على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية»[1].

ويذكر شكيب أن هذه الدسائس بدأت أول مرة في صفوف نصارى سوريا، فيقول: «ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحال تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوروبا، وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم الشوري في تركيا، وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضًا في هذه الحركة»[2].

ورامزور يصرح باسم أحد كبرائهم، وهو المسيحي البيروتي خليل غانم، كان نائبًا في البرلمان التركي، ثم هرب وأنشأ في باريس صحيفة تركية الفتاة[3].

ثم يصور شكيب اتساع التأثير الخارجي في الشباب العربي، ويصرح بأن عقلاء العرب كانوا يدركون وهم تحت حكم الاتحاديين أن انفصالهم يوقع بلاد العرب في حكم دول الاستعمار، ويذهب إلى وصف ما حدث من جهلائهم بأكثر من مجرد التأثر والعدوى التي استبعد كاتب العربي حصولها، ويذكر أنه استجلاب لبعضهم بالنفع، أي العمالة، ويقول:

«وهذا النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهي، بل كان يزداد بضعف الدولة، وقد كان يظهر في مواقع كثيرة، ولكن المانع الوحيد من انفجار بركان الشر بين الفريقين هو الخوف على بيضة الإسلام لا غير، إلا أن الإنكليز تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلاب كثير من ناشئة العرب، منهم من استجلبوهم بالمنافع الخاصة، ومنهم من استجلبوه بطريقة الإقناع، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بني العباس، أو دولة بني أمية مثلًا، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم، وعلى

(١) التعليقات، ص٣٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص٣٤١.
(٣) تركية الفتاة لرامزور، ص٥٥.

عمارة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ولا عمارتها، فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلبًا وقالبًا متوقعين لذلك أول فرصة.

ولا يمكن أن يقال إن هذا كان رأي الجمهرة من الأمة العربية، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفًا من حكم الأجانب، واختيارًا لأهون الشرين.

نعم لو كانوا على يقين بأن الدول الأوروبية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط أيديها إليها بالغصب والتقسيم لكانوا يرجحون بدون شك الانفصال عن الترك، والاستقلال بدولة لأنفسهم، ولكن عقلاء العرب كانوا لا يجهلون مطامع الدول الأجنبية في بلادهم، ولم يكن يخفى عنهم تصميم أوروبا على تقسيمها، وأنه لا عهد للدول المسيحية بإزاء المسلمين مهما عاهدت، ولم يكن يشذ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض من لا تجربة لهم، أو من لا تهمه الجامعة الإسلامية في كثير ولا قليل.

ومنهم من كان الإنكليز يستخدمونهم في بث دعايتهم كأجراء لا غير»[1].

وقبل أن يشتاط كاتب العربي غضبًا على شكيب وصراحته في هذا النص نذكره بأنه سليل ابن ملك العرب النعمان بن المنذر وليس بالذي يكره العرب، ولكن الحق كان عنده أحق أن يقال، كما نذكر القراء بأن فكرة الاستقلال عند عقلاء العرب وترجيحهم لها عند ضمان عدم نكث الدول الأوروبية -كما تحدث عنها شكيب هاهنا- إنما تأكدت في زمن الاتحاديين العنصري فحسب، وكلامه عن عهدهم، وأما زمن عبد الحميد فلم يكن يفكر بمثل ذلك إلا العميل.

(١) التعليقات، ص٣٤١.

وقضية العمالة يؤيدها الأستاذ بيهم أيضا، فيقول إنه: «كان من الطبيعي أن يلجأ السلطان إلى الشدة في سبيل إخماد الثورات العنصرية التي كان يضرمها الطامعون بمملكته، وكان من الطبيعي أيضًا أن يتخذ هؤلاء من أعمال الشدة قواعد تنطلق منها سهام التشهير به لتصويره بصورة الفتاك الظالم.

ولهذا القصد لم يكتفوا بالعناصر المسيحية فحسب في أوروبا وآسيا، وإنما استأجروا بعض الأتراك وبعض العرب، وأتوا بهم إلى عواصمهم»

وحتى في زمن حكم الاتحاديين، لم تكن عنهجية جمال باشا السفاح وإسرافه في الدماء هي الباعث على ثورة الشريف حسين كما قد يتوهم البعض، وانما يرجع شكيب ذلك إلى اتفاقه مع الإنكليز قبل الدماء والمشانق، ويجزم بذلك ويقول:

«أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن ثار الشريف على الدولة ولا انشق العرب على الترك، فليس بصحيح، إذ علاقة الشريف بالإنكليز وتحفزه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلى أيام السلطان عبد الحميد نفسه، الذي كان يعلم ذلك.

ولما أخذ الاتحاديون على يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميرًا على مكة مكان الشريف علي قال لهم: إنني أبرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل، لأنني أعرف حقيقته.

وقد كانت مداخلات الشريف لإنكلترا في أمر الثورة من قبل الحرب العامة»[1].

«وعلى كل حال فليست قسوة جمال في سورية وقتله من قتل هما سبب ثورة الشريف، وعلى فرض أن جمالًا لم يفعل ما فعله، فإن الثورة كانت واقعة، وكان ما ظهر من نفور الأهالي من الترك، وشماتة كثير من العرب بالترك يوم دارت الدائرة

(١) حاضر العالم الإسلامي، وهناك زيادة إيضاح لصلة الشريف حسين بالإنكليز خلال تعليقات شكيب.

على ألمانيا وتركيا، لا بل فرح كثيرون من العرب، لا سيما فريق الشبان منهم، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية: النصارى الكاثوليك بانتصار فرنسا، والنصارى الأرثوذكس بانتصار إنكلترا، والمسلمين أيضًا من ذلك الحزب الممالئ للشريف، بظفر الحلف العربي الإنكليزي.

كل هذا كان وقع كما وقع سواء قتل جمال من قتلهم أو لم يقتلهم.

ينبغي لنا أن نعترف بذلك إن كنا نتوخى حقيقة وتاريخًا[1].

حقيقة القومية بين التمويه والتطبيق:

فهذه النصوص تقطع بأن خروج القومية عن معناها الصحيح في أن يتحرى المرء مصالح قومه وتعديها إلى الاستعانة بالكفار ومعاداة بقية المسلمين إنما هي أكثر من عدوى اجتاحت العرب بعد اجتياح التيارات القومية لأوروبا، وأنها كانت تصحيحًا مغلوطًا لنواقص عبد الحميد المدعاة، ولكن من دعاة القومية من كان مخلصًا في قرارة نفسه، لكنه ساذج يعاني من الفراغ، فملأت القومية فراغه وظنها العلاج، ومنهم من كان أجيرًا للأجانب.

وقد انتقل كاتب العربي إلى مغالطة كبيرة عند تعريفه القومية العربية ولم يكن صريحًا، فادعى أنها «توحيد الوطن العربي وتوحيد الأمة» وكتم ما في ثناياها من ترك الحكم بالإسلام الذي هو لازمها ومقتضاها، وتاريخ التطبيق القومي في البلاد العربية بعد عبد الحميد وإلى الآن يثبت هذا الجانب الأساسي في مفهوم القومية العربية، ولا تجد قوميًّا ينكره إلا من باب التمويه لعدم إجفال العرب الذين يرون وجوب الحكم بالإسلام ولا يعملون عملًا حركيًّا لاستئنافه، فيخدرونهم بالمغالطة،

(١) المرجع السابق.

ويكسبون مسالمتهم للأحزاب القومية، لقصور وعيهم في إدراك الصلة التامة بين كل دعوة ودعاتها، ويجعلونهم يتصورون إمكان تطبيق إسلامي على يد داعية قومي.

إن تجريد الحكم، وجعله علمانيًّا، من لوازم القومية العربية التي يشيد الكاتب بمشاركة النصارى في تثبيتها، ولا يعقل أن يشارك مسيحي في تثبيت دعائم حكم إسلامي، ولا يعقل أيضًا أن تكون الصفة المسيحية هي الغالبة على منظومة القيادات القومية لو لم تكن القومية محققة لمصالح المسيحية.

أما أن القوميين يدعون أنهم لا يلحدون فإن ذلك غير كاف لوصفهم بالإسلام، فإن الإسلام عقيدة ونظام، وخلق وأحكام، ولا يوصف المرء بكمال الإسلام حتى يكون موحدًا خلوقًا ساعيًا إلى تطبيق أنظمة الإسلام السياسية والاقتصادية والقانونية، ومن أنكر حكمًا من جزئيات الإسلام معلومًا بآية أو حديث متواتر كان كافرًا بإجماع الفقهاء ولو جهر بالتوحيد.

لكن كاتب العربي لا يريد رؤية هذه المفاهيم الإسلامية التي ينطلق منها من يخالفه، فيسارع إلى الافتراء، ويعلن، بعيدًا عن أدب النقد: «إن أولئك المهاجمين إنما يحققون أفكارًا ليست بعيدة عن مصلحة العدو، وإن كثيرًا من الفئات التي حاولت أن تتمسح بالدين في كثير من الحركات إنما كانت تسير والعدو في خط واحد للتأثير على الروح المعنوية وخلق الفتن الطائفية في الأمة».

يسمي التمسك بموازين الإسلام فتنًا طائفية.

وحجته أن الشعور القومي قديم في العرب، وأن المتنبي استوحش لما دخل ديار خراسان ولم يعد يسمع لسانًا عربيًّا.

وأي مخلص لا يستوحش بعد الفتنة الشعوبية الحاقدة التي أضرمها أبو مسلم الخرساني وقتل خلالها كل ناطق بالعربية؟

أو حجته أن فلانًا اشتاق إلى بلاد العرب لما بعدت عنه، كأن المرء لا يشتاق إلى بلاده التي نشأ فيها؟

وهل كان بلال الحبشي إقليميًّا لما هاجر إلى المدينة واشتاق إلى جبال مكة ووديانها ورفع عقيرته قائلًا:

ألا ليت شـــعري هل أبيتن ليلة بـــواد وحولي إذخـــر وجليل

وهـــل أردن يومًا ميـــاه مجنة وهل يبدون لي شـــامة وطفيل[1]

وإذا كان المسلمون الأوائل العرب قد فهموا حدود بلاد العرب على أنها حدودهم الدولية فلازم ذلك أن نتهم اندفاعهم في الفتوح لما بعد تلك الحدود على أنه من قبيل الاستعمار الظالم، وذلك ما يأباه الكاتب، ولكنها العقيدة العالمية التي لا تعرف دمًا ولا لونًا ولا ترابًا، وإن ظل الحنين إلى الوطن ملازمًا لكل البشر.

وأغرب من هذا أن يستدل الكاتب على أصالة القومية العربية ببيت شعر ذكر عنترة فيه لفظ العرب وبأسفه على عدم حضور معركة ذي قار!

والأولى أن نذكر الكاتب بطبيعة التطبيق العنتري للقومية العربية، فعنترة يعتقد القومية، لكنه اعتقاد لسان مجرد، أما سيرته اليومية المخلدة في أشعاره لتبديه محاربًا لقبائل العرب، مغيرًا عليها، بل ويتخير أول المعركة أضعف الأعداء منظرًا، فيهجم عليه، ليرتهب القوي، كما سئل هو وأجاب عن سر رهبة الغير له، ونعتقد أن الكاتب أرفع من أن ينسب بعض مظاهر الخلاف العربي الحاضر إلى هذا المذهب العنتري الأصيل!

وجدير أن نذكر أن القوميين الأتراك بالمقابل كانوا يفهمون القومية بعيدًا عن

(١) صحيح البخاري (٥/ ٨٤).

الإسلام أيضًا، وكانوا يربون الشباب على حب جنكيز خان سفاح الشعوب، وكان شعارهم عدم التدين، وإهمال الجامعة الإسلامية.

يقول شكيب: «شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، فتكون عندئذ واسطة لا غاية، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا: نحن أتراك فكعبتنا طوران وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم، وينظمون للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها»[1].

وبهذا تتضح الأسباب الفكرية وراء خلع عبد الحميد، ويبدو صواب عبد الحميد في نبذ القوميات والتوسط بينها، ذلك التوسط الذي كان يمثل الأخوة الإسلامية التي يحملها الحزب الإسلامي آنذاك، والتي وصفها شكيب أرسلان شعرًا يوم استعاد مدينة أدرنة من أيدي البلغار زمن الاتحاديين فقال:

فمن مبلغ البلغـــــار أنا إلى الوغى وإخواننا الأتـــــراك نزحف توأما

وأن جميع العـــــرب والترك أمة حنيفيـــــة بيضاء لن تتقســـــما[2]

شبهات واهية

وبهذه التقريرات يبدو نشاز شبهات أخرى يحاول الكاتب إثارتها.

فهو يعيب على عبد الحميد جلوسه يوم خَلْع أخيه مراد مع سفيري إنكلترا والنمسا، ونسب للسفيرين أنهما أشارا بخلع مراد لميوله الدستورية.

فأما جلوسه مع السفيرين يوم تنصيبه بعد أخيه فما هو بالرجل العادي، بل

(١) حاضر العالم الإسلامي (١/ ١٥٩).
(٢) التعليقات، ص٣٩٢.

المرشح للخلافة، فأي حرج عليه في أن يجلس مع سفيرين؟ أو لم يذكر أنور السادات في مذكراته أن رجال ثورة يوليو اجتمعوا يوم الثورة بالسفير الأميركي همفري؟

وأما أن مرادًا يريد الدستور فالمشهور أن إعلانه كان مطلبًا نصرانيا تؤيده إنكلترا كما يقول شكيب ورامزور.

ومع ذلك فلم يكن الدستور هو سبب خلعه، بل يذكر شكيب جنونه واتفاق رجال الدولة على تنحيته، فيقول: «وأما السلطان مراد فما مضت عليه إلا ثلاثة أشهر في السلطة حتى حصل له اختلاط في عقله، فاتفق رجال الدولة على إقصائه عن السلطنة ونصب أخيه السلطان عبد الحميد مكانه»[1].

ومن شبهاته أنه يتهم بعض ثقات المسلمين الذين انضموا إلى درويش وحدتي في حركة الوحدة المحمدية التي سعت لإعادة عبد الحميد بأنهم: «ينتحلون لأنفسهم صفة رجال الدين». بينما يثبت شكيب أنهم من العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية فيقول:

«ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنج، ويتساهلون بأمور الدين، ويتكلمون أحيانًا بما يخالف الشرع: مال جمهور العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الاتحاد والترقي، وألفوا تحت رئاسة الشيخ درويش وحدتي عصبة سموها: الوحدة المحمدية»[2].

أي أن الأمر لم يكن كما ذكر الكاتب، وإنما كان هناك معسكران فكريان يتعارضان، وأن هناك ما يوجب ثورة كل مسلم ملتزم على المنزع الإفرنجي الجديد.

(١) المرجع السابق، ص٣١١.
(٢) المرجع السابق، ص٣٤٢.

إسفاف الكاتب والمجلة:

ويبلغ الكاتب ذروة إسفافه فيطعن في صحة نسبه وأنه ابن زنا، ويقول: «فإذا تركنا ما كان يتردد في أبهاء قصور آل عثمان عن الفتى عبد الحميد من أخبار متناقضة عن صحة نسبه»، أي أنه نغل.

وهذا إسفاف كان الكاتب في غنى عنه، ولا يعذر لكونه استند في ذلك إلى كتاب لم يقل لنا اسم مؤلفه، لأن مثل هذه الأخبار تشيع زورًا في معظم الأجيال عند الاختلاف السياسي وقد يكون مروجها من اليهود أو نصارى البلغار واليونان.

ولكن يبدو أن هذا هو مبلغ إجادة كاتب العربي للغة الدبلوماسية التي ربما يدعي حذقه فيها.

سفير مسلم يخاطب خليفة المسلمين بأنه نغل، لكنه إن ذهب إلى صليبي حاقد، أو ماركسي ملحد، فإنه يخاطبه بألقاب الفخامة والمعالي!

ومجلة العربي شريكة في الإسفاف ولا شك، مع أنها تدعي حيادها الفكري وعدم مسؤوليتها عن آراء كتابها، ولم يكن لها إغماض عينها عن زلة الكاتب، إذ لو أن مجلة إسلامية اتهمت كاتباً من كتاب الوجودية بأنه نغل لسارعت مجلة العربي تقدم لنا افتتاحية عن فحش الأساليب الصحفية.

أو بعض حكام «إسرائيل» لأنشأ لنا كاتب العربي مقالة يؤكد فيها بناء على خبرته الدبلوماسية الضرر العظيم الذي يلحق قضية فلسطين في الأوساط العالمية من جراء مثل هذا الإسفاف.

ولكن يبدو أن المسألة هنا تختلف، طالما أن المسبوب هو عبد الحميد، وأن العرض مباح طالما أن صاحبه غير عربي!

أخطاء عبدالحميد:

وعلى كل، فإننا لا نجرد عبد الحميد من الخطأ، فقد ذكر شكيب إهماله للتدريب العسكري[١]، وإهمال الأسطول[٢]، وبعض الآراء الحربية التي أشار بها على قادة الجيش العثماني المقاوم للروس، وكلها لا تبرر خلعه والتحالف مع اليهود والماسون، ولنا عليه بعد هذا تنفيذه لبدعة بناء القباب والمساجد على قبور الصالحين، ولا يمكننا مؤاخذته لتقليده فتاوى علماء دولته، وهو خطأ من حقنا نحن دعاة الإسلام أن نذكره لا غيرنا، وكذلك توثيقه لأبي الشامات، وهو الذي أرسل له عبد الحميد رسالته التي نشرها الأستاذ الأفغاني، فإنه يعتقد عقيدة وحدة الوجود، كما يبين تعريف الزركلي له المنقول في هوامش مقالة الأفغاني، وهي عقيدة باطلة ولا شك تضع معتنقها في دائرة البدعة الغليظة جدًّا.

وبمقابل هذا: يجب أن تنظر إلى عذر لعبد الحميد إزاء قلة الرعاية الحكومية للجيش والأهالي سنة خلعه، والتي عجلتا بخلعه، فإن «سنة ١٩٠٧م كانت سنة أزمة اقتصادية في الإمبراطورية العثمانية» كما يقول رامزور[٣]، أي سنة جفاف.

وبعد..

نعم.. وبعد:

«أليس عجيبًا أن سوءات الحكم العثماني في مرحلة احتضاره سجلت بتفصيل في كتب تاريخنا، ولم يخطر على بال مؤرخينا المدرسيين فيما عرضوا من وحشية الولاة الأتراك أن يقارنوها بمدينة معاصريهم من تجار الأفيون وساحقي الشعوب

(١) المرجع السابق، ص٣٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص٣٨١.
(٣) تركيا الفتاة، ص١٤٥.

ولصوص الأوطان؟»[1].

أو ليس عجيبًا أن يلتقط «مؤرخو الأدب قصائد الجمهرة من الشعراء العرب في رجم السلطنة والتمثيل بجثة الرجل المريض! والتغني بفجر الحرية بعد ليل الاحتلال التركي والاستعباد العثماني! ودخلت قصائدهم الغراء في كتب الأدب المدرسي تراثًا يعتز به في الأدب القومي، ويحفظه الطلاب جيلًا بعد جيل، دون أن يرتبط شيء منه بخبر الصفقة اليهودية؟»[2].

وأخيرًا..

أخيرًا أرجو من سعادة السفير أن يتراجع عن آرائه مستهديًا بهذا البيان الشافي لخفايا الصراع بين عبد الحميد وأعدائه، وألا يزيد سعادته ما لحق بالأمة من تعاسة بعد تنكرها لعبد الحميد، أتراكها وعربها.

وأنتهز فرصة هذا الرد السريع من غير مختص لكي أوجه الدعوة إلى أولي الفضل من الباحثين أن يساهموا في جلاء حقائق تاريخ عبد الحميد، وأخص بالدعوة الأستاذ الدكتور محمد حسين في مصر، والأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في دمشق، وآمل أن يتحفنا الأستاذ محمد جميل بيهم بمقال أكثر صراحة وشمولًا.

ولا زلت أسمع أن بالعراق من اختص بدراسة الفترة الحميدية، كالأستاذ الدكتور حسن العطار، وأ.د. عبدالرحمن الحجي، وأ. كاظم المشايخي، وإليهم أتوجه راجيًا أن يسرعوا في نشر أبحاثهم، أو الكتابة إلى مجلة المجتمع الغراء بما يقر عين كل محب لعبدالحميد.

(١) من مقال: قيم في صحيفة الأهرام للدكتورة بنت الشاطئ.
(٢) المرجع السابق.

ولا بد أيضًا من تحية ثانية إلى الأستاذ العلامة سعيد الأفغاني الدمشقي، لمبادرته الشجاعة، ولكلماته في آخر مقاله التي جعلتها عنوانًا لمقالي.

رحمك الله أيها الشهيد الأول في معركة فلسطين.

التأويل المستدرج[1]

ما برح مقدار إدراك معنى الأخوة يميز ويفاضل بين الدعاة، ولن يرتقي داعية إلى أوج الوعي إلا إذا اعتبر إبراز خُلق الأخوة الإيمانية وتعليم موازين الإخاء هدفًا أساسيًا من بين أهداف الدعوة الإسلامية، وإلا إذا أدرك أن إحلال هذا الخُلق في التعامل الواقعي بين المسلمين، وتجسيده في صورة جماعة عمل متآخية، يخول الدعوة ادعاء النجاح، ويمنحها لوحده مبرر الوجود حتى ولو لم تصب سرعة التأثير في ممارساتها السياسية، أو صد عنها جمهور سذج الناس صدودًا.

أخوة العمل لله:

إنها أخوة العقيدة التي يكفي تمثلها في فئة قليلة، تورثها بالتعليم إلى خلف يواصل إحياءها.

وإنها أخوة العمل التي تتخطى الألوان والأقوام، وتمزج العاملين معًا، لتفني خصائصهم، وتكون ثم سبيكة تجيب طارقها برنين واحد متجانس:

إن يبـــل مصطنع الإخـــاء فإننا نغدو ونســـري في إخـــاء تالد

أو يختلف مـــاء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمـــام واحد

أو يفترق نســـب يؤلـــف بيننا عمل أقمنـــاه مقـــام الوالد

إخاء ووصال وعمل.. نبضات تعني أمل الحياة.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٣)، ٢٧ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣م، ص٢٠-٢١.

ونغمات تسلي القافلة السارية نحو فجر جديد.

فمن عرف فضل الحادي، واستحلى الإنصات لنبضات قلبه، تشعره استمرارية الحياة حين سكون الجسد، لا شك يسوؤه التشويش، وتقطع لذته الهزة.

وبمقدار ما يكون إدراك مغزى الإخاء، وما يؤدي إليه من فقه الطاعة ساميًا، يكون تلبيس التشويش، وما يؤدي إليه من الافتراق معيبًا، ويذهب الواقف بإزاء كل منهما بنصيبه وحظه، هذا بسموه وما نال، وهذا بتيهه وما فقد.

ولقد قالها الشيخ حامد عسكرية ﷺ في إنفارٍ شوشوا على الإمام ﷺ، وأشار إليهم أن:

«هؤلاء لا خير فيهم، فقد فقدوا إدراكهم لسمو الدعوة، وفقدوا إيمانهم لطاعة القيادة، ومن فقد هذين فلا خير فيه في صفنا»[1].

بل وأكثر من مجرد حرمان الصف من خيرهم، فإن الفتنة إذا بدأت مبكرة في المجموعة العاملة، أو جددت وأحيت ما كان قد قطع من جذور فرقة قديمة، فإنها توفر مناخًا نفسيًا دائمًا في الأجيال اللاحقة يسمح بتكرر الافتتان، وربما عذر المقلد، وناء الرائد بإثمه، بما سن من بدعة تغري المتأخر وتستجيش.

بداية الفتنة تأويل:

وسبب ذلك أحيانًا أن القلب كالعين في إبصارها، فتجد عينًا لا تبصر البعيد، وأخرى لا تبصر بمجرد وجود ضباب طفيف أو غبار خفيف، فضلًا عن أن تكون في ظلام.

فإبصار القلب تابع لقوة الفقه ونور الإيمان ومقدارهما، وكلما كان الأمر

(١) مذكرات الدعوة والداعية، ص١١٣.

المختلف فيه من سياسة الدعوة لا يضبطه نص واضح، ويلزم فيه الرجوع إلى القواعد العامة وقواعد جلب المصالح وسد المفاسد وأبواب الشبهات.. كان استنباط الفقه فيه أصعب، والفتوى به تحليلًا وتحريمًا، أو استحبابًا وكراهة، أشد صعوبة، لأن التأويل له مجال في الحكم آنذاك، ولو نظرنا إلى فقهاء القرون الأولى لوجدنا أنهم ألزموا أنفسهم باحتياطات كثيرة في هـذه الأبواب من السياسة الشرعية، ومع ذلك أخطأ بعضهم وأتى بالغريب الذي يأباه جمهور الفقهاء، فكيف بنا نحن في هذا الزمن المتأخر؟

ثم أتم الإمام البنا ﷺ فقه الأوائل، فوضع أصولًا صحيحة لسير الدعوة ومراحلها، ومفاهيم عامة تحدد إطار الفكرة وأساليب التعبير، وتلبس الرعيل الأول الذين معه بكل ذلك، وبإرشاده: أطالوا مرحلة التربية، وجردوا الدعوة على أساس عقائدي، وابتعدوا عن التحالف مع الأحزاب، وحذروا أن يقعوا في هيمنة الكبراء، غير أن البعض دخلوا باب التأويل تدريجيًا، ومالوا عن التربية الأصيلة المعهودة إلى استعجال يضطرون معه إلى تساهل في توثيق الرجال، فأبعدتهم تأويلاتهم عن جوهر الدعوة الذي عرفت به، كما أبعدت سلفهم في صدر الإسلام عن جوهر الإسلام، مع غلبة الورع آنذاك.

ومثلما رأينا انتصار صاحب كل تأويل إلى تأويله حين أنكر عليهم جمهور التابعين والفقهاء، فنشأ القول بالقدر والتجهم والاعتزال والإرجاء والخروج، نرى اليوم تواصي المتأولة، ونشوء فقه غريب يجيز باسم مصلحة الدعوة تجهمًا في الوجه، وتهجمًا في اللسان، واعتزالًا للعمل، وخروجًا عن البيعة، لا يدرون أن ذلك ما هو بالجديد.

سواد ينتشر:

ولتحذير هذا المعدن الأول الآخر، القديم الجديد، ضرب الله مثلًا، فأمرنا أولًا بالوفاء فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النَّحل:٩١]؛ «والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ، ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله»(١).

ثم قال لمن له قلب يحذر: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النَّحل:٩٢]؛ «فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي، تفتل غزلها، ثم تنقضه مرة أخرى قطعًا منكوثة ومحلولة»(٢).

ويجيء كلام النبي ﷺ، يبين أمثال الله تعالى التي يضربها للناس، ويوضح أنها مسألة استعداد في بعض القلوب لقبول الافتتان.

فمن الناس من جعل الله فيه فطرة صالحة تنكر الفتن، ومنهم من يأبى بعض الهداية فيضله الله.

فمن أباها ابتداء: أباها انتهاء، ومن رحب بها ابتداء: طبعت في قلبه سوادًا يظل يتسع حتى يتم اسوداده مع نهايتها، كما ورد في الحديث الصحيح عند مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تعرض الفتن على القلوب كالحصير، عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا،

(١) الظلال (١٤/ ٩٣).
(٢) المرجع السابق (١٤/ ٩٤).

كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»[1].

وربما يملك القلب الاستعداد للفتنة، لكن وقت الرخاء والعافية لا يفضحه ويتستر عليه، فإذا اكتنفته الشبهات، وهيجته المهيجات، انفضح وانكشف.

وشبهوه في ذلك بصاحب الصدر المريض، ما أحسن تنفسه أيام الصفاء، فإذا أثارت الريح الغبار: لهث، وضاق نفسه، واختنق.

أو كما شبهه أبو سعيد الخراز: «كمثل ماء طاهر واقف صاف، فإذا حركته ظهر ما تحته»[2]، أي كحوض ماء راكد، ترسب الطين في قعره، تلقي فيه حجرًا صغيرًا فيختلط كله، وقد كنت تظنه زلالًا، أما الحوض النظيف فإن إلقاء الحجر فيه يزيده جمالًا، بما أحدث من دوائر الأمواج التي تعكس ظلال الأغصان الخضراء.

فانظر آثار حجر الفتنة في القلوب تحكم عليها، ولا تغترن بظاهر من الركود موهم، ولا تستكبرن وصفنا للمفتتن إنه كالكوز المنكوس، فكم رأينا من انتهت به أيامه إلى ترك الصلاة.

الدعوة محفوظة:

وأعلم أن من أبى لن يضر الدعوة شيئًا، فإنها محفوظة.. وليس لما تبني يد الله هادم.

وأن قول المخلص يخلص صدقه.. وتأبى فما تزكو لباغ بواطله.

وكما قال عبد القادر عودة ﷺ: إنها دعوة الله وليست دعوة أشخاص، وإن الله علم المسلمين أن الدعوة ترتبط به ولا ترتبط بالدعاة إليها، وأن حظ الأشخاص منها

(١) صحيح مسلم (١/ ٨٩)، وقوله: أسود مرباداً، أي: شدة البياض في سواد. وقوله: مجخياً، أي: منكوسًا، وفي زهد ابن المبارك (ص٥٠٤) قول لعلي ﷺ يقرب من هذا الحديث.

(٢) طبقات الشعراني (١/ ٧٩).

أن من عمل لها أكرمه الله بعمله، ومن ترك العمل لها فقد أبعد الخير عن نفسه، وما يضر الدعوة شيئًا[1].

بل لاحظ الإمام البنا ﷺ حدوث النفع للدعوة، فروى أنه لما أصدر أحد المخالفين كراسًا يهاجم فيه القائمين بأمر الدعوة، ورد عليه القائمون، «ما كاد هذا الرد ينشر حتى تلقفه الناس، ولفتت هذه الحركة أنظارهم إلى الدعوة، وأخذوا يهتمون بكل ما يتصل بالجماعة، فكانت تلك الحركة من أكبر العوامل على الانتشار وانضمام عناصر كثيرة من الناس»[2].

النسافات:

ولهذا أشفق الأولون على أهل الفتن، وحذروهم سوء العاقبة، فكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول:

إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص فيها أحد إلا نسفته، كما ينسف السيل الدمن[3].

ويصور لنا قتادة بن دعامة ﷺ، وهو أحد أجلاء التابعين، تجربة فتنة رآها، ويضع أمامنا نتائجها التي رآها، فيقول:

«قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ومخافة منه، فلما انكشفت، إذا الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وايم الله! لو أن الناس يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها

(١) مجلة الدعوة، العدد (٥٢).
(٢) مذكرات الدعوة والداعية، ص١١٧.
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٧٣).

جيل من الناس كثير»[1].

ووالله قد رأينا ما رأى قتادة، وعرفنا بعض من شارك في الفتن تكاد أجسادهم تتهدم وقلوبهم تتقطع كلما ذكروا ما كانوا فيه قبل من العز، وما آل إليه أمرهم بعد من الانغمار.

ولا ينجو من هذه الفتن إلا السيد، صاحب أخلاق السيادة، الحليم، المحب للتوبة، فإنه قد ينخدع بزخارف يصوغها المفتتن، لكنه سرعان ما يرجع إلى رشده وصوابه، وهو ثالث الثلاثة الذين عددهم حذيفة حين قال:

إن الفتنة وكلت بثلاث:

- بالحاد النحرير الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف.
- وبالخطيب الذي يدعو إليها.
- وبالسيد.

فأما هذان فتبطحهما لوجوههما.

وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده[2].

فالحاد النحرير ليس له رجاء النجاة.

والخطيب فيها صاحب سيف أيضًا، كما قال ابن عباس في بعض ما يؤثر عنه أن سيفه لسانه، فهو مع صاحبه.

إلا السيد، فإن الفتنة هي امتحان له، فإن كانت أخلاق السيادة فيه أكثر ميزها، وإن كانت أقل جرفته، فقد يفيق في أولها، وقد يفيق في وسطها، وقد يفيق وهي على

(١) المرجع السابق (٢/ ٣٣٧).
(٢) المرجع السابق (١/ ٢٧٤).

مشارف نهايتها، بمقدار ما فيه من النبل، وبمقدار ما عنده من العلم، فإن «الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل»، كما يقول الحسن البصري سيد التابعين[1]، فإن كان علمه كاملًا أبصرها قبل مجيئها ورأى نتائجها وكأنه يهتك حجب الغيب، ويتأخر وقت إدراكه لضررها كلما كان علمه أقل.

فإذا انتهت فلا فضل له في رؤية تشتت دعاتها وإفلاسهم، فإنها تكون مشاهدة بصر لا إدراك قلب، يتمكن منها من لا عقل له أيضًا، وعندئذ لن تنقذه إلا توبة نصوحة جازمة تبعده عن فتنة مقبلة أخرى، يتزود لها التقوى، ويأتم بالدليل، ويسلك الصراط، ويدور بعدها ضمن نظام الجماعة وخطتها وأعرافها.

(١) تاريخ البخاري الكبير، ج٢، ق٢، ص٣٢٢.

سلاسل العيوب[1]

الفرض الإيماني في الأدب العربي غرض زاخر بالمعاني الدقيقة التي تأسر ذا القلب العامر أسرًا إلى جميل ما تصاغ به من تشبيه وجناس يكشفان العلاقة بين المقدمات ونتائجها، وما يزال المرء يستلطف الشيء بعد الشيء من بلاغة الصالحين وهم يجرون في هذا المضمار.

علياء مقدمة عليين:

ومن ألطف ما أتوا به: رؤيتهم ﷺ، علاقة ارتهان كتاب الفجار في سجين بما حبسوا أنفسهم فيه في الدنيا من «سجن» المطامع والأهوية، ومكافأة الأبرار برفع كتابهم إلى عليين بما كان منهم من التسامي إلى «علياء» الروح والقلب.

ذو العيب يحتاج الدعاية:

ثم استطردوا في بديعهم وشبهوا المستكمل النقي ببدر تمام في ليلته الرابعة بعد العاشرة، كيف أنه استدار، لم يتربع ولم يتطاول.

فالبدر تمدحه خاصة الشعراء حتى امتلأت دواوينهم بوصف بهائه، وهو صامت ساكت، يعلوه وقار الاطمئنان أنه لن يغفل عن روعته أحد، فمن ملتذ برؤيته في صمت أيضًا، ومنبه باللسان، قالوا: أما الناقص، المفضوح بفتوق لا رتق لها، فهو كالقمر حين يخسف، يخرج عن سكينته وصمته ويحتاج لضجيج الطبول، ومدائح

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٤)، ١١ شوال ١٣٩٣هـ/ ٦ نوفمبر ١٩٧٣م، ص٢٦-٢٧.

الأطفال، ويستجيش حماس العجائز، يهيب بهن أن ينكرن على حوت ابتلعه واعتدى على حقه وجماله.

الإتمام الصامت:

ولذلك كانت قصة وصية السلف أن: التمام التمام.

أرسلها أبو بكر ﷺ من وراء الصحراء إلى خالد بعد انتصاراته في العراق أن: ليهنك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء[1].

يطلب منه الإتمام الصامت في غير وقوف عن السير حتى يكون كذلك البدر.

ثم ورثها عن خالد أحمد بن حنبل، فما وقف، حتى قال صاحبه المحدث إبراهيم الحربي: «لقد صحبته عشرين سنة، صيفًا وشتاء، وحرًا وبردًا، وليلًا ونهارًا، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس»[2].

لم يعرف الوقوف فضلًا عن التخلف ورجوع القهقرى إنما هو المرتقي المتعجل المتم.

تثبيت وتثبيط:

ولبثوا في التقدم الجريء حتى دخلوا السباق، كل يحب أن يقرب من الكمال أدنى، حتى ليأتي أحدهم الديار البكر، ويرتاد كل يوم منزل فضل لم يعرف لأحد قبله، ويأتي في التنافس بجديد، لم يكن له ولا لغيره بالأمس، وحتى راح الشاعر يتساءل ويبدي دهشته مخاطبًا أحدهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٥).

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي، ص١٤٠.

عجبًا بأنك ســـــالم من وحشة في غاية ما زلت فيهـــــا مفردًا!

يتعجب كيف لم يرجف فؤاده وهو المتوحد بلا أنيس.. معه يشاركه خُلقه الذي هو فيه، كأنه طليعة جيش.

فأما الموفق فيمضي قدمًا، ملتذًا بتفرده هذا، ثابتًا بتثبيت الله تعالى؛ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]، «فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت».

وأما الراجف فيعلن برجفته للشيطان عن ضعفه فيأتيه في صورة الأنيس، يحاوره ويساوره، حتى يجد فرصة إلقاء كلمة التثبيط.

إنها رجفة المتوغل الضعيف، توقف ولا تؤخر.

والعاصم منها إنما هو الصدق.

فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الأخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة[1].

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٧)، طبعة محمد محيي الدين.

ولهذا كان دواء الضعيف إن أراد الوقاية من هذه الرجفة أن يكون صادقًا، وهو الدواء الذي عصم به أبو ذر رضي الله عنه نفسه منها لما عرف ما هو عليه من الضعف فقال: يا رسول الله: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل! قال: تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك[1].

فكف شره ولم يفتتن زمن الفتنة، يعينه صدقه، إذ لم تقل الغبراء ولم تظل الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر كما قال النبي ﷺ.

لكن المفتقر إلى درجة أبي ذر في الصدق يدخل في الشر بمقدار فقره، فلا ترى ضعيفًا بعده إلا وهو بخيل في التصدق على نفسه يلفه الشح الشديد المفضوح، أو يحرمها من الطيبات فحسب، بمقدار قربه من الكذب أو بعده عنه.

للعيوب نقاط انطلاق:

ولو سلم بعد هذا البخل لهان خطبه، ولكن العيب من شأنه أن يتتابع بشكلين مزدوجين: عدوى وتنوعًا، فيكون عيوبًا كثيرة تقعد بصاحبها وتسري إلى غيره كعدوى المرض.

أما العدوى فإن وحشته الأولى قد أوقفته عن التقدم بما رجف فؤاده لتفرده في خصلة خير قد زهد فيها غيره، ثم يخطئ ويأتي عيبًا، ومن شأن البشر الخطأ فيربأ بنفسه ثانية عن التفرد في الخطأ ويعتاد طلب الأنيس، وينسى طريق التوبة القريب، فيكون داعية للخطأ، كما قال زهير ابن نعيم: «يخطئ، فيحب أن الناس قد أخطؤوا»[2].

فيصيح بالفتنة في كل واد ينشرها أفقيًا، ويصير راجفًا مرجفًا.

(١) المرجع السابق.
(٢) صحيح مسلم (١/ ٦٢).

وأما التتابع النوعي فلأن العيوب مترابطة، بعضها يستلزم البعض، مثل ترابط أخلاق الإيمان، وهو ما قرره الفضيل بن عياض حين قال: «من أراد أن يسلم من الغيبة فليسدد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن: سلم من التجسس ومن سلم من التجسس: سلم من الغيبة»[1].

ولا شك أن الفضيل قطع ذكر التوالي استفزازًا لنباهتك فإن العيوب تترا، بعضها يردف بعضًا، فآخر ما ذكره الفضيل، وهي الغيبة: هي أول سلسلة أخرى، فإن الغيبة تقود إلى الحسد، والحسد يقود إلى النميمة، والنميمة تقود إلى الكذب، ومن استجاز الكذب لم يتورع عن النزاع، إلى مائة عيب.

وهذا ما يقره الأستاذ المرشد الهضيبي أيضًا، فإنه يرى أن أكثر الشرور تبدأ بالغيبة ويقول: وليعلم المسلم أنه لا يكون مسلمًا حقًا إلا إذا أصبحت عقيدته جزءًا لا يتجزأ من أخلاقه وسلوكه، فيكون عادلًا مع الناس جميعًا ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه، فلا يذكر إخوانه بسوء ولا يغتابهم، ولا يلمزهم فإن أكثر الشرور إنما تنشأ عن مثل ذلك[2].

ورأس هذه الشرور في مشاهدات الفضيل: ارتفاع الأخوة.

يقول ﷺ: «إذا ظهرت الغيبة: ارتفعت الأخوة في الله. إنما مثلكم في ذلك الزمان مثل شيء مطلي بالذهب والفضة، داخله خشب، وخارجه حسن»[3].

هي سلسلة طويلة من العيوب، كل يكشف بعض الحلقات المتقاربة منها، وكما وصف الفضيل بعضها، كشف الرجل الصالح أبو بكر الحكيم الوراق بعضًا آخر

(١) حلية الأولياء (١٠/ ١٤٩).
(٢) طبقات السلمي، ص٢٠٨.
(٣) مجلة «المسلمون» (١/ ٤٢٠)

منها، فقال:

«إذا غلب الهوى: أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر: ساء الخلق، وإذا ساء الخلق: أبغضه الخلق»[1].

توالد مستمر:

وكما كانت الغيبة وكان الهوى نقاط انطلاق لعيوب كثيرة يكون الانتصار للنفس نقطة تنطلق منها أيضًا جملة وسائل ملتوية.

«ويظهر أن النفس الإنسانية إذا ألح عليها معنى الانتصار ولو بغير الحق لم تعد تفكر فيما عداه وإن ساقتها وسائلها الملتوية إلى الهزيمة المتكررة حتى تصل إلى الهزيمة التامة»[2].

بل يظل الهوى، أو سوء الفهم، أو الفقه الأعرج، أو اختلال الموازين، ينتكس بصاحبه وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، حتى يبعث بمثل عبد الرحمن ابن ملجم مثلًا الحماس لقتل أمير المؤمنين علي ﷺ تقربًا إلى الله تعالى، و يقتاد منه أبناء علي فيقطعون يده ورجليه ولا يجزع، بل يقرأ القرآن، فلما أرادوا قطع لسانه جزع فقال: «أكره أن أكون في الدنيا فواقًا لا أذكر الله».

كأنه ما درى أنه استحق كل الشقاء بفعلته القبيحة إذ سفك دم خليفة المسلمين.

وكل ذلك يصيب مجتمع الدعاة الصغير كما يصيب مجتمع المسلمين الكبير إذا اعترتهم الغفلة، ومن مرت أمام نظره فتنة سلمه الله منها عرف مقدار صواب الفضيل والوراق والهضيبي، والمجادل ينكر احتمال تعرض الدعاة لغيبة، يسميها

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٦).
(٢) طبقات الشعراني (١/ ٧٨).

النقد الذاتي، وينكر تلبس الداعية بالهوى، يسميه الاجتهاد والوعي الجديد وما شاء من الأسماء. وما درى أنه من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء.



سهام الشيطان[1]

هي سلاسل مقيدة موثقة، كما أنها سلاسل متتابعة متوالدة، تلك العيوب الثالثة الثالبة تشل صاحبها عن حيوية في الخير وحراك، وتشده إلى أرض الجمود.

لها تزين وتزيين ولسان طويل وترهيب.

لكنها جبانة عند لقاء المؤمن، تخاف انتباهته.

لا قليل من الإثم:

لذلك كان التخلص من سجن العيوب الخُلقية وأسرها يمثل المرحلة الضرورية الأولى في الصياغة التربوية للداعية المسلم، نحرص على التحرير قبل إعطاء الوعي وتعليم الفقه والتدريب على كسب الأنصار، لا نهتم قبل تقطيع وتكسير حديد سلاسل العيوب بشيء.

فمن تجاوز هذه الخطوة في البداية الصحيحة فكأنما هو مراوح في مكانه، لم يبرح موضعه، وإن قطع المسافات بدونها، وأقام الشهود على قدم الانتساب، ليس هو إلا في تكرير وتقليد لذاك الرجل الذي جاء إلى الزاهد أبي علي الدقاق، يشتاق إلى مواعظه، فقال: قد قطعت إليك مسافة.

أي سافر إليه من بلاد بعيدة يبتغي أن يكون له تلميذًا وصاحبًا، يظن أن طول رحلته يمنحه أولوية على غيره في القرب من أبي علي.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٥)، ١٨ شوال ١٣٩٣هـ/ ١٣ نوفمبر ١٩٧٣م، ص٢٢-٢٣.

فقال له أبو علي: «ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة: يحصل لك مقصودك» وهذه هي النفس الأمارة بالسوء، ذات العيوب، عناها أبو علي، لن يحصل مقصود الدعوة في الداعية حتى يفارقها بخطوة تكون دليلًا على أنه قد حل وثاقها له.

أي وثاق كان، بسلاسل غلاظ أم دقاق رفاع، ما دام منهن تكتيف وإقعاد.

وهذا هو الذي أدركه عمر بن عبد العزيز بثاقب بصيرته الإيمانية، فطفق يلح على الواحد من ولاته على الأقاليم أن:

«لا يكونن شيء أهم إليك من نفسك، فإنه لا قليل من الإثم»[1].

يراه كله قيدًا، قليله وكثيره، هذا الإثم.

فلما تخلص عمر والذين معه من قليله، واهتزت الأرض لذلك وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، أيقنها الناس نظرية لعمر في طلب كل خير، وصاغها شاعرها وصية:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى[2]

وتمثيل التقوى بحذر الماشي فوق أرض كثيرة الشوك يؤثر عن الفاروق ﷺ، وبذلك جمع الشاعر بين خلاصة فقه العمرين، ومن عرج ساعة لشوكة شيكها، حتى وجد منقاشًا، ثم استخرجها ضاحكًا من شدة صغرها كأنها ذرة، عرف أن لا قليل من الإثم حقاً.

(١) المدهش لابن الجوزي، ص١٧٨.

(٢) تاريخ الطبري (٥٦٩/ ٦).

نحو براءة عمرية:

ولولا أنهما أول المبادرين إلى تطبيق حكمتهما لما خلدت، لكنه هو الفاروق لما مات رثته ابنة أبي حثمة، فصاحت: «واعمراه.. أمات الفتن، وأحيا السنن، خرج نقي الثوب، بريئًا من العيب»[1].

بكل معنى البراءة والنقاء.

أفرأيت كيف انتبهت إلى سر مناقبه!

إنه سر براءة الداعية من العيب يفعل لدعوة الإسلام أفاعيلها وفتوحها، وكفى به من سر وسلاح، وأحدنا اليوم تخالط قلبه أدران الغرور، ويوهمه خيره القليل، فيغتر إدلالا، ويتوقف عن الاستزادة امتنانا، آمنا غير وجل، وقانعًا غير طامع.

ولو أنا ذكرنا ما كان عليه أمر العمرين والسلف، ثم أجرينا المقارنة والمقايسة، لتجدد لنا الخوف، وانبعثت الرغبة، وحصل الحث، وعرفنا قدر نفوسنا.

ولكنا خلف نخشى الفضيحة:

قالها صادقة صريحة الرجل الزاهد عبد العزيز ابن أبي رواد ﷺ، واعترف بأننا: «إذا ذكرت أحوال السلف بيننا: افتضحنا كلنا».

كلهم في القرن الثالث، فأي فضيحة لمن في القرن الرابع عشر؟

لا ترفع سعرك:

يفضحنا العجب بالنفس.

والمعجب مفضوح ولا شك بفضيحتين: بفضيحة الزلل والسقوط أرضا، إذ ما زال القدماء يقولون عن فلان: «إن العُجب أخذ برجله فزل»، كمن يهمل النظر في

(١) الغنية للشيخ عبدالقادر (١٤٢/ ١).

السوق إلى موضع قدمه، فيزلق بقشر أو يعثر بحجر، فمن راثٍ لحاله وشامت، ويقوم متهما، تأتيه النصائح من كل جانب، وما هو بحاجة إليها بعد ارتجاج عظامه.

أو يغالي، يطلب لنفسه السعر العالي، فيفضحه الشافعي، وينادي في السوق أن: «من سامىَ بنفسه فوق ما يساوي: رده الله تعالى إلى قيمته»[١].

وسبب العجب أن المعتقد له: يستصغر ما علم من ذنوبه وذكره وينسى كثيرًا منها، ويعمى عليه أكثرها حتى لا يظنه ذنبًا، فيستكثر عمله، فيغتر به، فيقل خوفه، وتشتد بالله غرته[٢].

وفيه نوع من الاعتداء إلى جانب الفضيحة، فبشر بن الحارث الحافي يعرف العجب بأنه: «أن تستكثر عملك، وتستقل عمل غيرك»[٣].

وهذا الجانب من الاعتداء والازدراء هو الجانب الأظهر في العجب حين فحصه سفيان الثوري، حتى كأنه قصر تعريف العجب عليه، فحذرك: «إعجابك بنفسك حتى يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك، وعسى ألَّا تصيب من العمل مثل الذي يصيب، ولعله أن يكون هو أورع منك عما حرم الله، وأزكى منك عملا»[٤].

وكان الفضيل بن عياض رآه رؤية الثوري، فجعله مستقلًا عن جانب الاستكثار الذي ذكره بشر، ومستقلا عن نسيان الذنب الذي ذكره المحاسبي كسبب له، فقال: «إذا ظفر إبليس من ابن آدم بإحدى ثلاث خصال قال: لا أطلب غيرها: إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه»[٥].

---

(١) تاريخ الطبري (٢١٨/ ٤).
(٢) طبقات الشعراني (٤٤/ ١).
(٣) الرعاية للمحاسبي، ص٢٠٧.
(٤) حيلة الأولياء (٣٤٨/ ٨).
(٥) المرجع السابق (٣٩١/ ٦).

وهذا يعني أن هذه الثلاث، الجامعة لأوصاف العجب حين رآه الصالحون من زواياه المختلفة، هي رأس السوء عند الفضيل، بحيث إن إبليس يضمن بعدها كل عيب يحبه.

أي أن العجب أصل كل بلاء وفتنة عنده.

يحدد بذلك ما نقل له عن عيسى عليه السلام لما قال:

«كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عبادة قد أفسدها العجب»[1].

فالعمل الصالح ضياء ونور، يتحول إلى ظلام إذا هبت ريح العجب عليه، هكذا بهبة واحدة.

دواء العجب:

ومع ذلك، ومع أنه ريح سريع الإطفاء، فإنه سريع السكون في نفس الآيب الملتفت إلى عظيم فضل الله عليه، وذلك إذا عرف أنه إنما نال ما نال من الأعمال الصالحة:

«بمنة الله عز وجل وفضله، ولولا منته بذلك لما نال ذلك أحد أبدًا من نفسه، لأن النفس لو تركت لما فعلت ذلك، ولا كان منها، لأن محبتها كانت في خلاف ذلك، حتى نبه الله عز وجل العقل، فقهر به هوى النفس، وعزم له على الرشد، فخالف محبة النفس وشهوتها، لأن العبد لا يكاد يأتي برا إلا وشهوتها في ضده: إن قام الليل فشهوتها في راحتها من التعب وفي نومها فرارًا من السهر، وكذلك إن صام فشهوتها في الإفطار، لما بنيت عليه من حب الغذاء، من الطعام والشراب، وحبها الراحة، من النكاح وغيره.

وكذلك جميع أعمال الطاعات، فلم تكن لتعمله لو تركت، فيذكر ويعترف أنما

(١) تنبيه المغترين.

العمل من الله عز وجل نعمة أنعم بها عليه، لا ابتداء من نفسه، وأن عليه في ذلك: الشكر، وأنه غير قائم بالشكر على ذلك مقصر في شكره، لم يستأهل ما مَنَّ عليه به، بل يستأهل أن يسلبه، لتضييعه شكر نعم الله عز وجل عليه.

وقد يكون من البر ما لا تعب عليها فيه في الظاهر، كالسكوت عن الخوض في الباطل، وكغض البصر، وترك الغيبة في الأنام والفضول، والفكر في القلب والذكر، ولكن ذلك كله في الحقيقة يثقل عليها لأنه وإن لم يكن لها متعبا فإنه مشغل لها عن محبتها وهواها، لأن راحتها في محادثة الخلق، لتخرج ما يجول في القلب، وكذلك غض البصر عن النظر إلى ما تهواه وتشتهيه، وكذلك الفكر والذكر بالقلب للآخرة شاغل عن النظر في راحة الدنيا والفكرة فيها، فذلك يثقل عليها ويشغلها عن راحتها ومحبتها، فقد صح لأولي النهى أن ما نالت من البر والطاعة كان يخالف محبتها للتعب الذي يدخل عليها، أو لمنعها من راحة أو لذة تنالها، فهذا دليل بيِّن وشاهد واضح عليها أن الذي أدخلها في خلاف محبتها غيرها، وهو مليكها المتفضل عليها بذلك، فله الحمد والشكر وحده.

فإن رجعت إلى صاحبها بالدعوى منها أنها هي التي عملته وانتحلته، فحمدها على صبرها وقوتها، فليرجع إليها بهذه المعرفة التي يجدها في نفسه وطبعه، وكفى بإخبار الله عز وجل أنها أمَّارة بالسوء إلا ما رحم الرب وتفضل به المولى[1].

صرعى المدائح الخمس:

قال الثوري: «فإن لم تكن معجبا بنفسك فإياك أن تحب محمدة الناس، ومحمدتهم أن تحب أن يكرموك بعملك، ويروا لك به شرفًا ومنزلة في صدورهم»[2].

(١) المرجع السابق.
(٢) الرعاية، ص٢١٦.

وهذا هو السهم الثاني من سهام الشيطان بعد العجب، يعمل أحدهم عمله وهو يريد المكانة به.

وصرعى هذا السهم كثيرون أيضا، يأتيهم ما يأتي من جهة حب المحمدة العملية.

فمنه هذا، ومنه ما يأتي من جهة حب محمدة الناس القولية، يجربون في مدحه بلاغتهم لأغراض في نفوسهم، وهو أدرى بما بين جنبيه لو ادَّكر، لكنه ينسى فيغتر، ويعرض عن ناصح أمين يعلمه أدب الدنيا والدين من قريب:

يا جـــــاهلًا غره إفـــــراط مادحه لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك

أثنـــــى وقال بلا علـــــم أحاط به وأنت أعلم بالمحصول من ريبك[1]

لكنه إن لم يعرف هو منزلته فإن الفضيل بن عياض قد وضع في يدك ميزانًا تشخص به فصيلته، فقال:

«إن من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويبغض من يبصره بعيوبه»[2].

فتراه لو مدحه أحد ينتفخ صدره في الحال، ويطرب، وتسبح به الخيالات في بحار من اللذة الغامرة، فإذا جاء آخر ناصحًا له: انقلب بسرعة إلى حالة غريبة، يضيق فيها صدره، وتتسارع أنفاسه، وينفلت لسانه بكل لفظ خشن.

إن ستر الله تعالى لكثير من زلاتنا وعيوبنا إنما هو نعمة كبرى، وكل منا أدرى بحقيقة نفسه من غيره، وما تزكية الغير لنا إلا من شباك الاستهواء التي ينصبها الشيطان.

ولقد تأمل خالد بن صفوان في أحوال الناس فحذرك: «إن أقوامًا غرهم ستر

(١) حلية الأولياء (٣٩١/ ٦).

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٢١٣.

الله، وفتنهم حسن الثناء فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك»[1].

ومنه نوع ثالث، وهو مبادرة الناقص لمدح نفسه بلسانه. ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النَّجم:٣٢].

وجعله رباح القيسي سبب فساد الأعمال لما سئل: «ما الذي أفسد على العمال أعمالهم؟

فقال: «حمد النفس، ونسيان النعم»[2].

واستدل به الشاعر على وجود المعايب فقال:

عجبًا لمادح نفسه لا يتهدي لتنقص يبديه فيه مدحها

مدح الفتى عند التحدث نفسه ذكرى معايبه فيدري قبحها[3]

ومنه نوع رابع غريب، فإن بعض من يتمكن منهم العجب، ويرون افتضاح أمرهم، يلجؤون إلى ذم أنفسهم أمام الغير، ظنًا منهم أن الذم سيؤدي إلى اعتقاد المقابل بعدهم عن العجب، وما دروا أن التواضع منحة ربانية لا تفتعل افتعالًا، وإنما تتنزل على من يعلم الله صدق توجهه.

وقد كشف الحسن البصري أمر هؤلاء، وأكد لنا أن: «من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها، وذلك من علامات الرياء»[4].

ومنه نوع خامس أكثر غرابة، إذ يسخر الشيطان لعاشق المدح من يقوم بدور متوسط فهو لا ينصحه، يخاف أن تتجدد ثورته، ولا يمدحه، يخاف أن ننكر عليه، بل

(١) تنبيه المغترين، ص٧١.
(٢) حلية الأولياء (١٨/ ٨).
(٣) الرعاية، ص٢١٤.
(٤) نفح الطيب (٦٩/ ٨).

يلجأ إلى ذكر عيوب أقرانه الآخرين، يرمي زيدًا بالسذاجة، وعمرًا بالدنيوية والكسل، فتهدأ النفس الثائرة، وتطرب من جديد، ونرى فيها صورة واقعية تصدق الفضيل حين يقول «إن من علامة المنافق أن يفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه»[1].

كفى بالله مزكيًا:

لكن الكيس من دان نفسه دائما واتهمها بالتقصير، ورأى أن ما يعمله مهما كثر قليل بجانب حقيقة شكر الله.

وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل تصدق بيمينه صدقة لا تعلمها شماله، ومثله الذي يفتح الله على يديه بالأعمال الصالحة لا يعلمها إلا قليل، ويراها المسلمون فلا يعرفون صاحبها.

والدعاة يهتفون من أول يومهم أن: الله غايتنا.

فما ضرهم أن يحشروا مع قتلى نهاوند الذين لا يعرفهم الناس، بل الله يعرفهم.

يقول مدرك بن عوف الأحمسي: «بينا أنا عند عمر رضي الله تعالى عنه إذ أتاه رسول النعمان بن مقرن، فجعل عمر يسأله عن الناس، فجعل الرجل يذكر من أصيب من الناس بنهاوند، فيقول: فلان بن فلان، وفلان بن فلان ثم قال الرسول: وآخرون لا نعرفهم.

فقال عمر ﷺ: لكن الله يعرفهم»[2]، وفي لفظ آخر: «ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم»[3].

(١) تنبيه المغترين.
(٢) المرجع السابق، ص٧١.
(٣) الخراج لأبي يوسف، ص٣٥.

وإنما يسد باب الفتن في الدعوة بمثل هؤلاء الجنود الذين يجردون عملهم لله، ولا يحفلون بمعرفة غيرهم أو جهلهم لما يعملون، وإلا فإنها سهام الشيطان قاتلة.

الهضيبي مُعلم الصمت الشامخ[1]

يخطئ زعماء الأحزاب السياسية العرفية وقادة الأفكار الأرضية، والحاكمون أجساد الناس بقوانين الجاهلية، خطأً عظيمًا حين تقديرهم مدى النجاح الذي يحققونه، يفهمون أن تسلطهم وقمعهم للمخالفين يصفانهم بالنجاح التاريخي ويؤهلانهم لاستمرار وتأثير.

وليس أمرهم كما فهموا أو زعموا، فإن مبلغ زعامتهم وفكرهم وحكمهم لا يتعدى نهاية غلبتهم وبداية سطوة منافس لهم من أنفسهم جديد، تذروهم رياح الأيام، ويظل قادة دعوة الإسلام أقوى منهم دومًا، فإن الناجح من ملك العصر، وحكم القلوب وكانت له النهايات.

قد يكون القائد المسلم سجينًا، ممنوعًا بضيق الجدران وأثقال الحديد عن الحركة، لكن روحه التي بين جنبيه تظل أوسع من عوالم سجانه.

وقد لا يؤثر عنه حرف مقابل كل خطبة يخدع بها الطاغية أتباعه، لكن صمته يظل أقوى من بلاغة الباطل.

إنه الصمت عن حروف اللين، يهب القائد المسلم قوته.

ويومها في زمن التابعين فخِر المحدث الفقيه إبراهيم التميمي بمنقبة الربيع بن خثيم فرواها للأجيال وقال: «أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تعاب»[2].

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٦)، ٢٥ شوال ١٣٩٣هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٩٧٣م، ص١٤-١٥.
(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ١٨٥).

يفخر أن صان الربيع لسانه عشرين عامًا من أعوام العافية والرخاء.

واليوم، نفخر نحن دعاة الإسلام، بمنقبة الهضيبي، ونرويها للأجيال: إن قائدنا خبرناه عشرين عامًا، من أعوام المحنة والسجن، ما سمعنا منه كلمة من اللين، أو حرفًا يعاب.

وهذا هو الصمت الصعب لا صمت الزهاد، كانت حاجة المعركة إلى قائد يعلم الدعاة الصمت الشامخ والاستعلاء على كلمة العيب، ولم تكن الحاجة إلى قائد خطيب وكاتب.

كانت الحاجة إلى الرجل الكامل، فالكتب: «إنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل الكامل صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم، إذ هو تفسير الحقائق في العمل الواقع»[1].

وكان الهضيبي ﷺ ذلك الكامل.

كان صوابًا، ختم له بموقف ثبات صواب سيظل ينتهي إلى أرواح دعاة الإسلام في كل مكان وكل جيل يمدها بالتثبيت.

ولم يكتب الهضيبي إلا كلمات، لكنه كان أقوى من العلم وكتابات الكتاب في التأثير، بما خلف من مواقف صلابة تفسر حقائق المعركة الإسلامية مع صور الجاهلية الحديثة.

كان كمالًا لم تنقص منه أنصاف الحلول، فاصَلَ، وحفظ للدعوة معسكرها المستقل، وأبى كل محاولة للتقريب، وأدرك أنه الوادي السحيق يقوم بيننا وبينهم، ذاك الوادي الذي يجب أن تشير إليه خوارط الدعاة، وتبين عمقه واستحالة نصب الجسور بين جانبيه.

(١) وحي القلم (٣/ ٥١).

الوادي الذي رآه بديع الزمان النورسي ووصفه في مثانيه العربية، يبين من خلال وصفه فقه ثبات أمثال الهضيبي من القادة على المفاصلة المستعلية.

نداء عربي ينبعث من جبال تركيا، يخاطب محذرًا أيها الدعاة:

«لا تتقربوا إلى المدنيين بالمسامحة الدينية والتشبه، ظنًا منكم أنكم تصيرون جسرا بيننا وبينهم، تملؤون الوادي بيننا.

كلا، إن المسافة بيننا في غاية العمق، لا تملؤونه، بل تلتحقون بهم أو تضلون ضلالًا بعيدًا»[1].

يدعوهم بالمدنيين، هؤلاء أهل الجاهلية جريًا مع الاصطلاح القديم، في نظرية في المفاصلة واضحة، أيام اشتداد جبروت أتاتورك.

يرى التقرب، والتسامح خطوة التحاق بالكفر لا محالة؛ ولذلك كان ذاك الوادي الذي في غاية العمق حقيقة: وجب أن يشرف عليه جبل في غاية الشموخ، يجسد العمق.

القلب الجبل الذي لا يزيله شيء.

أول: القلوب التي وصفها السري السقطي، فإنه رأى أن: «القلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل لا يزيله شيء، وقلب مثل النخلة، أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة، يميل مع الريح يمينًا وشمالًا»[2].

فكان قلب الهضيبي تلك الهضبة وذاك الجبل، لم يزله عن جوهر الدعوة الذي عرفت به تهديد أو حبال تلف مرة بعد مرة حول أعناق الذين معه، ولم تمل به ريح إغراء أو تقذفه اليمين والشمال.

(١) المثنوي العربي للنورسي، ص١٧١.
(٢) طبقات السلمي، ص٥٣.

وقد يربأ البعض بأنفسهم عن ميل غير منتظم كميل الريشة حين تطير بها الريح في الفلاة وتقعد، ويرون الفضيحة في ذلك الصعود والهبوط الذي لا تضبطه الموازين، فيفلسفوا لأنفسهم صعودًا وهبوطًا تنظمهما مقاييس الهندسة في منظر جميل من الدوران، مبررًا مقننًا. لكنه يبقى دورانًا ليس بثبات.

ولذلك أباه الهضيبي أيضًا، واختار لنفسه المحل الواحد الثابت، وكأن المركز لم يشأ أن يتناقله صداع الأهواء والأماني والرخص، ولا أن يصيبه دوار الدوران، ينفذ وصية صاحبه عبد الوهاب عزام في مثانيه:

فاثبتن، والزمان بالناس ماض

والزم القطب لا يصيبك الدوار[1]

فلزم القطب الثابت، والضعفاء من حوله يدورون.

والتزم القطب الكاتب والبعض لدقيق حروفه لا يفهمون.

ثم أتم ثباته في القطب بإغماض الجفن فإن المكوث في المركز غير كاف للوقاية من الصداع ومجرد النظر ورؤية الدوران تدير الرأس أيضًا وتأتي بالدوار.

فثالثة، كانت المثاني تناديه، كأن القدر ناسب بين المرشد القائد الثاني، ونصائح مختلف المثاني، لكنها المثاني الفارسية هذه المرة: أن يدع الحرص ويقنع ويزهد، ويغمض جفنه عن عرض الدنيا ومتاعها، فإن الصدف لا يحفل باللؤلؤ الثمين ما لم يغتمض.

ولقد لبى الهضيبي ﷺ، وأغمض جفنه في بدايته عن الزوائل، وزهد حق الزهد، وخاف الله ولم يخف طاغية، فغمض جفنه في نهايته على ثبات ومفاصلة وكلمة صلبة عالية.

(١) ديوان المثاني، ص٨٥.

وبقي على من يخلفه في القيادة أن يواصل هذا الثبات المغتمض الصامت، في شموخ أمام وادي المفاصلة العميق، وأن يردد مع سيد:

أخي ســـــتبيد جيـــــوش الظلام ويشـــــرق في الكون فجر جديد

فأطلـــــق لروحك أشـــــواقها تر الفجـــــر يرمقنا مـــــن بعيد

فذلك الذي أكده هرقل لأبي سفيان ﷺ حين قال: «سألتك: كيف كان قتالكم إياه؟ فزعمت أن الحرب سجال ودول، كذلك الرسل، تبتلى، ثم يكون لهم العاقبة»[1].

وكذلك أيضًا أتباع الرسل في كل قرن أيضًا، يبتلون، ثم تكون لهم العاقبة.

بل هو الابتلاء طريق التمكين، كما قرر الشافعي لما سئل: «أيما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟».

كأن دعوة الإسلام وصلت يومًا ما بلا تمحيص وتدريب وراء القضبان وتحت المشانق، وفوق أمشاط الحديد.

فقال الشافعي: «لا يُمكَّن حتى يبتلى»[2].

حتماً مفروضاً:

قد يطول هذا الابتلاء وسير الظلماء أو يقصر كيفما شاءت حكمة الله لكن المهم أن يقوم في هذا الطريق مؤذن بعد مؤذن، يهدون الناس ممشاهم.

كلمـــــا أظلم الطريـــــق وأعيا وتناجـــــت بيأســـــها الركبان

أبصـــــر الركب للمنـــــازل نارًا وهداهـــــم إلى الديـــــار أذان[3]

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢٣).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤١).
(٣) ديوان المثاني، ص٣٢.

ولقد رفع الإمام حسن البنا ﷺ صوتًا عاليًا بأذان أيقظ النيام، وخلفه الأستاذ حسن الهضيبي ﷺ فوفى وصدع بأذان ثان أزال عن القلوب وحشة الطريق.

وكأنه لمثل هذا اليوم كان نداء داعية اليمن القاضي محمد محمود الزبيري ﷺ، قتيل طريق الابتلاء هذا، يريد أذانًا ثالثًا:

يا دعـــــاة الإسلام تاريخكم ضـ خم ولكن هـــــل فيكمُ من يعيده؟

ورنت من نوافـــــذ الزمن الـــ خالي إليكم عيونه وشـــــهوده[1]

فلقد أخذ الهضيبي مكانه بجدارة في هذا التاريخ الضخم المشرف.

وإن العيون لتتطلع إلى هذه الدعوة الرائدة المباركة اليوم، بعد نصف قرن من مولدها: هل فيها من يعيد تاريخ قادتها؟ ذلك المأمول إن شاء الله وبعونه، فإنها دعوة معطاءة وهبت رجالها لفلسطين وللقنال ولمعركة الحرية في مصر.

وأيسر من ذلك أن تهب ثالثة رجلًا للصمت الشامخ يفتح الله على يديه.

(١) مجلة «المسلمون»، السنة الأولى، العدد الثامن.

الهوى الناقض للبدء النابض[1]

إن الله جميل، يحب الجمال.

يحبه لعبده، يريده أن يكون جميلًا، وأجمل الجمال: تجريد عيش العبد مع الله تعالى، خالصا نقيًّا من غير خلط، ليس للجمال الذي يحبه الله ترجمة أرفع من هذه.

عيش مع جمال موازين الله تعالى، ومع جمال حديث رسول الله ﷺ، ومع جمال فقه ورثته من المجتهدين.

ومع جمال سيرة أئمة المؤمنين، من مجاهد وزاهد، وجندي وقائد.

باستقلال:

فمن خلط المعية، فقد شان الولاء وغلط.

ولكن يجرده، على الذي روي لنا من مذهب أبي القاسم الجنيد البغدادي.

قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة في محبة الله تعالى بمكة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي.

فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: «عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه.. فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله.. فهو بالله، ولله، ومع الله»[2].

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٧٧)، ٢ ذي القعدة ١٣٩٣هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٩٧٣م، ص٢٤-٢٦.
(٢) الرسالة القشيرية، الطبعة القديمة، ص١٩٢، المدارج (١٦/ ٣).

مع الله في كل حال:

مع الله في سبحات الفكر: يسبح فكره في خلوات الليالي مع عظيم صنع الله، يتدبر خلق الأرضين والسماوات وما فيهن من جمال وكمال، وتجول خواطره مع ما يوجبه الله عليه من النذارة والدعوة إليه.

مع الله في لمحات البصر: يرى الآيات التي تدل على أنه واحد، ويطالع دلائل إعجازه، ويشاهد واقع الناس، ما بين محبوب مطمئن أنزل الله سكينته عليه وألبسه رداء المهابة، وقلق مذموم ملعون، قد حلت نقمة الله فيه.

مع الله حال احتدام الخطر: يوقن أن الله لا يخذله عند وقع الأذى وتصاعد الصراع، وأن فوق عسر المحن يسر رباني، يقدم له لاستجلابه وحدة مع أنصار الله من إخوانه المؤمنين، يراغم الشيطان بها عند اختلاف الاجتهاد وتزيينات الانفراد.

مع الله في الرهط والمؤتمر: يستمتع بجمال زحف النبي بعد النبي يقاتل معهم من أرهاط الربيين كثير، ويعرف ما يحبه الله من ضوابط العمل الجماعي والتآمر بالمعروف، وأنه لا مؤتمر إلا واحتمال تباين الرأي معه، وأنه لا خطر في التباين إذا لم يكن ثم انتصار للنفوس.

مع الله في حب أهل التقى: يغبطهم على حكمة أوتوها، ومزيد عمل وفقوا له، وخفض جناح سهل لمن قبلهم طريقًا إلى الجنة، فيشغفهم ودًا، ويتملق لكلمتهم المجتمعة، وخطتهم الواحدة، عساه يلج مع الزمرة.

مع الله في كره من قد فجر: يفاصلهم في استعلاء، ويتميز بعزة، ويتطهر عن تشبه، ويستصغر كيدا ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن القدير.

فكذلك يكون في كل حال مع الله..

مع الله في سبحات الفكر.

مع الله في لمحات البصر.

مع الله حال احتدام الخطر.

مع الله في الرهط والمؤتمر.

مع الله في حب أهل التقى.

مع الله في كره من قد فجر[1].

ومع حقيقة الإنسان ومصائره.

ثم يتم واقعيته، فيرى حقيقة ضعف الإنسان وقصوره، ويرثي حاله مع الحسن البصري، يقلب كفيه ويرسل دمعته عليه، ويقول معه: «مسكين ابن آدم..

محتوم الأجل، مكتوم الأمل.

أسير جوعه، صريع شبعه.

تؤذيه البقة، وتقتله الشرقة»[2].

ويطيل التأمل خاصةً في هذا الأجل الذي يطوق الإنسان، ويخوف نفسه بحقيقة الموت الآتي المحتوم، ويعير سمعه إلى الفقيه القادري العلوي، إن أعوزته البلاغة، وهو يعظه:

الدهر عن طمع يغـــر ويخدع وزخارف الدنيـــا الدنية تطمع

وأعنـــة الآمال يطلقهـــا الرجا طمعًـــا وأســـياف المنية تقطع

والمـــوت آت، والحياة مريرة والناس بعضهـــم لبعض يتبع

(١) للأميري في ديوان مع الله، ص٢٩، من قصيدة طويلة.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٧٣.

واعلم بأنك عـــن قليل صائر خبرًا، فكن خبرًا بخير يســـمع[1]

ويظل يرتقي في المشاهدة حتى يستشعر الآخرة من بعد الموت، وتكون رؤيته القلبية لها كالرؤية العيانية، مثل رؤية المحدث الزاهد عبد العزيز بن أبي رواد الذي كان: «كأنه يطلع إلى القيامة»[2].

فيتردد قلبه ما بين بشاشة الاطلاع على الجنة، ولذعة الاطلاع على النار، حتى يرتجف بدنه طمعًا وخيفةً، فيعتقل لسانه عن ذكر الأموال والقصور والمناصب والنساء، وتصير مجالسه كمجالس الإمام أحمد: «مجالس آخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا»[3].

المرتقي يخاف السقوط:

فما يزال بعد ذلك محاصرًا بمشاهدة القيامة، وحقيقة الموت القريب، وفضيحة الضعف البشري، فيفر يطلب عيشًا مع الله أسمى، ويجدد التجرد، يبغي زيادة سكينة تحميه هول المشاهد والحقائق والفضائح، ثم يطلبه أخرى، فأخرى، في تجديد نيات وتوبات، حتى يحلق عاليًا، ويبلغ ذروة العيش مع أوامر الله.

هنا: يميل بصره إلى أدنى، فيهوله احتمال السقوط بدفعة من شيطان عدو، فيحذر، ويخشى هوى يهوي به نزولًا وتدحرجًا، فيشرع يدرس أوصاف هذا الهوى من قبل أن ينقض عليه في أعالي جوه وهو لا يعرفه، ويسأل فقهاء القلوب، من زاهد وشاعر، ينعتونه له.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٤٢٩).
(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ٣٣٩).
(٣) مناقب أحمد، ص٢١٤.

فإنما سمي الهوى: «لأنه يهوي بصاحبه» كما يقول الشعبي، التابعي الكوفي[1]؛ أي أنه مشتق من السقوط، وقول الله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) (النجم: ١)، معناه: سقط وجنح للغروب.

فالذي يتمكن منه الهوى، ويخالف دلالة القرآن والحديث ووصايا الفقهاء، لن تراه إلا في تعثر ووقوع يكبه على وجهه، لا يعرف اتزانًا ولا صعودًا.

سبب الهوى:

وسببه: وسخ يكون في القلب، من طمع وحسد وانتصار للنفس، يحجب الرؤية أو يشوشها، كالذي ينظر من وراء زجاجة سوداء.

أو يضاف إلى ذلك: ضعف عين الهاوي، تكون مقلته شوساء، متقاربة الأجفان، ضيقة المجال، فتزداد صورة الحق الشرعي عنده غبشًا ولا تتكامل.

ولذلك أوصاه الشاعر أن:

انظر، وإيـــاك الهوى، لا تمكنن سـلطانه من مقلة شوســاء

فجراثيم تلك الأوساخ تغزو المقلة الشوساء، فتلتهب، فتعمى إن لم تعالج، أو تكثر في نفس القلب حتى يقف نبضه، فيكون الهوى ناقضًا لحيوية البداية النابضة.

الهوى أسر وقيد:

ومع أن ابن آدم محتوم الأجل، وأنه: «أسير عمر يسير»[2].

فإنه يضع نفسه في أسر آخر يختاره، لو خلا في نفسه العجب كيف اختاره.

(١) أدب الدنيا والدين، ص١٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٤.

كذلك وصفه ابن تيمية، فإنه لما سجن لم يظهر حزنًا، وقال: «المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»[1].

فجعل الهوى أسرًا.

ومع ذلك ترى الناس يقعون فيه مرة بعد مرة، لما فيه من إغراء، والعاقل يقيد نفسه عنه إن جربه مرة، ألَّا يسهو فيستجيب ثانية للإغراء، فيكون كحر لم يصب أصل الحرية واعتنى بصورتها، فمد يديه لقيد الهوى، أو كعبد استخذى لتعبيده لما خدعوه وبدلوا أسماء القيود، وجاءه الناصح الأمين الصريح بقيد يحوطه من مشيه إلى الهوى فرفضه، وهما من تعجب عبد الوهاب عزام لقلة معرفتهما، فقال:

قيد الحر نفسه برضاه وأبي في الحياة قيد سواه

وترى العبد راضيًا كل قيد غير تقييد نفسه من هواه[2]

والحقيقة أن هذا القيد الثاني الذي يمنع الانفلات إلى الهوى ليس بقيد وإن استعار اسمه، وإنما هو محض ارتباط بالله وأمره ونهيه، يظن القلب الساذج أنه من جنس القيود، فيطلب التحرر منه، فيستدرجه إغراء الهوى، فيجوب ميادينه وعرصاته، يحسب أنه المتحرر، وبئست حرية الأهواء.

جزم وليد بذلك، ولم يجعل بين الحالتين إلا حدًّا واحدًا، فقال:

والقلب ما لم يكن بالله مرتبطًا فإنما هو بالأهواء جواب[3]

حرية اسمها الارتباط، أو تقلب ودوران اسمها الحرية.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٢).
(٢) ديوان المثاني، ص١٤٧.
(٣) مجلة التربية الإسلامية (٧/ ٤٩٤).

بطالة وقلة أدب:

وللهوى خمس مضرات أُخَر سوى هذا الأسر، رآها ثقات الأطباء عند أهل الهوى وأحصوها:

منها: أنه يصد عن الحق، بحيث تأتي بالدليل والحجة فيجحدهما الهاوي، وكان أعظم تخوف أمير المؤمنين علي، ﷺ من ذلك، فقال مشددًا:

«إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق»[1].

ومنها: تأديته إلى سوء الأدب، رأى ذلك المحاسبي فقال: «من ألف هواه: قل أدبه، ومن خالف دلالة علمه كثر جهله»[2].

ومنها: إفساد العقل، فتكون اجتهاداته معيبة غير موزونة، ولذاك أوصاك عبد الجليل البصري أن تتجنبه، وقال:

فخذ بمنهج من يعصـــــي هواه وقد ... أطاع أهل الحجا فـــــي كل مؤتمر

إن الهوى يفســـــد العقل السليم ومن ... يعص الهوى عاش في أمن من الضرر[3]

ومنها: التنازع بين الإخوة، وتطوير اختلاف وجهات النظر إلى تخالف بين القلوب، فسيد قطب قد استقصى أخبار المختلفين وتبين له أن: «ليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق في غيرها، وإنما هو وضع الذات في كفة، والحق في كفة، وترجيح الذات على الحق ابتداء»[4].

(١) الزهد لأحمد، ص١٣٠.
(٢) رسالة المسترشدين، ص١٦٠.
(٣) نزهة الأبصار (٢/ ٨٨١).
(٤) الظلال (١٠/ ٢٦).

ومنها- وليس بآخرها: البطالة، وترك الجماعة، والقعود عن العمل والمشاركة في أبواب الخير التي يطرقها الدعاة، حتى ينسى معنى النشاط ومنها- ومغزى الدعوة، فإنها:

ثلاث مهلـــكات لا محالـــة هوى نفس يقود إلـــى البطالة

وشـــح لا يزال يطـــاع دأبا وعجب ظاهر فـــي كل حالة[1]

ضرورة علاج الهوى:

وأضر من هذه الأضرار أن يكون المرء متماديًا يعالج هواه، غير مسرع إلى مخالفته، حتى إن مثل أبي العتاهية يضجر ويتأفف من برودة صاحبه في ذلك فيخاطبه:

خالف هـــواك، إذا دعاك لريبة فلرب خير فـــي مخالفة الهوى

حتى متـــى لا ترعوي، يا صاحبي حتى متى، حتى متى، وإلى متى؟[2]

ويتعجب ثانية لفتوره وعدم المسارعة إلى الإصلاح، فيقول:

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى ســـبحانه، إن الهـــوى لغلوب

ســـبحان ربك ما تزال وفيك عن إصلاح نفســـك فترة ونكوب[3]

وكأن صاحبه كان كبعض من نراهم اليوم، ينكرون تلبسهم بالهوى، لا يكتشفونه، فيقعدون عن تداوي وعلاج، ولكن الطبيب الماهر يكتشفه وإن لم يحسوا به.

ومن يطع الهـــوى يعرف هواه وقد ينبيـــك بالأمـــر الخبير

(١) نفح الطيب (٨/ ٥٩).
(٢) ديوان أبي العتاهية، ص٢٦.
(٣) المرجع السابق، ص٤٤.

فالخبير، ومن عنده علم الفتن وصفات الشر يعرف الهوى الكامن المستتر من آثاره الظاهرة لا محالة.

ولذلك يجب الإصغاء لأبي السعود بن أبي العشائر، الطبيب الخبير الثقة، حين يطلب منا إضعاف هذا العدو ويقول:

«الهوى لا يترك العبودية تصفو، وما لم يشتغل السالك بإضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا يصح قدم، ولو أتى بأعمال تسد الخافقين، والرجل كل الرجل من داوى الأمراض من خارج، وشرع في قلع أصولها من الباطن، حتى يصفو وقته، ويطيب ذكره، ويدوم أنسه»[1].

سماها رجولة، ووافقه مصطفى صادق الرافعي في ذلك، فقال: «إنما الرجولة في خلال ثلاث: عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه، وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم، والثالثة: قدرته على العمل والقبول إلى النهاية»[2].

ولو استقام العاملون على هذه الثلاث لما رجعت فتنة مجالًا لظهور أبدًا.

أداء الواجب:

بانتظار الأجر الرباني لا الثناء العاجل، والثبات على ذلك.

نعم، هو علاج صعب، لكنه لذيذ، صعب وشديد كما قال أبو العتاهية:

أشـــد الجهاد جهـــاد الهوى وما كـــرم المـــرء إلا التقى

(١) طبقات الشعراني (١/ ١٤١).
(٢) وحي القلم (١/ ٣٦٨).

وأخلاق ذي الفضـــــل معروفة ببذل الجميل وكـــــف الأذى[1]

أي كف أذى ظنونه وأذى لسانه عن المؤمنين.

ويزداد شدة إذا طال الإهمال، فيما قرر المحدث الثقة الزاهد الكوفي محمد بن كناسة في قوله:

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فإن فطام النفس عنه شـــــديد[2]

وذلك: «لأن العبد الضعيف منذ عقل في الصبا قبل البلوغ لم يزل في تصنع للعباد، فإذا أراد فطم نفسه عن العادة وكسر قوة شهوته بضعف عزمه وقلة عادته للإخلاص أبت النفس، واستصعبت»[3].

لكن صعوبة هذا العلاج تخف بعد المباشرة فيه ويأتيه المدد من رب رحيم.

«حتى إذا أدمن الرد على نفسه واعتاد الإخلاص ونفي الرياء: رجع ثواب الإخلاص على قلبه من الله عز وجل بالنور والبصيرة، وانكسرت النفس حين طال منه منعها ما تحب، ويئس العدو فخنس، وانتظر الشهوة والغفلة، وأقبل الله عز وجل عليه بالنصر والمعونة لما رآه قد صبر له على إدمان المجاهدة لهواه، فعند ذلك تسكن دواعي الهوى، وما عرض منها عرض بضعف وقلة، وتقْوى دواعي القلب، ويعظم العزم، فإذا عرض عارض الرياء نفاه سريعًا، بغير مكابدة ولا كلفة»[4].

وحين ذاك، ومع كل جولة ينتصر فيها على هواه، ينتشي ويلتذ، ووجد ابن الجوزي حين انتصر أن:

---

(١) ديوان أبي العتاهية، ص٢٠.
(٢) الأغاني (١٣/ ٣٤٣).
(٣) الرعاية للمحاسبي، ص١٠٨.
(٤) المرجع السابق.

«في قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة»[1].

ليس كمثلها لذة، كَلَذَةِ من يرتقي قمةً صعبةً ويعلوها.

وإنما نعني بعلاج الهوى: مناقضته ومخالفته، والعمل بضد ما ينادي، كما ورد في قول الشاعر:

هي النفس إن أنت سامحتها رمت بك أقصى مهاوي الخديعة

فإن شئت فوزًا فناقض هواها وإن واصلتك أجزها القطيعة

ولا تعبأن بميعادها فميعادها كسراب بقيعة[2]

بل ربما ذلك لا يكفي، فإنه يراود مرة أخرى، ولكن نحتقره على طريقة سيد الزهاد إبراهيم بن أدهم حين وصفه ابن أخته محمد بن كناسة: أهان الهوى حتى تجنبه الهوى[3].

فنزدريه، ونهزأ به، ونضحك عليه، حتى يولي مدبرًا، يتجنب المرور عبر دربنا بعدها أبدًا.

(١) صيد الخاطر، ص٥٨.
(٢) نفح الطيب (٧/ ٣٦٢).
(٣) شطر في الأغاني (١٣/ ٣٣٧).

تأليف الأرواح

أصبحت علامة السالك، الصادق في هجرته إلى الله تعالى، علامة واضحة يتعرف عليها الداعية الذي أرهبته أهوال وصف الهوى الناقض لحيوية الابتداء المتحرك الدفاق النابض، تعرفًا سريعًا لا يحتاج إلى مزيد فراسة وتجربة.

فليس من عجب إذن أن يسرع أبو علي الروذباري الإشارة إليها لما سألوه عنها، ولا عجب ثانية للبلاغة التي انبغت له وكانت بين يديه، حين طفق يمنح هوية العمل وفق شروط ثلاثة، ويحكر صدق السلوك على: «من سلك طريق المصطفى، وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا»[1].

ليس لمقبل على دنيا، أو صريع هوى معهم نصيب.

عصبة العزم باقية:

إنه سلوك طريق المصطفى ﷺ، أول الشروط، بل البديهية التي قد لا يرى البعض حاجة لذكرها، ولكن من يعلم أن بعض آيات الله هن أم الكتاب وأخر يعدلن الثلث، يعلم أيضًا أن بعض كلمات المصطفى ﷺ، المحددة لطريقه الذي ندب لنا الروذباري سلوكه، هن أمهات الحديث، يضعن الموازين، ويرسين القواعد، ويجمعن المتفرق، وإياهن يعني الروذباري قبل أن يكون عنى الجزئيات، وعليهن يؤكد.

ولقد تحدث ﷺ عن أمة حزم ضمن أمته العظمى التي تنتسب إليه، لا تترخص مع المترخصين، ولا تغفل مع الغافلين، بل تأخذ القرآن والسنة بعزم، ثم جعل لها

(١) تاريخ بغداد (١/ ٣٣٢).

علامة صارت ميزانًا إسلاميًا، فقال: «لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

أي أن الداعية المسلم حين يبحث مستقبل الدعوة الإسلامية عليه ألَّا يفترض مجرد افتراض بقاء وثبات المجموعة الحازمة ضمن الأمة الإسلامية الواسعة ثبات استمرار على مر العصور، إذ تقنع بمثل هذا الافتراض كل نفس مليئة بالأمل، ولكن يتيقن الداعية ذلك يقين عقيدة.

تكامل يتبادل الخير:

وذو النظر الجزئي يصرف المقصود بهذه الأمة إلى صنف من العاملين يبهره خيره وفضله، فمن قائل إنهم أهل الحديث، ومن قائل إنهم الفقهاء، أو ثالث يرى أنهم الزهاد، أو الأمرة النهاة عن المنكر.

والصواب أنها الأمة المتكاملة الاختصاصات، التي يعطي وجودها صورة حركية تفي بحاجات الإسلام المتعددة، كما رآها الإمام النووي: «فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله تعالى، من مجاهد وفقيه، ومحدث وزاهد، وآمر بالمعروف، وغير ذلك من أنواع الخير ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين»[1].

يعني تفرق المكان، والانبثاث والانتشار لا تفرق الكلمة والبعد عن التشاور وإهمال الأسلوب الواحد.

وهذا من فقه النووي في العمل ومعاني الدعوة.

أما من قصرها على طائفة معينة فإنما يصيب بمقدار ما في الواحد النموذج من أفراد تلك الطائفة من كمال في الصياغة التربوية والعملية، كالإمام أحمد بن حنبل

(١) فتح الباري بشرح البخاري (١/ ١٧٤).

حين ذكر أنهم أهل الحديث، فإنه رأى شخصية المحدث جامعة لرواية الحديث المسند والفقه في متونه، والزهد ومكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، فقصر الوصف عليهم وأصاب، ثم خلفه على توالي القرون خلف أخذوا من تفسيره حروفه، ولم يلتفتوا إلى الواقع الموصوف وكمال صياغات الدعاة من المحدثين الذين عضدوه في جولته مع الجهمية والمعتزلة فعكفوا منفردين على ألفاظ من الحديث مجردة، وتركوا المجتمع يربيه من لا دين له، والسياسة يمارسها كل عميل وفاسق يظنون أنهم الأمة القائمة على أمر الله.

ولا شك أن جماعة من أفراد تكاملت صياغة كل واحد منهم فقرن العلم بالجهاد والأمر والنهي بالزهد، أرفع من جماعة أخرى يكمل اختصاص الواحد منهم اختصاص الآخر.

وهذا ما يضع الجماعة المتصدية للقيام بأمر الله أمام واجب التربية الجماعية التي تأخذ من خير هذا ليشاركه هذا، ومن خير هذا فتفيضه على هذا، فيبطل أمر من خالفهم، بما سدوا من ثغرات قد ينفذ منها هذا المخالف إلى أحدهم فيضره.

واجب تربوي لا تظنن أن السلف غفلوا عن إدراكه أو تلبية متطلباته، بل لا تزال قصص حياة بعضهم تنتظر من يفيد منها من دعاة الإسلام اليوم اقتداءً واتباعًا، من بعد ما بنت جيلًا من الدعاة في يومها الماضي، أصلحوا ما أفسد الضعفاء، وقوموا ما حرفه الدنيويون.

نظرية الأشكال المؤتلفة:

يبرز منهم في الصدر الأول: التابعي المحدث الفقيه المربي الشاعر: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، حفيد أخي عبد الله بن مسعود ﷺ وأحد

فقهاء المدينة السبعة، ومن رؤوس العلم والنباهة الذين تلمذوا لعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة والنعمان بن بشير وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعنهم أجمعين[1].

نهج عبيد الله منهجًا تربويًا سماه «التأليف بين الأرواح»، وخلد عنوانه شعرًا فقال:

وما يلبث الفتيـــــان أن يتفرقوا إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل

ظاهره بيت شعر تحركت به شفة شاعر ليطرب قلوبًا يبهجها الحرف البليغ، لكنه لمن عرف خلفياته يمثل خلاصة تجربة تربوية انسابت عبر سيرة مرب مصلح لتغذي قلوبًا يلذعها تفرق المسلمين.

يجزم أنه إحلال الألفة بين الأرواح، أو هو الاختلاف المشتت.

يعني بذلك أن مذهبه التربوي لا يبدأ ولا يكتفي بإعطاء العقول ما تحتاجه من علم شرعي، وتربية فكرية، وخبرة سياسية ودراسة واقعية، بل يعتني بالقلوب أولًا يجعلها متشاكلة، ويظل يواصل عنايته بها إن التفت إلى العقول بعد.

فمغزى نظريته أنها تعطي للتربية الروحية الأولوية.

وربما أعطت نظرة سريعة لحديث عبيد الله بن عبد الله في صحيحي البخاري ومسلم صورة قريبة من التفصيل لما كان يربي أصحابه عليه، ولكن التفصيل كل التفصيل تفهمه إن علمت أن تربيته أنتجت عمر بن عبد العزيز ﷺ، مثال المتجرد، ونموذج الحاكم العادل، إذ كان هو مؤدبه الخاص ومربيه الذي لقنه معاني الإيمان.

فمن بهرته شخصية عمر: عليه أن ينظر إلى من صاغ عمر وكان وراءه ويفحص نظرية التأليف التي ألفت بين قلبه وقلوب عصبة الخير التي عاونته في إشاعة العلم

(١) تهذيب التهذيب (٧/ ٢٣).

والعدل في الأمصار، ممن صقلتهم صحبة عبيد الله بن عبد الله، من أمثال: أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أحد فقهاء المدينة السبعة ووالي عمر على المدينة والزهري زعيم المحدثين، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعراك بن مالك القاضي، وصالح بن كيسان.

فلقد علمهم عبيد الله أسس السلوك في عصر الفتن الذي عاشوه، واستطاع بنظريته التربوية أن يوجههم لتأسيس مجتمع السلامة والعلم من بعد ما كادت الخلافات تستهلك ما عند الناس من خير، وأداه صدق نيته في مسعاه، وتركيزه على تربية عمر بن عبد العزيز من بعد، ووعيه للاحتمالات التي تكتنف مستقبل عمر، إلى تأييد رباني رفع عمر إلى السلطة، ليعلم الناس علم الآخرة من مركز القوة المهاب لا من زوايا المستضعفين المنسية.

نعم، حال السم بين عمر والإتمام، وشوش أبو مسلم الخراساني فيما بعد على تلامذة جيل الإصلاح الذي وعى نظرية تأليف الأرواح، لكنها كانت بارقة ما زالت تنير طريق الدعاة السائرين، وكلمة باقية في عقب عبيد الله من حزب المحدثين المبشرين المنذرين.

مع السرب في النشيد:

فلقد ظل وميض البارقة يتوالى، حتى استنار به إقبال من بعد القرون، فجدد حكمة عبيد الله، وراح يترنم في رياض لاهور، تتهادى نغمته، تعلم المسلم الجديد:

كل مـــن أوتي حظًـــا من حياة في ســـوى بيئته يلقـــى رداه

بلبل أنت، ففي الـــروض امرحِ ومع الســـرب بلحن فاصدحِ[1]

(١) الأغاني (٩/ ١٤٤).

فليست الدنيويات بيئة المسلم، ولا مجرد الفكرة تعصمه، ولا الأهداف الجزئية تهبه الحياة، بل مؤتمر المؤمنين الشامل الغايات ومجمعهم المتكامل الذي يتهادى الخير.

يريد إقبال ألَّا ننفرد، ولا نأتي بنغمة نشاز تسلب اللحن جماله.

يريدنا سرب لسان واحد بعد ما كنا زمرة قلب واحد، نمرح مرح الآمال، لا نحزن حزن اليأس.

يريد تشذيبًا في نفوس الجميع، نبتر به كل نتوء زائد فيهن، ليتسق خطهن المستقيم أي: محاسبة النفس وعتابها، فإن لم تستح فتقريعها.

علمك بالفساد صلاح:

فلقد كاد أمية بن أبي الصلت -وظلام الجاهلية من حوله- أن يسلم بهذه المحاسبة ومثيلاتها، يوم قال:

عبـــد دعـــا نفســـه فعاتبها يعلـــم أن البصيـــر رامقها[1]

فسنها أمية سنة فطرية قبل أن تكون أمر شرع، تبكت من لم يأخذ الكتاب بقوة أن شاعرًا جاهليًا سبقه في الفقه، فأيقن أن بصيرًا عليمًا يراقب خلجات النفوس من فوق سبع سماوات ويحصيها ويعدها عدًا وراح يلوم نفسه ويدقق في النقاش.

والمسلم الصادق يزيد على ذلك، فيَنْظَم نداء الفطرة بإرشاد القرآن وتفزعه احتيالات النفس وزخارف تمنياتها، فيلجأ إلى الله رأسًا وبلا إبطاء، يردد خلف تلميذ الثوري يوسف بن أسباط دعاءه: «اللهم عرفني نفسي»[2].

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص١٢٠.
(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٤٠).

فإن في النفس من الأسرار والخفايا ما لا يكشفه إلا عون الله لنا، حتى إن أستاذًا في علم النفس مثل سهل بن عبد الله التستري الزاهد يجزم بأن: «معرفة النفس أخفى من معرفة العدو»[1]؛ أي أن عيوبها تتستر وتموه أمرها كما يتستر العدو ويخادع.

لكنه خفاء لا بد من اقتحامه واستجلائه إذا أردنا النفس الزكية، وتعيين مكان العلة يسبق مقص الجراح.

إن بحث الطبيب عن داء ذي الدا ء لآس الشـــفاء قبل الشـــفاء

أو كما قال زاهد مكة الثقة وهيب بن الورد: «إن من صلاح نفسي علمي بفسادها، وكفى للمؤمن من الشر أن يعرف فسادًا لا يصلحه»[2]. وكقول حسن البصري: «لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله»[3].

فلا يزهدنك فيها أنها معرفة عيوب تأمل سالب، بل انظرها على أنها خطوة ضرورية في طريق الإصلاح كما نظرها وهيب.

انظرها على أنها صفة لا غنى عنها للداعية لمن أراد أن يتحقق في الدعوة، فإن من لم يعرف نفسه وينكر عليها منكرها لا يستطيع أن يعرف نفس غيره ويقوم اعوجاجها.

تلك مادة في قانون العمل عند الكيلاني تقول: «إذا كنت منكرًا على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك.

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها.

أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن»[4].

(١) المرجع السابق (١٠/ ٢٠١).
(٢) المرجع السابق (٨/ ١٥١).
(٣) كتاب الزهد لابن المبارك، ص٥٢٨.
(٤) الفتح الرباني، ص٣٠.

إنها حروف ليست كغيرها أن يقول الكيلاني: «تقعد في بيتك وتتخارس».

جرسها مخيف.

إنها حروف هجاء مر في لغة الدعاة.

ويا له من عار يأنف منه كل عزيز نفس، والغيور لا ينسى هذه الجملة، كأنه يرى وجه الكيلاني يطل عبر القرون، يهتك عليه ستار النافذة، يعيره تواريه بالبيوت وتلبسه بعيوب تقود إلى قعود.

تنقية وصفاء:

وتسميها اللغة عيوبًا وأخلاطًا، ولكننا عرفنا الغيبة وحب المدحة والهوى: سلاسل مقيدة وسهام شيطان، ونواقض بدايات نابضات.

فلا جرم أن يسمي الثوري الرياء بعد ذلك فسادًا حين يوصي أخاه ويقول: «إياك وما يفسد عليك عملك، فإنما يفسد عليك عملك الرياء»[1].

يمر عليه هكذا ولا يعرفه، غير ناس ولا عاجز، بل لأنه أمام معنى لا يمكن تعريفه، إنما يعرفه البريء منه فقط، كما يقرر الفضيل بن عياض حين يقول: «لا يعرف الرياء إلا مخلص»[2].

فمن ذاق حلاوة الإخلاص عرف مرارة الرياء، ليس من طريقة أخرى.

يكون مخلصًا ثم كفى، وسلام على عباد الله المخلصين.

وإلا فإن الرياء يولد عجبًا، ينسى معه أن الناس تراب وماء، وينسى منة الله عليه إذ جعله مسلمًا، فيتبختر، ويتصنع ويتكلف المظاهر والفصاحة، ويستأجر له حاشية تحيطه بهيبة عارية.

(١) حلية الأولياء (٣/ ٣٩١).

(٢) الرسالة القشيرية، ص١٢٥.

ولو درى أوله وحاضره ومنتهاه لوقف مكان الشاعر الذي يصفه متعجبًا، ولزاد تعجبًا!

فضائح مزرية نسيها المعجب فضحك منها الشاعر:

عجبت من معجـــب بصورته وكان بالأمـــس نطفـــة مذره

وفي غـــد بعد حســـن صورته يصيـــر في اللحـــد جيفة قذرة

وهو علـــى تيهـــه ونخوته ما بين ثوبيه يحمـــل العذرة[1]

ولذلك منع الثقات إسماع الثقة مثلهم كلمة مدح فيه، بسبب قرب قميص العجب من النفوس، ألَّا تتناوله يد الممدوح فتلبسه حتى خشي عمر بن الخطاب على مثل أبي موسى الأشعري ﷺ ما قد يولده المدح من غرور في نفسه فقال لأنس ﷺ يصف أبا موسى: «أما إنه كيس ولا تسمعها إياه»[2].

فإن وقع أحد في العجب، وعاون الثقات الشيطان على أخيهم بمدحهم له في الوجه على حين غفلة من أنفسهم: تطور العجب إلى كبر فيه غمط حق الآخرين، ونسي التواضع.

نعم، كما قال يونس بن عبيد: «ليس في هذه الأمة رياء خالص، ولا كبر خالص. فقيل له: لماذا؟

فقال: لا كبر مع السجود، ولا رياء مع التوحيد»[3].

ولكن هذا السجود يحقق المنزلة الواطئة الدنيا من الفضل، وفوقها درجات من الفضل تتصاعد حتى تسمو، وقد أمرنا بالإتقان والمزيد، وإنما ذلك دين المتكاسلين أن يرضوا بالقليل وينفذوا الضروري الذي يرفع عنهم شبهة الكفر والنفاق.

(١) أدب الدنيا والدين، ص٢١٠.
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٤٥).
(٣) طبقات الشعراني (١/ ٣١).

احذر السقف!

وماذا على داعية الإسلام لو أشبع نفسه بدل ذلك باستعلاء على نموذج الناس المنحرف، وجمع في الوقت نفسه تواضعًا لأخيه؟ ويبين مذهبه لمن يظن أنه في تناقض فيقول:

أتيه علـــى كل الأنـــام نزاهة وأشـــمخ، إلا للصديق، تأدبًا[1]

فهو شموخ النزاهة، يسع الداعية، يغنيه عن الكبر، وهو تواضع الأخوة يتأدب به الداعية بلا تهمة خنوع، بل يلحق برعيل من دعاة خمسمائة سبقوه، قص الإمام البنا علينا في مذكرات الدعوة والداعية قصة رضاهم بعامل نجار أميرًا عليهم، لما عنده من الفقه والصلاح والتضحية، وإعراضهم عمن يحمل شهادة الأزهر العالمية لما وجدوا النجار أفضل منه[2].

ولذلك ثبتوا، وغشيت قلوبهم السكينة في ظلال الدعوة.

«ألا ترى أنه من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن تطأطأ: أظله وأكنه؟»[3].

فلا تشمخ على إخوتك واخفض جناحك للمؤمنين تجد سقف الدعوة وارف الظلال لن يحرمك أحد منه.

(١) ديوان البهاء زهير، ص٣٥.
(٢) مذكرات الدعوة والداعية، ص١٠٨.
(٣) الرعاية للمحاسبي، ص٢٣٤.

الجندية طريق القيادة (القسم الأول)[1]

حين تدَّعي نظرية ما دعواها، فإن اللحظات الحرجة وحرارة التحديات هي التي تكذبها آنذاك أو تصدقها، فيرسخ مدلولها أو يهمل، ويصير أساسا في التعامل والتفاضل أو يعرض عنه.

وحين أدلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنظريته في الأشكال الروحية المؤتلفة، وجربها في أصحابه وتلامذته، كان عليه أن ينتظر يوم فصل يؤيد مذهبه أو يخونه، فيتكفل بنقله للأجيال اللاحقة، أو يسلمه النسيان.

الإمارة حمل ثقيل:

ولقد كان يوم خلافة تلميذه عمر بن عبد العزيز هو ذاك اليوم الفصل.

فلئن لم يكن ثمة جيش عاصٍ يتحدى تلميذه وراء أسوار دمشق، فإن هناك تحديات نفس مقبلة على إغراءات الرياسة، وبطراً اجتماعيًا، ورخاوة خلف لسلف الهمة والجهاد.

ومع كل خطوة لعمر حين كان يرتقي المنبر ليطلب خطبته الأولى: كانت ترتجف قلوب الذين يظنون أن عبيد الله قد أحيا فيهم فقها كاد ينحرف بالتأويل، وتزداد دقات قلوبهم مع استدارة عمر، يخافون أن تغلب شهوة تنفر الناس من مذهبهم التربوي، وتزهدهم فيه.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨١)، ٨ ذي الحجة ١٣٩٣هـ/ ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣م، ص٢٨.

إنها رجفة الموقف الحاسم، لا الشك في الفقه المسند، إذ ربما كان للخوف معنى لو كان لسان عمر يتكلم أو عقله المجرد، لكنها كانت دموعه ثم، وكان قلبه..

كان فوق المنبر خريج مدرسة يحاول أن يفي لأستاذه، ويطمن أشكاله، ويحزن متواضعًا لفتيان لم يعرفوا ما عرف فتفرقوا، فانطلق يعلن انتصار عبيد الله.

«ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملًا»[1].

وهذا الشعور هو أدنى ما تحس به الأرواح المؤلفة وتتميز به عن غيرها، فحين تزول المزايا المصطنعة، والطباع المتكلفة، ويحل التواضع، وتسود الأخوة: لن يبقى من معنى الإمارة والرئاسة إلا ثقلها الثقيل.

عمر يطور مذهب التأليف:

لقد أبرد عمر حقًا بكلماته هذه قلوبا طال همها واشتياقها إلى رؤية واقع يظنه الضعاف خيال مثاليات، وتحليق تمنيات.

نعم، كانت كلمات عمر وعدًا لمستقبل، وإخبارًا عن شعور متوارٍ في كامن الصدر، ولكن كفى بوعود الأحرار ضماناً، وبإخبارهم صدقا.

ولذلك أسلس الناس له القيادة، وحصل منهم تجاوب سريع معه، أحسن عمر استغلاله أيما إحسان، فطوّر نظرية أستاذه في التأليف، فجعل ابتداء التربية ينطلق من معالجة أعقد عقدتين في الجماعات، عقدة الفراغ، وعقدة حب الرئاسة والتنازع عليها.

فالمطالع لسيرة عمر يجد شدة اهتمامه بعلاج هذين العيبين واضحًا، وظل تأثيره في ذلك ينطق الشاعر بعد الشاعر، والحكيم بعد الحكيم، يستمدون من تجربته معاني الإصلاح.

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٠).

عرف عمر سيئات الفراغ، فأوجد للناس شغل خير ألهاهم، إن لم يكن عملًا عمرانيًا وسعيا في مصالح المسلمين، فشغلًا تأمليًا مع النفس، وفكراً في القلب، يفيضان من بعد عزمات فنهضات.

لقد أخرجهم من الغفلة والإهمال والبرود، إلى التذكر والفحص والاستدراك، وكفى بهذا الإخراج نجاحًا عند من يعرف تربية الجماعات.

وفي خطبه وكلماته كلها تسمية وإشارة إلى عيوب النفوس، وطرق إصلاحها، وترقب الموت، ورجاء رحمة الله، وخوف عقابه. ثم زاد فاستقدم الخوارج إلى دمشق، وأمرهم بإنهاء تمردهم ولزوم الجماعة، وذكرهم ضرر الفرقة، فبات جميع الناس في شغل وادكار، بمثلهما انتفع أبو العتاهية من بعد، فاتضحت له مثالب الفراغ، فقال:

ما أحسن الشـــــغل في تدبير منفعة أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف[1]

فالمشتغل جاد فيما هو فيه، يربي قلبه ويعلي همته، والفارغ الكسول يفتش في الفتن عن لهو يؤنسه.

ثم دعا عمر ثانية إلى زهد في المناصب هو أهم من الزهد في الأموال، واستخلص من الفتن التي حدثت في الصدر الأول دروساً ووعظ المستشرفين للرئاسة مواعظ أبانت فيهم حبها، بمثلها انتفع أبو العتاهية مرة أخرى، فحذرك:

أأخيّ من عشق الرئاسة خفت أن يطغى ويحـــــدث بدعة وضلالا[2]

وتخوفه هذا صواب لم يبالغ فيه، فإن شرع الله وعرف المؤمنين ينفران عن طلب الرئاسة، فمن طلبها تمحل لذلك ولا بد، فيزين الذميم، فتكون البدعة، ويقمع

(١) ديوان أبي العتاهية، ص١٦٧.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٥.

المخالف له ويعاديه، فتكون الضلالة، ومن نظر إلى عهد ما بعد عمر أدرك ذلك، فإن القلوب عزفت عما قبحه لها وآمنت، إلا قلبا واحدا من قلوب أقربائه، عشق الرئاسة، فسقاه السم، فمات عمر، فكان عصر الضلالة، والسنوات العجاف.

مدرسة الثوري تواصل التربية:

ولما هالت المربين تلك الضلالة التي عكرت صفاء تاريخ المسلمين بعد عمر: أصفقوا على ذم التنازع على الرئاسة وتحذير الأجيال اللاحقة منه، وجعلوه أصلا مستقلا من أصول التربية الإسلامية، يتجاوز أن يكون مجرد علاج واقع أرهق الذين بعد عمر.

للثوري كلام كثير جزل في ذلك تصدر به المربين يبدؤه بتقرير واقع الناس، فيقول: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة»[١].

ورؤياه هذه ظلت تؤرقه، حتى أمسك بقلمه يكتب رسالته المشهورة إلى صاحبه عباد بن عباد، وإلى كل عباد من الدعاة في كل الأجيال، أن: «إياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفَقَّد نفسك، واعمل بنية»[٢].

ثم جسد حقيقة ينساها طلاب الرئاسة فذكرهم أن: «من طلب الرياسة قبل مجيئها: فرت منه»[٣].

أي: يبقى عليه وزر الشوق الآثم، وزفرة الصدر الراغم، ليس إلا، ويرجع صفر اليدين، وبخفي حنين، لم يذهب لأبعد من فضح نفسه أمام جمهور العاملين.

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٩).
(٢) المرجع السابق (٦/ ٣٧٧).
(٣) تنبيه المغترين، ص٣٠.

وكما كانت نظرية الأشكال المؤتلفة مذهبا لعبيد الله بن عبد الله جسده في جماعة عمل متآخية استدركت التفرق، كان نداء الحذر في طلب الرئاسة مذهبا للثوري جسده في جماعة زهد محتسبة.

استدركت تفرقا آخر، ولانت لها نفس هارون الرشيد، فشغل الناس معه يحج أو يغزو، سنة فسنة.

ولعل الفضيل بن عياض هو أهم أركان تلك الجماعة التي عضدت الثوري في شرح مذهبه من بعده، أخذ صحبه وأخذ علمه، وتأخرت وفاته عنه قرابة ثلاثين سنة، كان يكثر خلالها ذم التكلف في طلب الرياسات، وعلى الأخص تركيزه على كشف النفسية المعقدة الغريبة التي يحملها طالب الرياسة.

يقول الفضيل: «ما أحب أحد الرئاسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحدًا عنده بخير، ومن عشق الرئاسة فقد تودع من صلاحه»[1].

ومن لم يجرب الأعمال الجماعية يستغرب مثل هذا أو يستبعده، ولكن الممارس يحفظ قصصا تصدق الفضيل أيما تصديق، فإن العمل الإسلامي حين يدع الانتقاء، ويلهيه التكاثر بالأعضاء: يدخله أصحاب التخليط، ويظهر في محيطه مثل هذا الذي وصفه الفضيل.

فمن لم يزهد في الرياسة صار ميؤوسا منه عند الفضيل، أي وإن زهد في الأموال وأطايب الطعام وجمال النساء، لأن «الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا»، كما يقول صاحبه وصاحب الثوري، الزاهد يوسف بن أسباط[2].

(١) المرجع السابق.
(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٣٨).

كلام لا يقولونه اعتباطا، بل كانت تأملاتهم في مصائر الجيل الذي مرقوه تعمل كعمل دوائر الإحصاء الحديثة، يحصون من كمل ونقص، ومن وصل ومن خانته قدمه، والعثرة التي عثرها، إن كانت في أول الطريق، أو عند أوسطه، أو لما كاد ينتهي ولم يبق له إلا خطوة الفوز، ثم يعطونك نتائج الإحصاء في أقوالهم هذه.

تجريب وتدرج:

وأخذ الشعر أيضا دوره في التحذير آنذاك، ولفت الشعراء أنظار المتنازعين إلى كثرة الأعداء من حولهم، وشماتتهم بالذي يحصل بين المؤمنين، وانتفاعهم به نفعًا مباشرًا في عمل جاد إيجابي يستغل فرصة انشغال المؤمنين بأنفسهم، فأرسلها شاعر ذاك العصر زفرة ألم:

إن التنـــازع في الرئاســـة ذلة لا تســـتقال، ودعـــوة لم تنصر

أوما ترون الشـــامتين أمامكم ووراءكم مـــن مضمر أو مظهر؟

وهذا في الحقيقة هو الوصف الدائم لظروف وآثار كل نزاع، بل إن كثرة الأعداء اليوم، وخططهم المنظمة، تجعل المحنة الحالية أعنف محنة مر بها الإسلام في تاريخه، وتستدعي أقصى درجات الوحدة الإيمانية بين العاملين.

والنجاة من فتن اليوم لن يكون إلا باللجوء إلى الشرط الذي وضعه سلفنا بالأمس وأودعوا فيه خلاصة تجربتهم في اكتشاف مسلك الوصول الصحيح إلى الرئاسة، فإنهم لم يعترفوا إلا بالطاعة طريقًا إلى القيادة، وجزموا بأن من لم يكن في آخر الصفوف، تغمره عجاجة المتقدمين فلن يستطيع أبداً قيادتهم إن شغر المكان واحتيج إليه.

ولذاك كانوا ليـــــس يرأس منهمُ من لم يجرب حزمه مرؤوســـــا

من لم يقد فيطير في خيشـــــومه رهج الخميس فلن يقود خميســـــا

قانون تدرج، ومرحلة اختبار، إذا أساء خلالها العامل أدب الجندية، واستعجل، وتطاول: جوزي بالحرمان، ودعي إلى التوبة، وأرجع إلى محل البداية يستأنف المحاولة.

لا.. يا عباد الرحمن:

ليس في هذا القانون اعتداء، ولا احتكار أو تجبر، وإنما هو صياغة تجريبية محضة لسنة النبي ﷺ، في اختيار الأمراء، فإنه كان يقول: «إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه»(١).

أي هذا الأمر من شؤون المسلمين، وشدد في النصيحة الصريحة لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، فقال له: «يا عبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»(٢).

مع أن عبد الرحمن من صالحي صحابته وشجعانهم، ويكفيه أنه لما التزم وصية النبي ﷺ، هذه صار قائد جيش المسلمين الذي كلف بفتح كابل عاصمة الأفغان، وكان حصنها من أمنع الحصون، وسقط عنده من شهداء المسلمين ما لم يكن في معركة أخرى.

(١) صحيح البخاري (٩/ ٨٠).
(٢) المرجع السابق (٩/ ٧٩).

الجندية طريق القيادة (القسم الثاني)[1]

في العدد الماضي.. نشر القسم الأول من هذا المقال.. ومن أجل الترابط الموضوعي في ذهن القارئ.. نذكر بأن الحلقة الأولى تركزت حول النهي النبوي الصريح عن طلب الإمارة أو الحرص عليها.. وأن هذا المسلك ليس من التدين في شيء، فطلب الإمارة ابتداء تطلع مذموم.. والحرص عليها استمرارًا إصرار مذموم كذلك.

كما تركزت الحلقة الماضية على أن الجندية الواعية هي الطريق إلى القيادة.

الحلقة الأولى كانت مشبعة بالاستدلالات الشرعية.. وهذه الحلقة مشبعة بالتحليل الفكري للمسألة.

سيد يشرح:

ولا يظنن ظان أن هذا المنع عن طلب الإمارة سيفوت فرصة الالتفات إلى خير صاحب الكفاية الصامت، فإن العمل اليومي يكشف ولا بد كل قابلية لدى الدعاة، وهي ظاهرة يؤكدها سيد قطب تأكيدا، فيتساءل «لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية مّا كي يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة؟»

ويجيب: «إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم، كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٢)، ١ ذي الحجة ١٣٩٣هـ/ ١ يناير ١٩٧٤م، ص٢٦.

يغري أحدا بالتزاحم عليه -اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى- ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم، وهؤلاء يجب أن يمنعوها، ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضا، إن الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع، فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية..

أولا: تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله -على عهد النبوات- أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله، على مدار الزمان بعد ذلك، فيستجيب للدعوة ناس، يتعرضون للأذى والفتنة الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة. فمنهم من يفتن ويرتد، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه، فيقضي نحبه شهيدا، ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، هؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستارا لقدره، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقيم مملكة الله في الأرض، أي لينفذ حكم الله في الأرض، ليس له من هذا النصر والتمكين شيء، إنما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ولا عند حدود جنس معين ولا عند حدود قوم، أو لون، أو لغة، أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا الإنسان، كل الإنسان، في الأرض، كل الأرض، من العبودية لغير الله، وليرفعوه عن العبودية للطواغيت، أيا كانت هذه الطواغيت.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين، وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم، تتميز أقدار الناس،

وتتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البلاء في الجهاد والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة، وكلها قيم يحكم عليها الواقع، وتبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع ويُعرف المُتَّسِمين بها، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية.

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية، كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام، في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا ولا ينكر الناس فضائل المتميزين مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع، وعندئذ تنتفي الحاجة من جانب آخر إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبون الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية.

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية، ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة.. لن يوجد اليوم أو غدا إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها.. وهذه نقطة البدء ثم تعقبها الفتنة والابتلاء كما حدث أول مرة، فأما ناس فيفتنون ويرتدون، وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه، يقضون نحبهم ويموتون شهداء، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام، يكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى في النار، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ويمكن لهم في الأرض، كما أمكن للمسلمين

أول مرة، فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي.. ويومئذ تكون الحركة نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية وفق الموازين والقيم الإيمانية..

ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم.

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى فإذا استقر المجتمع بعد ذلك؟

وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين، إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة، يتحرك لتحرير الإنسان.. كل الإنسان في الأرض.. كل الأرض، من العبودية لغير الله وليرفعوه عن العبودية للطواغيت بلا حدود من الأرض، أو الجنس، أو القوم، أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة.

وإذن، فستظل الحركة التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة تميز أصحاب بلاء وأصحاب الكفاءات والمواهب، ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن إلا أن ينحرف عن الإسلام، وسيظل الحكم الفقهي الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية قائما وعاملا في محيطه الملائم.. ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه.

ثم يقال، ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا، ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية.

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة.

إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين كما

هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه والالتزام في المجتمع المسلم، ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب فيهم بموازين وقيم إيمانية، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاءة، سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية.

أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد أو أهل الشورى له، يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم والجهاد ماض إلى يوم القيامة»[1].

وهذا الكلام لسيد كلام صحيح صائب يظهر صوابه على الأقل في الجماعة الإسلامية الحركية، إن لم نوافق على احتمال حصول هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي العام المحكوم بحكومة إسلامية.

بل إن أزمة الحركة الإسلامية الحاضرة أنها أزمة قلة المدربين والإداريين من أصحاب القابليات الممتازة والصفات العالية، ولن يغفل قائد عن ذي علم وتقوى متحمس في وقت يمسك فيه بالعدسة المكبرة يفتش عنهم تفتيشا، ولكن تجارب القادة تكره بعث وتأمير المتكلف المستشرف المغرور، فنظن نحن أنهم قد غفلوا عنه، وماهي بالغفلة.

الاستثناء لا يقلد:

أما قصة الصدائي رضي الله عنه، حين طلب الإمارة وأجابه النبي ﷺ، فإنما هي استثناء اقتضته المصلحة وأوجبت الظروف، وذلك أن رسول الله ﷺ، أرسل بعثه إلى اليمن ليحارب بني صداء فشفع فيهم أحدهم، وجاء وفد منهم إلى رسول الله ﷺ معلنين

(١) في ظلال القرآن، ج١٣، ص١٤.

إسلامهم، وكان هذا الشفيع مطاعا فيهم فطلب من رسول الله أن يؤمر عليهم فأجابه إلى ما طلب، ففي ذلك كما يقول ابن القيم:

«جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سأله ذلك إذا رآه كفؤا ولا يكون سؤاله مانعا من توليته، ولا يناقض هذا قوله في الحديث الآخر: إنا لن نولي على عملنا من أراده.

فإن الصدائي إنما سأله أن يؤمره على قومه خاصة، وكان مطاعا فيهم محببا إليهم، وكان مقصده إصلاحهم ودعاهم إلى الإسلام فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته فأجابه إليها، ورأى أن ذلك السائل إنما سأله الولاية لحظ نفسه ومصلحته هو فمنعه منها، فولى للمصلحة، ومنع للمصلحة، فكانت توليته لله، ومنعه لله»[1].

فها أنت ترى أنه هو الذي استنابه، إنهم من بلاد بعيدة منزوية ليس فيهم لو رجعوا أصلح منه، فأقره النبي ﷺ على طلبه ولا تحفظ في السيرة قصة أخرى مماثلة لها.

يوسف والخزائن:

كذلك قول يوسف عليه السلام للعزيز: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يُوسُف:٥٥].

فإنه «كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة، ليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع.

فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة، إنما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم»[2].

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٣).

(٢) في ظلال القرآن، ج١٣، ص١١.

وقد فهم الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي من قول يوسف: «إن من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره أو أمة لا يعرفون فضله، فخاف على نفسه، أو أراد إبراز فضله جاز له أن ينبههم عن مكانه وما يحسنه، دفعا للشر عن نفسه، أو إظهارا لفضله فيجعل في مكانه».

قال: «وفيه فائدة أخرى، وهو أنه إن رأى الأمور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي الأمانة ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية، جاز له أن ينبه السلطان على أمانته أو كفايته. ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي: من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جاز له أن ينبه السلطان على أمانته أو كفايته.

وقال بعضهم: بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به»[1].

وما ذهب إليه ظاهر الصواب أي في مواجهة الظالم والضعيف وعلى ذلك يحمل قول أصحاب الشافعي، ولكن يجب ألَّا يغيب عن البال أن يوسف كان يخاطب ملكا كافرا وأنه لم يطلب ما طلب إلا من بعد تعريض ظاهر بتأميره من قبل العزيز على ما يدل عليه سياق السورة، فإن العزيز قال:﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يُوسُف:٥٤].

فطريقة الإيجاز البلاغي القرآني حذفت ما يفهم ضمنا، فإن رسول الملك قال ليوسف فيما يبدو: إن الملك يدعوك وقد سمعناه يفصح عن رغبته في استعمالك وتأميرك. وتأكد ذلك ليوسف في الإشارة الواضحة في خطاب الملك له حين وصفه بالتمكن والأمانة.

وعليه فإن تجزئة تفسير قول يوسف وجعله نسبيا واجب، بالتضييق على الناس في تقليد يوسف، والتوسعة على آخرين.

(١) سراج الملوك، ص٧٩.

فمن كان من الدعاة مقربا من القائد مستعملا في عمل مهم يدل على أن القائد وثقه وقواه وأمنه إلى درجة سمحت له باستعماله وجعله من أعوانه فإنه يسعه إذا آنس من نفسه بعدا من الغرور أن يشير على القائد أن يستعمله في عمل آخر قريب في أهميته مما هو فيه هو أكثر إتقانا له، أو يرى أن مصلحة ما توجب ذلك خفيت على القائد. ويلجأ خلال ذلك إلى التعريض دون التصريح ما أمكنه ويعرض رأيه بأدب كامل ولفظ رقيق.

وأما من كان من الدعاة غير مستعمل في عمل من أعمال الدعوة، ويريد أن يطلب نوع عمل مهما صغر، أو مستعملا في عمل صغير ويريد أن يستعمل في عمل كبير لا يقاربه فالباب ضيق أمامه ضيقا شديدا، وتقييده بالأحاديث الصحيحة الواردة في المنع أصوب حتى ولو وجد في نفسه قوة وكفاية والله أعلم.

في التأني السلامة:

وخير له من ذلك أن يتأنى في تحديث نفسه بالإمارة، فإن التأني زين كله.

يتأنى أولا إلى حين اكتمال فهمه ووعيه ينفذ وصية عمر بن الخطاب ﷺ حين قال: «تفقهوا قبل أن تسوّدوا»[1].

فيجب على الداعية أن يتفقه لسيادة وقيادة من يأتي بعده من أفواج الآيبين إلى الإيمان.

ويتأنى ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية، فإن الأيام لا تزال تزيد المرء تجربة وعلما كما زادت الشاعر الذي خاطبك:

أُخَيَّ عندي من الأيـــام تجربة فيمـــا أظن وعلم بارع شـــاف

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٨).

فينفذ وصية الإمام الشافعي حين يقول: «إذا تصدر الحدث فاته علم كثير»[1].

ويتأنى ثالثة في ذلك أيام الفتن على الأخص، ويكون متوقفا حذرا ينفذ وصية أبي العتاهية هذه المرة:

اصبر على الحق تستعذب مغبته والصبر للحق أحيانا له مضض

وما استربت فكن وقافة حذرا قد يبرم الأمر أحيانا فينتقض[2]

وأقل ما في الفتن أنها ريبة كلها وقد ترى الفتنة أنها قد أبرمت أمرها وأحكمت خطتها، فينقذها وعي الدعاة المؤمنين.

نكلها إلى قادة أفضل:

والداعية المتواضع الثقة قد تعزف نفسه عن الإمارة لكنه يقع في اختلاف مع غيره عند ترشيحه للآخرين لبعض الإمارات فيسرع المختلفان إلى التعصب لاجتهاده، في فورة من الحماس، ويجزم كل منهما تخطئة صاحبه، أو الاعتقاد بأنه يخالفه لنوع هوى ومن باب التعسف.

ومثل هذه الظاهرة خطر ولا شك، لكنها تستحيل بسرعة إلى مجرد هاجس عابر خال من الضرر إذا انتبه كل منهما إلى وجوب مراعاة الآداب الشرعية في علاقات الدعوة، كما أسرع أبو بكر وعمر ﷺ إلى مراعاتها حين:

«قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد بن زرارة. قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس.

قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي.

(١) فتح الباري (١٧٥/ ١).
(٢) ديوان أبي العتاهية، ص١٣٧.

قال عمر: ما أردت خلافك.

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرَات:١](١).

ولا شك أن تذكير الدعاة دوما بهذا الأدب، والتطلع لقول قادتهم وإنفاذ اختياراتهم يجرد مثل هذه الخلافات من كل خطر بتاتا، فإن تشدد القادة وأقصوا عن المسؤولية أو عن الجماعة من لان أو انحرف أو خالف فبالحزم أخذوا، ليس في ذلك ضير.

وإن تساهلوا وعفوا وتجاوزوا، فبسد الذريعة وقواعد لم الشمل أخذوا، ليس في ذلك ضير آخر.

كل ذلك صواب في أعراف سياسة الجماعات، تؤيد الظروف النسبية المختلفة هذا المسلك أو ذاك ما لم يكن ثمة هوى، وعلينا طاعة القائد أو من استخلفه القائد. ورحمة الله على من تجرد وغلب هواه قائداً كان أو جندياً.

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢١٣).

أنوار الفطنة تبدد ظلمات الفتنة[1]

الجندية طريق القيادة، ويوجد ثمة غرور عند البعض وتجاوز يجب تشذيبهما، كذلك مضى فقه الدعوة صريحاً حاسماً، إنها صراحة والله، لا تظنن أنها خشونة فتهرب منها وتعافها نفسك، فإن أصررت على وصفها بأنها خشونة، فإنما هي خشونة التربية التي سلكها عبدالقادر الكيلاني من قبل، فظنوا كما ظننت، فقال لهم: «لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل»[2].

ونقول لدعاة اليوم كما قال: لا تهربوا من خشونة كلامنا وصراحته، فإن كلمات الدبلوماسية لا تنفع في تربية الدعاة، ولا أساليب الإيماء، بل هي الإشارة الواضحة فحسب تربي، بلا اعتداء وجرح.

أثناء التأني يكون الحساب:

وأولى للداعية المسلم أن يكون صريحاً مع نفسه قبل ذاك، يخلو خلال تأنيه في الفتن، وخلال انتظاره اكتمال فقهه، فيحاسب نفسه يعاتبها، ألا يقع في الشبهات.

فمن لم يحاسب نفسه في أموره يقع في عظيم مشـــكل متشابه[3]

فإن مهمل نفسه تزدريه الشبه، فلا تقنع منه بطفيف، وإنما تأتيه الشبهات كبيرة، عظيمة الأشكال، خفية التوريط، توهم القلب، فيتعكر الشعور، أو تؤلب اللسان،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٤)، ٢٩ ذي الحجة ١٣٩٣هـ/ ٢٢ يناير ١٩٧٤م، ص٣٢.
(٢) الفتح الرباني لعبدالقادر، ص١٦٢.
(٣) ديوان أبي العتاهية (٢٨٧).

فيلحن النطق، أو تميل بالأذن، فيتشوش السمع أو تغلق الأجفان فيغبش النظر ولا بد لطالب الفقه من حساب وعتاب.

ازدواج.. والقلب واحد:

يعاتب القلب: لمَ يكبح؟ ولمَ يريد قطع استرساله مع معاني الخير وعزمات العمل، ويأذن لإغراء الدنيويات أن يسامره؟

إنها ساعات التخليط أصبحت تطول في يوم الدعاة، وكأن سمت الأمس قد تغير.

ولو صدق أحدنا نفسه، وأفصح عن حقيقته، لاعترف بالذي اعترف به أبو العتاهية حين قال:

تزاهدت فـــي الدنيا، وإني لراغب أرى رغبتـــي ممزوجة بزهادتي[1]

فأكثرنا يقع في هذا التخليط: قدم في الدعوة، وقدم في الدنيويات والرغبات والآمال العراض، وقد أتعبنا الذين يربوننا وأرهقناهم.

فلا نحن ممن ييأس العمل منهم فيتركهم وهو في مأمن من اللوم، لقدم الدعوة ذاك، ولا نحن بالمشمرين حق التشمير فنريحه، بل يعوقنا قدم الدنيا عن سرعة انطلاق عرف بها جيل الدعوة الأول إلى أعلام ما زالت مرفوعة والله لنا كما رفعت له.

وما هي إلا ساعة عتاب واحدة تنهي تعدد الولاء لو تدبرنا.

هزة إيقاظ، لكتف غفلة، من لسان صراحة يعرف كيف يقول:

تيقظ، تيقظ، تيقظ.

تيقـــظ، فإنـــك فـــي غفلة يعيـــد بك الســـكر فيمن يميد

(١) المرجع السابق (٥٠).

تنافـــس في جمع مـــال حطام وكل يـــزول، وكل يبيـــد

كأنـــك لم تـــر كيـــف الفنا وكيف يموت الـــغلام الجليد

وتنقص فـــي كل تنفيســـة وإنك فـــي ظنك قـــد تزيد[1]

فهي الأحلام وأضغاثها تخدع، توهمنا أننا نزيد، وإنما هي الأنفاس تواصل نقصها، والسكر بالتكاثر يميد بنا فيمن يميد.

مصاعب ولا صمت لها:

ويعاتب الداعية من بعد لسانه: لم يستحل اللحن والهذر والجدال؟

ولو فقه المرء لأدرك أن صدق الاندفاع يغني عن صدق اللسان أصلاً، فهو في غير حاجة إلى كثرة كلام ولو كان صادقاً.

والداعية يسبق بفعله قبل أن يفصح بلسانه، يقتدي في ذلك بأبي الفضل بن مالك لما وصفه تلميذه الحند فقال: يسبق فعله قوله[2]، فإن قال واحتاج إلى النطق: فهو القول الواحد الذي لا يتبدل، وهو القول الواضح الذي لا تلعثم فيه.

إذا اختلفت سبل الرجال وجدته مقيماً على نهج من القول واضح[3]

نهج واحد، بوضوح كامل، يكشفان عن قلب في الصدر واحد، لا قلوب موزعة، وعن ثبات في صفاء، لم تكدرهما رجرجة ولا أخلاط، فإن اللسان ما زال يترجم للقلب، ولم تزل عفتهما سواء، ولهما شرف وعرض مشترك، وإنما فسق الألفاظ من فسق الشغاف، وما الألسن إلا مغارف للأفئدة، تماماً كما رآها البارحة يحيى بن معاذ

(١) المرجع السابق (٧٢).
(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٤٢٢).
(٣) ديوان البحتري (١/ ٤٤٩).

على حقيقتها فوصفها لك، ونبهك إلى أن: «القلوب كالقدور في الصدور، تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه؛ اغتراف لسانه».

تشبيه قد يكون ساذجاً كما يبدو لأول وهلة، لكن فيه روعة الحقيقة، وصدق الوصف؛ «اغتراف اللسان يذيقك طعم القلب».

ما كذب والله وما غلط، ولم يتقدم بين يدي الله المستأثر بعلم ما في الصدور، لكنها فراسة الإيمان؛ تسمع حركات اللسان وتميز نغماته، فترى الذي يجيش بين الضلوع.

ثم يأتيك صحب من دعاة بعد هذا، يملؤون ليلهم رئاء ومراء، وتشقيق كلام وتدقيق ألفاظ، والفرص تمر من بين أيديهم ومن خلفهم، يرقبون أن تتدلى لهم عجيبة الدنيا الكبرى في استئناف الحكم الإسلامي بحبل تدلياً، ويحلمون بقطاف لم يتقنوا سقي ثمره، ينسون أن الدهر لا يأتي بالعجائب، وإنما هي تضحيات الرجال وخالصات الفعال، لا اللغو، ولا تقليب الكفوف والمناحة على واقع المسلمين.

وصحاب في جدال ومضي غير صائب
يرقبون الدهر أن يأتي عنهم بالعجائب
فإذا واتتهم الأيام فالربان سائب
وتضيع الفرصة المثلي ولا تجدي المنادب
ضل من يأمل أن يقهر باللغو المصاعب[1]

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

ولئن سألتهم: لم التشقيق والتدقيق؟ ليقولن: نريد الفقه، ونبغي الوعي، ونتقن التخطيط، وهم بذلك قد أخطؤوا من حيث أصابوا، واختلط الحق الذي ذهبوا إليه بباطل من مخالفة أحكام التفاضل، فإنهم تمسكوا بفرع على حساب أصل ودندنوا حول سنن قد تفوت معها فرائض الأخوّة، ووعي قد تنسى الأرواح بعده دروب التأليف.

ولو تأملوا بهدوء وحسبوا ووازنوا، لعرفوا أن لقاء الدعاة الهادئ، تحت جناح التحابب والاحترام المتبادل؛ خير من طلب صاخب للوعي، فإنه لو لم يكن في اللقاء إلا تثبيت بعض الدعاة لبعض، وإلا السناد النفسي في مثل هذه المحن الشديدة والضراء الطويلة، لنال لقاؤهم وصف النجاح لكنهم صحب يستعجلون.

لماذا الجفاف يا عين؟

وعبر عتاب سريع من الداعية لأذنه، يلتفت خلاله إلى مناد يناديه أن: «يا أيها الرجل، لا تكن كالمنخل، يرسل أطيب ما فيه، ويمسك الحثالة»[1].

ويتعهد له أن يشيع أطيب ما يسمع، ويستر لفظ المستعجل النادم، وخيالات الحالم النائم:

ينتقل رابعاً إلى عتاب طويل لعينه
يسألها أولاً: لم تخطئ، فتختار الجفاف
وتقحط؟
وصواب من مقلة: أن تصوبا
كما يقول الشاعر.

(١) للأميري في ديوان ألوان طيف، ص٤٠٠.

فصوابها أن ترسله وابلاً صيباً على أرض الأخطاء، بين يدي رب عفو غفور يحب أن يتملق له عبده بالدمع، ويحب أن يسمعه، في الثلث الآخر من الليل، وبالعشي والإبكار، يحاسب نفسه ويلوم، ويكرر مع ابن القيم يخاطب نفسه أن: «لله ملك السماوات والأرض، واستقرض منك حبة، فبخلت بها، وخلق سبعة أبحر، وأحب منك دمعة فقحطت بها عينك»[1].

ويظل يرددها حتى يظن أنه قد استوفى إنذارها.

لا تظلم نفسك:

ثم يعاتب عينه من بعد ثانية: لم تنظر ضياء العمل الإسلامي ظلاماً؟ ولم تتشاءم بدل أن تتفاءل لدعوة الإيمان بالخير؟

نعم صعب هو الوصول لدولة القرآن، ولن يأتي الدهر بعجيبة من دون جد، لكنه ضياء كله العمل لها، ليس بظلام، وإن ظن المستعجل وجود تباطؤ، أو تعثر.

وهل أسطع من ضياء النية، وضياء الأجر، وضياء الأخوة؟

إن طول الطريق لن يعدم هذه الأضواء أبداً، ولئن يرجع الداعية بها وحدها خير له من قعود يوسوس به التشاؤم.

ولكن بعض الدعاة يظلمون أنفسهم بنظرة متشائمة إلى مستقبل الدعوة ويتهمون التخطيط والقادة والرعيل، فيعتزلون مجالات العمل الوضاءة وهي من حولهم تنادي وتهيب.

وإنما الظلام ظلام المتشائم فحسب، ليس بمطلق كان بالنسبة له هو وحده ظلاماً، إذا حبس نفسه عن الضياء، والأضواء تنير درب غيره.

(١) سراج الملوك، ص١٤.

وتفهيم المتشائم بهذه الحقيقة معضلة صعبة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يستطيع تصور ما نقول والتصديق بوجود الأضواء.

لكن عبدالوهاب عزام ضرب مثلاً تشبيهياً انتقل منه إلى التفهيم فأجاد، فافترض للمتشائم أنه في حجرة مقفلة سوداء، أليس يبقى من حولها ضوء الشمس؟

حجرة ملؤها الـــظلام حوتني وحوتهـــا أشـــعة القمـــراء

فلما أثبت هذه الحقيقة، قاس للمتشائم حاله عليها فقال معقباً:

رب نفـــس تلفهـــا ظلمات وهي في عالم كثيـــر الضياء[1]

أي كذلك النفس أحياناً، تضع نفسها في الظلام باختيارها والضياء من حولها كثير وافر، حتى تنسى تدريجياً أن هناك ضياء عافته، فتنكر وجوده فيعجب المستنيرون، فيزداد المحبوس الواهم إنكاراً، ويظن العجب تكلفاً وملاحاة، فيفتتن، ويصرخ في حجرته المغلقة السوداء فلا يجد إلا صدى الظلمات، فيزداد فتنة، يظن الصدى تأييداً.

لكن الذين فطنوا لمثال عزام في الساحات وعرصات العمل ماضون، تغمرهم أنوار الفطنة، وتغشاهم السكينة.

إنه الخبر القديم الحديث لأنوار الآمال وظلمات الفتن، ليس هو خبر من نراهم اليوم فحسب، فإن عبدالقادر الكيلاني صادف المستظلمين، فوضع لهم معادلة قصيرة سهلة، لو أدركوها لخرجوا من تيههم، فقال: «إذا خرج الزور، دخل النور»[2].

زور سوء الظنون في القلب، المسبب للتشاؤم وعبوس الوجه، فالظلام.

(١) ديوان المثاني العزام، ص٦٩.
(٢) فتوح الغيب لعبدالقادر، ص٣٧.

ابتسامة الحياء مفتاح الأنوار:

وخروج الزور يكون بالابتسامة وبانشراح الوجه عند اللقاء، فإن فيهما حماية أكيدة من الوقوع في أخطاء الظنون والتعرض لسهام الوسوسة، وما اكفهر وجه وعبس إلا ترك في نفس المقابل هيبة من التصارح والتناصح.

أفلا تـــــرى أن الطلاقـــــة جنة من سوء ما تجني الظنون ومعقل؟

ولا يطاوع الابتسام الفم إلا بلزوم حسن التأويل يرى الداعية الخطأ والاجتهاد المخالف فيسبق صاحبيهما إلى تلمس العذر والتبرير، ويميل إلى أجمل تفسير ويقف عند نصيحة الحارث المحاسبي لمناشدة أن: «احم القلب عن سوء الظن بحسن التأويل»[1].

ثم يحرص على أن يقرن الابتسامة والطلاقة بحياء لتتميز عن ابتسامة الاستصغار، التي قد يزينها الشيطان، بل يتخلق بخلق البهاء زهير حسين فخر فقال:

إذا قلت قـــــولاً كنت للقول فاعلاً وكان حيائي كافلـــــي وضميني

تبشـــــر عني بالوفاء بشاشـــــتي وينطق نور الصدق فوق جبيني[2]

فهما حياء وبشاشة، يبدوان معاً.

أو هي الفطنة، مفتاحها ابتسامة الحياء يبتسمها الداعية، فتتوالى الأنوار، وتفيض تباعاً، وتتكامل، يعضد بعضها بعضاً، لتبدد ما هنالك من ظلمات الفتنة وتعصم من قواصم الإغواء.

إنها مصادر نور أوقدها فقه الدعوة من قبل، لا تزال قائمة تضيء تنتظر من يلوذ

(١) رسالة المسترشدين، ص٨٩.

(٢) ديوان البهاء زهير، ص٣٦٣.

بها من المحتاطين الحذرين، والمستدركين التائبين؛ لتريهم درب السلامة الصحيح يوم تغزو الفتن زمرة القلب الواحد، ويستدرج التأويل الدعاة وتولد الغيبة سلاسل العيوب، ويرمي الشيطان بسهام الغرور والهوى والكبر وحب المدح، فتفترق الأرواح بعد تأليف، ويحتد التنازع في الرئاسة.

النور الأول: الاستعاذة بالله من الفتن؛ فأول قبس يتناوله الذي يرى الفتنة مقبلة قبس الاستعاذة بالله منها، كما أمرنا رسول الله ﷺ حين لقننا التعوذ منها بإطلاق، وكما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه لما تعوذ من فتنة الخلاف بين المسلمين، فقال، فيما أخرجه البخاري، حين بدت بوادرها: «أعوذ بالله من الفتن»، مع أن عماراً قد شهد له النبي ﷺ بأنه من فئة العدل، وتقتله الفئة الباغية.

قال ابن حجر في «الفتح»: «فيه دليل على استحباب الاستعاذة من الفتن ولو علم المرء أنه متمسك فيها بالحق، لأنها قد تفضي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه»[1].

فقل مع عمار، أيها الداعية، وردد: أعوذ بالله من الفتن، وأكثر منها في كل أحوالك، يعيذك الله منها ويقبلك ويعصمك، وإن كنت ساذجاً، فإنه سبحانه معين معيذ يرحم رجفة الخائف، وذلك الظن به عز وجل دوماً، فإن تجربة المستعيذين تجزم بأنه:

إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى بخالقه: نجاه منهـــن خالقه[2]

ولكن انتبه؛ ليست الاستعاذة العابرة تجزيك، بل أقرع باب الله بإلحاح، واهجر من يأبى القرع معك وتجنب صحبته، وأطرح نفسك على عتبة ربك العزيز بذل، حتى تسمع نداء الأمان.

(١) فتح الباري (٢/ ٨٩).
(٢) ديوان أبي العتاهية، ص١٧٦.

تلك وصية الناصح الحكيم، إليك وإلى الزاهد يوسف بن الحسين، لما شكا له يوسف من نفسه أخلاقاً لا يرضاها، وركوناً إلى الدنيا يفتنه، فكتب إليه أن: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك وفهمت ما ذكرت، ومخاطبك أكرمك الله شريكك في شكواك، ونظيرك في بلواك، إن رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب، فإن من قرع الباب ولم يعجز عن القرع؛ دخل، وإن تهيأ لك ما تريد من الصفاء والطهارة؛ فدع ما أنت فيه من البلاء واقتراف مساوئ لا تجدي عليك منفعة في دينك ولا دنياك، وتجنب قرب من لا تأمنه على نفسك في مواصلة الغفلة والبطالة، واستعن على ذلك كله بالقناعة والتجزي، وسله أن يمن عليك بتوبة»[1].



(١) اللمع للطوسي، ص٢٣٦.

تناصح.. وتغافر[1]

والله، إن أمر قرآننا لكما أقسم الله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ [الطَّارِق:١٣-١٤].

دور فصل جاد، أراده الله تعالى للقرآن، وسيرة مفاصلة جادة، ليس معها هزل، فرضت تبعاً لذلك على من يختار الانتساب إلى سرايا رجال القرآن.

وجد مقابل ليس بمستغرب، ما زال يتداعى إليه الباطل، حفاظاً على نفسه، ودفاعاً عن مصالحه، يرد به على جدنا.

وإذ بأمر دعوة الإسلام كله جد أنى نظرته، لا يستطيع فيها صاحب الفترة المتراخي أن يتمنى أمنية من أماني الهزل، ولا تنبغي له، وإلا فقد الثبات، وتدحرج أمام الجد الهادر السائر.

نـــــرى الدهر قد جد فـــــي أمرنا فيا ويـــــل تدبيرنـــــا إن هزل

وهذا ما يلقي على عاتق كل جيل من الدعاة، يشرفه الله تعالى بكفاية حاجة مرحلة متميزة من مراحل المعركة المستمرة عبر القرون، واجباً من التربية الصعبة، وسمتاً من التشدد في الاختيار، يكفل بها نقاء المجموعة وتماسك البناء.

إذا اختل شـــــيئاً بناء الأســـــاس تضاعف في الصـــــرح ذاك الخلل

وإنما ثمن هذا الأساس المتين أن يرفع الدعاة القواعد من التنظيم بشمول محيط وميزان، وأن يرمموا ما استهلكته الشبهات حين كانت تمر في ثنايا الأيام.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٥)، ٦ المحرم ١٣٩٤هـ/ ٢٩ يناير ١٩٧٤م، ص٣٢.

فلا بد مـــن رأب كل الصدوع ولا بـــد من قصـــد ذات الإله

وجمع الصفـــوف، ودرء العلل وحشـــد القوى، ليصح العمل[1]

ومعنى ذلك: أن نلجأ دوماً إلى تربية تسلك بنا في مسارين دائمين، وخطين متكاملين؛ مسار التجرد الإيماني، ونيل الرضا الرباني، بإطراح شهوة النفس، وتعليم تمييز الإلقاء الشيطاني، من خلال تأسيس تكتل ينوي عملاً حركياً فكرياً سياسياً، يتجاوز أشكال التعاون الاجتماعي الخيري.

ومسار الاستدراك، بعلاج ما هنالك من عيب طرأ بعد صحة، أو نقص فضح المنظر بعد كمال، من خلاف، أو تخليط، أو سير بلا تجديد تخطيط.

وأنوار الفطنة التي أضاء منها أول ما أضاء نور الاستعاذة بالله من الفتن، هي أنوار أوقدت لتنير مراحل من كل من هذين المسارين، فهي تؤنس المؤسس الرائد، كما تهدي العاثر المنيب.

فالعائذ بالله المستغفر يتوغل في دربه على ضوء:

النور الثاني، وهو: تنقية النية مما علق بها من شوائب.

نور آثاره خالد ﷺ يوم احتدمت اليرموك فقال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده»[2].

ونقول بالذي قال: إن أيامنا هذه التي نصاول فيها جاهلية القرن العشرين لاستئناف الحياة الإسلامية؛ إنما هي من أيام الله التي لها ما بعدها، فإنه لا ينبغي للداعية أن تجره فتنة إلى فخر وتطاول على أصحابه، ولا إلى بغي وعدوان على ذي إمرة قد بويع.

(١) هذه الأبيات الأربعة للأميري في ألوان طيف، ص٩٩.
(٢) تاريخ الطبري (٣٩٥/ ٣).

إخلاصاً يتجاوز معناه الوعظي العابر الذي تلوكه ألسن القصاص، إلى تأمل استقرائي صامت، يحمي ما جنته النيات المشوبة الممزوجة من موبقات وكبائر أضرت بسير الحركة الإسلامية الحاضرة، وهزته وأرادت له الحيدة عن خطه المستقيم، لولا أن الله عصم القادة، ومن عليهم بثبات وسكينة.

من أجل ذلك أوصى فقه الدعوة أن من لم يتعظ فيسارع إلى تنقية نيته؛ سارعنا نحن إلى تنقية الجماعة منه.

بهذا جزم الإمام البنا فقال: «إن الإخلاص أساس النجاح، وإن الله بيده الأمر كله، وإن أسلافكم الكرام لم ينتصروا إلا بقوة إيمانهم وطهارة أرواحهم، وذكاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم، وعملهم عن عقيدة واقتناع جعلوا كل شيء وقفاً عليها، حتى اختلطت نفوسهم بعقيدتهم، وعقيدتهم بنفوسهم، فكانوا هم الفكرة، وكانت الفكرة إياهم، فإن كنتم كذلك ففكروا، والله يلهمكم الرشد والسداد، واعملوا، والله يؤيدكم بالمقدرة والنجاح، وان كان فيكم مريض القلب، معلول الغاية، مستور المطامع، مجروح الماضي، فأخرجوه من بينكم، فإنه حاجز للرحمة، حائل دون التوفيق»[1].

انظر قوله: إنه حاجز للرحمة، ودقق في تاريخنا القريب؛ كم من قصة وواقعة لها لسان يتهم الشرط المتساهل في التجميع بحجز أشكال الرحمة المتعددة، من نصر وتمكين، وسكينة وطمأنينة، ووحدة ووفاق!

إن الكثير من عشرات السير مردها إلى هؤلاء أهل الشوائب الذين احتضنتهم الجماعة على سذاجة منها، وفي غفلة من نفسها.

وقديماً قال ابن الجوزي صادقاً: «إنما يتعثر من لم يخلص»[2].

(١) مجلة «الدعوة» العدد (٥٠).
(٢) صيد الخاطر، ص٣٥٥.

وهو وإن كان يعني بذلك الفرد، إلا أن للمجموعة أيضاً قلباً واحداً مشتركاً يضره مرض البضعة الصغيرة منه كما يفر مرض بعض قلب الفرد ذاك الفرد، فإذا مرض داعية برياء؛ تضررت جماعة الدعاة كلها بمرضه، وتعثرت، ومرض قلبها، حتى يتخلص منه بتوبة، أو تتخلص منه بإبعاد.

وقبل ابن الجوزي بقليل كان الكيلاني ينادي: «يا غلام، فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة، السير سير القلب»[1].

ومعناه الجماعي كذلك أيضاً، فإن مما يخشى على الدعوات أن تطيل لسانها، فتكثر من تأليف الكتب، وتتخذ لها من الصحف ميداناً، وتتعب درجات المنابر بخطبائها، وتترك تأليف الأرواح وتربية القلوب، فتقف لا تخطو نحو التمكن خطوة، كوقفة غلام الكيلاني.

وربما كان الضرر أبلغ من ذلك، فإن التعثر يبقى السير معه مستمراً، والوقوف يحفظ الجماعة سالمة قائمة على الأقل، لكن تلبس الجماعة كلها بالرياء قد يدفعها في طريق الاضمحلال الذي شاهده التابعي الربيع بن خثيم في أعمال الآحاد فقال: «كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل»[2].

فرياء الجماعات ليس بغريب، بل شوهد في التاريخ الفكري والسياسي مراراً، متلبساً شكلاً من التكلف للاصطلاحات، ومن التبني للاجتهادات الشاذة التي ربما زل بها لسان الفقهاء الأقدمين والمحدثين، أو مندفعاً في طريق التكاثر بالأعضاء على حساب النوعيات.

والظلام يزحف تدريجياً مع أشكال التراجع الثلاث هذه، فإن العاثر حين عثرته

(١) الفتح الرباني، ص٢٩.
(٢) طبقات ابن سعد (١٨٦/ ٦).

يكون رأسه أقرب إلى الأرض، لاهياً بتخليص نفسه من هويه، فينقطع عن رؤية المنار حيناً. والواقف يخدره السكون فتأتيه سِنة أو نوم، فيغتمض جفنه، وشأن المضمحل أوضح، وبذلك يتحقق كون الرياء من ظلمات الفتنة، وكون الإخلاص من أنوار الفطنة.

وبسبب ظلمته هذه وصف زاهد الصحابة شداد بن أوس ﷺ الشهوة التي تقترن به بأنها خفية، فإنه، حين حضرته الوفاة وطلبوا منه وصية يودع خلالها خلاصة فقهه في العمل قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية»[1].

أي أنها تتسلل مستغلة ظلام الرياء، ومع هذا فإن الاستدراك في هذا الباب بسيط جداً، فقد سئل التابعي طلحة بن مصرف عنه، فأرشد المرائي إلى أن يقول: «اللهم اغفر لي ريائي وسمعتي»[2].

هذا فقط من لسان ندم.

فاستغفر مما كان من رياء لا تعلمه من نفسك، الله يعلمه، وابدأ صفحة جديدة بيضاء، ثم سلام عليك إذ تقتبس لأهلك قبساً من النور الثالث، وهو: قبول النصيحة وطلبها من الخبراء.

وكان الحسن البصري ملحاحاً في الحث على هذا الخلق، لهاجاً في تزيينه، حتى جعله ثلث العيش، فقال: «لم يبق من العيش إلا ثلاث: أخ لك تصيب من عشرته خيراً، فإن زغت عن الطريق: قومك، وكفاف من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جمع، تكفي سهوها، وتستوجب أجرها»[3].

فزينة الحياة عنده، في جيل التابعين ذاك، كانت ترتفع عن الأرض وتتناقص، حتى

(١) زهد ابن المبارك (٣٩٣)، حلية الأولياء (٢٦٨/ ١).
(٢) حلية الأولياء (١٦/ ٥).
(٣) تاريخ بغداد (٩٩/ ٦).

لم يبق منها مما يرى إلا هذه الثلاث التي يتقدمها الأخ الناصح المقوم لاعوجاجك.

فكم ثمن بقية الزينة هذه في يومنا هذا؟ ثم جعل الحسن التقدم بالنصيحة خصلة ضرورية للمؤمن الذي «هو مرآة أخيه، إن أرى منه مالاً يعجبه؛ سدده وقومه ووجهه وحاطه في السر والعلانية»(١).

فالعين تنظر منها مـــا دنا ونأي ولا تـــرى نفســـها إلا بمرآة

وعند عمر بن عبدالعزيز هو من إحسان الصلات الإخوانية وواجباتها، وذاك قوله: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه»(٢).

وأما الحارث المحاسبي فقد جعله دليل الحب، فقال في رسالته للمسترشد: «واعلم أن من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك»(٣).

فمثل التقدم بالنصيحة: قبولها.

فالصادق يفرح بها، ولكن «وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين، إذ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأَعْرَاف:٧٩](٤).

وللناصح الحق في أن يسقط من عينه من يرد نصيحته، وأن يستن بسُنة الشافعي التي بينها في قوله: «ما نصحتُ أحداً فقبِلَ مني إلا هِبتُه واعتقدتُّ مودَّتَه، ولا ردَّ أحدٌ عليَّ النصحَ إلا سقطَ من عيني، ورفضتُه»(٥).

(١) زهد ابن المبارك، ص٢٣٢.
(٢) تاريخ الطبري (٥٧٢/ ٦).
(٣) رسالة المسترشدين، ص٧١.
(٤) إحياء علوم الدين (١٨٣/ ٢).
(٥) طبقات الشعراني (٤٥/ ١).

ولكن، إن عاش الشافعي حتى رأى من يرد نصيحته، فإن التابعين، في الجيل الذي قبله، كانوا يبادئون بالسؤال مبادأة، يرجون الإصلاح.

فعمر بن عبدالعزيز كان يقول لمولاه مزاحم: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعالاً لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه»(١).

وكان سيد تابعي الشام بلال بن سعد يقول لصاحبه عبدالرحمن بن يزيد: «بلغني أن المؤمن مرآة أخيه، فهل تستريب من أمري شيئاً؟»(٢).

وأصرح منهما ميمون بن مهران قدوة أهل الجزيرة، فإنه عرض نفسه على جمع من أصحابه وقال لهم: «قولوا لي ما أكره في وجهي، لأن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره»(٣).

هذا فعل الصالحين.

هو.. أو السماح للعيوب بالتراكم.

ولداعية اليوم في فعلهم موعظة ونور وبلاغ، ولا بد له أن يخرج من الفتن التي من حوله بأسئلة عمرية ميمونة، تبعث سمت الاتباع ذاك وتعيده حياً، فإنه لولا كِبر واعتداد رأيناهما لعقل مقدمات الفتن المندرسة جيل من المغرورين كثير عددهم، بطحتهم لوجوههم تباعاً، وأخذتهم أخذة رابية، وكان من الممكن أن ينجوا منها لو أعطوا من أنفسهم أذناً صافية، لكنهم كانوا قوماً يصدون.

وذهبت فتنتهم، وثبت الأجر للثابتين، وبقي طريق العمل الواسع اللاحب،

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١٨/ ٢).
(٢) زهد ابن المبارك، ص٤٨٥.
(٣) طبقات الشعراني (٣٥/ ١).

وبقيت أنوار الاستعاذة والإخلاص والتناصح، تقود السالك إلى نور رابع وهاج، هو: تغليب نفسية التغافر.

أوقده الزاهد ابن السماك واعظ هارون الرشيد لما: «قال له صديق: الميعاد بيني وبينك غدًا نتعاتب»، كأنها كانت هفوة من ابن السماك أو زلة تعكر لها قلب صديقه.

فقال له ابن السماك ﷺ: «بل بيني وبينك غداً نتغافر»[1].

وهو جواب يأخذ بمجامع القلوب، ملؤه فقه وواقعية، يشير إلى وجود قلب وراء هذا اللسان يلذعه واقع المسلمين، وتؤلمه أسباب تفرقهم.

وكذلك يكون استدراك الوازن لتسرع الحساس.

فلماذا التعاتب المكفهر بين الإخوة؟ كل منهم يطلب من صاحبه أن يكون معصوماً.

أليس التغافر أولى وأظهر وأبرد للقلب؟

أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته: رب اغفر لي ولأخي هذا، ثم تضمر في قلبك أنك قد غفرت له تقصيره تجاهك؟

أو ليس عبوس التعاتب تعكيراً تصطاد الفتن فيه كيف تشاء؟

بلى والله.

ولقد كان شاعر أسبق من دعاة يدَّعون الفقه، فراح يمرح ويتغنى:

من اليوم تعارفنا فلا كان ولا صار

وإن كان ولا بد ونطوي ما جرى منا

(١) اللمع للطوسي، ص٢٠٨.

ولا قلتم ولا قلنا من العتب فبالحسنى[1]

ثم يأبى إلا أن يزيد مرحه، فيبدل نغمته:

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا

لقد طال شرح القال والقيل بيننا من اليوم تاريخ المحبة بينا

ولا سمع الواشي بذاك ولا درى وحتى كان العهد لم يتغيرا

وما طال ذاك الشرح إلا ليقصرا عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى[2]

ثم يبدل نغمته ثالثة، ويتملق أصحابه ليديم محبة أخوية لذيذة قد ذاق طعمها الفريد، فيقول:

تعالوا نخل العتب عنا ونصطلح ولا تخدشوا بالعتب وجه محبة

وعودوا بنا للوصل والعود أحمد له بهجة أنوارها تتوقد[3]

فلا تخدش أيها الداعية، بالله عليك، وجه محبة منيرة ما زلت فذاً فيها والناس من حولك تستهلكهم العداوات، وإلا وضعت نفسك على شفير الاستهلاك، إن التغافر خير.

(١) للبهاء زهير في ديوانه، ص٣٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٤.

شرط بشرط[1]

دليل خريت، رفيق، عالم بديار آبائه وأجداده وشعابها، بينا هو يمشي معه سلاحه، في ليلة غياب القمر، بعيداً عن العمران، رأى تائهاً هائماً في الظلام، لا يميز معاني مواقع النجوم، أيتركه يهيم بين يدي الذئاب؟

فكذلك الداعية المجرب الذي لقنه المحنكون أصول الدعوة: ينكسر قلبه شفقة ورحمة كلما رأى هائماً في ظلمات الفتنة بين يدي أصحاب المطامع والأغراض فيؤمنه ويوصله أهله، ويؤنسه أثناء الطريق بدروس في مواقع النجوم وأبراج السماء ودلالتها على الجهات كي لا يضل ثانية، ويوصل غيره لو رآه تائهاً.

وأنوار الفطنة هذه هي: الكواكب الدراري في سماء الدعوة، تزداد بريقاً ولمعاناً كلما زاد الظلام لتزيل وحشة المنفرد، وتهدي التائه الطريق.

عتاب بمقدمة تفسير وخاتمة ابتسام:

وللتغافر الذي أصر عليه ابن السماك، وتنوعت له ألحان زهير البهاء، أهمية خاصة كأهمية نجم قطب الشمال بين نجوم السماء، فإن الكثير من حوادث نكوص الدعاة ترجع إلى فلتة لسان أو هفوة تعامل لم يغتفروها، والغفران منهم قريب.

أو إلى ظن يتوهمون معه حصول تعدٍّ تجاههم، أو تقصير وتمحيص الأخبار أو طلب التعليل منهم أقرب.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٦)، ١٣ المحرم ١٣٩٤هـ، ٥ فبراير ١٩٧٤م، ص٣٢.

ولو أنهم عتبوا بلسان خفيض من غير استفزاز لكان خيراً لهم، ولوجدوا من يثني على طيبهم كثناء الشاعر على أصحابه حين أسر طيب عتبهم قلبه فقال:

عتبتم فلم نعلم لطيب حديثكم

أذلك عتب أم رضا وتودد

وأظهر من ذلك خيراً لو قدم المستعتب بين يدي عتبة مقدمة تفسير، فيطمئن صاحبه أنها جلسة تصارح وتغافر، لا معركة تقارض وتناحر، وأنه يريد أن يفرغ ما في صدره أمام كفو له وحبيب، ترويحاً للقلوب، وقطعاً لمحاولات الشيطان، لا التماساً لسبب هجر، ولا تفكيراً باتهام.

ثم كم هي إيمانية هذه الجلسة، وكم روحانيتها لو ختمها بخاتمة ابتسام يقول معه لأخيه:

قد قضينـــا لبانة مـــن عتاب وجميـــل تعاتـــب الأكفاء

ومـــع العتب والعتـــاب فإني حاضر الصفح واســـع الإعفاء

فهو تعاتب أحباب، يؤتى لجماله، وإكراماً للذي يتوجه إليه العتاب، ليس فيه نوع انتصار للنفس، وقبول العذر بعده يكون أدعى وأحرى بالتقديم.

فعـــذرك مبســـوط لدينا مقدم وودك مقبول بأهـــل ومرحب

ولســـت بتقليب اللسان مصارما خليلي إذا مـــا القلب لم ينقلب

وهذا هو المهم.. المهم أن القلب لم يتقلب تقلباً دنيوياً تحركه الأهواء، وإنما كان يعتقد ما تمليه مصالح الدعوة، فيصيب ويأتي الخطأ، ولاجتهاده المصيب أجر بعد أجر، وأما الخطأ فينتظره تغافر بين الإخوة، وغفران من الله أكبر.

فإذا عرف السالك يسر التغافر، وغلظة الظلام طمع، والدفع نحو نور خامس، شعاعه التقوى في الغضب الهاجم، فلا يتكلم إلا حقاً وصدقاً.

قال المحاسبي: «يروى أن الفتنة لما وقعت قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى»[1]، فهي دواء عام يوصف لكل أعراض الفتن.

ولكن خصص بكر بن عبيد الله المزني مذهبين من مذاهب التقوى المتعددة لأصحاب الدرجات العالية، فقال: «لا يكون الرجل تقياً حتى تقي المطعم وتقي الغضب»[2].

فالداعية المرتقي لا يكمل إلا بأن يكون غضبه لله، فإن كان وصل إلى قمة أحمد بن حنبل، وشاركه في الفخر باعتلائها، فإنه كان «يغضب لله ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها فإذا كان في أمر من الدين اشتد غضبه حتى كأنه ليس هو»[3].

وإنما تتحقق هذه الصورة بإلجام اللسان، فلا يدعه حراً، وازناً كل كلمة يفوه بها، ألا يتهم بريئاً، أو يحتج بظن مجرد، أو يستنجد بسخرية وتنابز، فيقطع المحسن إحسانه بسببه، ويعتزل العزيز.

وذو التجربة يعرف ما يكمن في الكلام وطبائع نبراته من إمكانات الإصلاح والإفساد، فيتعود الحذر، ويدقق في وزن حروفه، إذ ها هنا يظهر الورع، فليس غير النادر الشاذ من الناس يستعمل يده ورجله للبطش والأذى، لكنه اللسان الذي أشار إليه عمر بن الخطاب فقال: «لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكنه من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل»[4].

(١) الرعاية لحقوق الله، ص٨.
(٢) الغنية للشيخ عبدالقادر الكيلاني (١/ ١٤٣).
(٣) مناقب أحمد، ص٢١٨.
(٤) زهد ابن المبارك، ص٢٤٣.

طنطنة التفاخر والتفقه، وأمانة الدعوة، وإعراض الدعاة العاملين.

ولذلك قال يونس بن عبيد: «يعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم»[١].

واعتبر الشاعر الرد الخاطئ جناية، فقال يصف مجادلة:

أخطـــا ورد على غيـــر جوابي وجنى على فقـــال غير صواب

وباللسان الطاهر، سبق من سبق، وتقدم أبو بكر بدر بن المنذر المغازلي الزاهد صحبه بمراحل فقال الإمام أحمد: «من مثل بدر؟ بدر قد ملك لسانه»[٢].

ملكه، وسيطر عليه، وتصرف فيه كيف شاء الورع لا كيف ينطلق الهوى.

وسئل إبراهيم الخواص الزاهد عن الورع ما هو؟

فقال: «ألا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضي»[٣]، فجعله كل الورع.

لا يعني بذلك نفي صورة أخرى للورع، وإنما راعى حاجة السائل وطبيعة الظرف التي راعها النبي ﷺ في حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٤].

فأنوار الورع وافرة، وامتلاك اللسان منها، ومنها أيضاً:

نور سادس، مصدره: وزن المسلم بحسناته وأخطائه معاً.

فنذكر لصاحب الهفوة المستفزة صوابه الذي قد يطغى عليها، ونرى للأمير المجتهد بذله وتاريخه وسابقاته المنتجة وعطاءه المستمر إذا خالفناه في مذاهبه.

والذي يتأمل الأعمال الجماعية يدرك أن معادن الرجال إنما تستبين في المواطن الحرجة التي تستدعي الفقه والقلب المؤمن، وبمواقفه فيها يرجح ميزانه إلى إحدى

(١) طبقات الشعراني (١/ ٥٥).
(٢) تاريخ بغداد (٧/ ١٠٤).
(٣) المرجع السابق (٦/ ٨).
(٤) صحيح البخاري (١/ ١١).

الكفتين؛ الجدارة أو الضعف، كمواطن الخلاف العارمة التي يطيش خلالها التعامل، والعذاب والمحن التي لا يصبر لها إلا مليء الهمة، ومواطن الإغراء وتسهيل كسب الأموال والمناصب التي لا يفضل الانغماس في أعمال الدعوة اليومية عليها إلا مطل ببصره على جنان عريضة.

أما الزلات العادية، واللمم والحرف الغاضب، والنبرة المنفعلة، وكسل يومين فلم يبرأ منها أحد، ولا يكاد.

والشريعة كلها قد بنيت على مراعاة هذا التكافؤ واعتبار هذه القاعدة في الترجيح، ورب الناس يزن بهذا الميزان يوم القيامة، ولكن البعض ينسى.

فمن أراد إتقان أدب الإسلام في الجرح والتعديل؛ عليه أن يعلم أن: «من قواعد الشرع، والحكمة أيضاً، أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل، فإنه لا يحتمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد «بدراً»، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال: «ما ضر عثمان ما عمل بعدها»[1].

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٧٦).

عائشة تطبق الميزان:

وكذلك حال حسان بن ثابت ﷺ، حيث قذف عائشة، وبقي حبه في نفس النبي ﷺ وأصحابه وأجيال المسلمين من بعدهم، للذي كان عليه من المنافحة بشعره عن رسول الله ﷺ، حتى إن عائشة ردت على ابن أختها عروة بن الزبير بن العوام لما سبَّه وقالت: «يا ابن أختي، دعه، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[1].

وقريب من ذلك شهادة أخرى لعائشة في أمر زينب بنت جحش أم المؤمنين ﷺ، فإنه كان بينهما ما يكون بين الضرائر، وكان في زينب من الطباع ما يؤخذ عليها، ولكن ذلك لم يمنع عائشة من إنصافها والثناء على فعالها الإيمانية، فقالت: «هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله عز وجل وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به، ما عدا سورة من حدة كانت فيها، تسرع منها الفيئة»[2]؛ أي سريعة البرود بعد احتداد غضبها.

وقد وضعتنا عائشة ﷺ هنا أمام نموذجين ينتقلان بنا إلى خطابين:

- نموذج زينب، ونخاطب بمناسبته هؤلاء الدعاة من إخواننا الأحبة الذين نشهد لهم بالدين وصدق الحديث وابتذال أنفسهم في أعمال دعوة الإسلام، لماذا تلازمهم حتى الآن فورات الغضب وحدة الألفاظ ويغلقهم العناد المتحدي؟

أليس البحث الهادئ أولى؟ أوليس الاقتداء بزينب في الرجوع السريع أجمل؟

- ونموذج عائشة نفسها، ونخاطب بمناسبته المتزمت المبالغ في تشدده، الذي يظلم إخوانه، فلا يعترف بفضل ذي فضل واسع إذا هفا، والذي يظلم الدعوة، فلا

(١) صحيح مسلم (٧/ ١٦٣).
(٢) سنن النسائي (٧/ ٦٥).

يدعها تنتفع بذي اختصاص مفيد خلط مع كفايته خصلة يعاب عليها.

إن سمت التشدد، وطلب الصفات المتكاملة، إنما يجب للقادة والمربين، وأما ما دون ذلك، فإن العمل الإسلامي ينتفع من كل إمكانية خير مهما ضمرت وصغرت، ويدير في فلكه كل متعاطف مهما أثقلته العيوب التي لا تعود بضرر على مجمل الدعاة.

وأولى لنا وأصوب أن نقتدي بعائشة ﵂ في إنصافها، وبتلميذها سعيد بن المسيب لما أسرع فهم طريقتها فأوجزها وصاغها بنداً في قانون الجرح والتعديل الإسلامي فقال: «ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه؛ وهب نقصه لفضله»[1].

والزم أخاك فـــإن كل أخ ترى فله مســـاوئ مرة ومحاســـن

وابتسم بعد الامتعاضة من قول تسرَّع به أخوك فندم، وأطل ابتسامتك، فإنا نحب أن نراك بها، ونحب أن نسألك عنها، ونحب أن نسمعك تقول:

أتانـــي مقال مـــن أخ فاغتفرته وإن كان فيمـــا دونه وجه معتب

وذكرت نفســـي عند امتعاضها محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب

فما باله إن لم يكن ذنباً وكان مجرد تدلل وتمنّع مما يكون بين الأقران حين تأخذهم نشوة الحمد على الهداية والإيمان إذ يرون أنفسهم -دون الناس- في المحل العقائدي الأعز الأرفع؟

أو إذا طلبت الأجمل فاستر ولا تخبر، وتخلق بخلق الكرام، واكذب علينا وقل: ما ثم إلا خير ووفاء.

(١) طبقات الشعراني (١/ ٢٦).

إن الكـــــرام إذا صحبتهـــــم ســـــتروا القبيح وأظهروا الحسنا

وما الناس إلا من مسيء ومحسن وكم من مسيء قد تلاقى فأحسنا

والتلافي يقتضي التأني، ومنح فرصة، وغمض جفن، لعل حياءه يغنيك عن لسانك، وعسى أن يرده حليب طاهر رضعه من قبل فيقبل.

أمنية ولا سعد لها:

فإذا رسخ فيك خلق الإنصاف، ووزنت غيرك بصوابه تزنه بأخطائه؛ كنت أهلاً لأن يصارحك أميرك في أمر لعلك تشاء، كما صارح ذاك الخليفة القوي الحجة من خلفاء المسلمين الأوائل جيل المسلمين الذي حكمه فقال: «أنصفونا يا معاشر الرعية، تريدون منا أن نسير فيكم سيرة أبي بكر، وعمر، ﷺ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر، وعمر!»[1].

ونقول لك كالذي قال: أنصف أيها الداعية، وكن عادلاً واقعياً، فإنك تريد من القادة إنجازاً لعله الآن في مثل صعوبة فتوح أبي بكر، وعمر، وأنت لا تهب دعوتك ما وهبه جند أبي بكر، وعمر.

تجمع الأموال، وتخشى الفقر، وتطيل سمرك مع زوجك، وتعطي الدعوة فضول الأوقات، ثم تريد أن ترى المعجزة.

كلا، كلا، بل شرط بشرط.

من أراد أميراً كأبي بكر فليكن كخالد.

رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٩).

ثم ليس أبعد من ذلك، فإن سُنة النبي ﷺ لم يطقها أبو بكر نفسه، بل قال: «أيها الناس، لوددت أن هذا كفانيه غيري، ولئن أخذتموني بسُنة نبيكم ﷺ ما أطيقها، إن كان لمعصوماً من الشيطان، وإن كان لينزل عليه الوحي من السماء»[1].

ولئن أخذنا القادة بسُنة نبينا ﷺ ما يطيقونها، ولكن لنا عليهم الحرص كل الحرص على تحري الأصوب والأصلح، وبذل المجهود في تحري المنافع للمؤمنين.

لقد قاتل أبو بكر بخمس عشرة مائة بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

حدث سعيد بن المسيب عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كانوا خمس عشرة مائة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية»[2].

فتعال أيها الداعية، ومعك خمس عشرة مائة، واشترط ما تشاء، وموعدنا معك الشجرة، هناك، اسمها «شجرة البيعة»؛ خضراء وارفة الظلال، نراك تحتها غداً إن شاء الله تعالى.

(١) مسند أحمد (٨٠) بسند حسن.

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٥٧).

إنه دم الدعوة[1]

يعتبر تاريخ الصدر الأول من السلف الصالح من مصادر فقه الدعوة الرئيسة، فإنهم بأفعالهم وطريقتهم في الحياة كانوا أفصح من خلف ينطلق بقلمه لتدوين فقه الدعوة من تأمل نظري مجرد، وقد حددوا بسيرتهم ما يجب للداعية من صفات، وما يسوغ للدعوة أن تملكه من أساليب ووسائل.

فبعضهم لم يتكلم بغير حديث رسول الله ﷺ إلا جملاً يسيرة، لكنه أرى الناس تطبيقاً رائعاً للحديث، وأفعالاً شدتهم إلى الاقتداء.

وإنما يرجى لدعوة الإسلام النجاح اليوم إذا أدركت هذه الحقيقة القديمة، لا بشيء آخر، فتحرص على أن تنزل ساحة العلمانية كل جوال فعال صامت، يُري الأرضيين من نفسه قوة، قبل أن يسمعهم من لسانه تفاصحاً.

ومحمد بن سيرين، التابعي البصري، قدوة من قدوات الصمت الناطق أولئك، وله مذهب في التجرد سماه صاحبه أبو قلابة الجرمي امتلاك النفس، فقال يفاخر بابن سيرين جمعاً من الدعاة: «اصرفوه حيث شئتم، فلتجدنه أشدكم ورعاً، وأملككم لنفسه»[2].

فالداعية يملك نفسه، ومن ثم فهو الذي يخطط لها طريقها ومستقبلها، ولا يدعها تملكه، فإن من لم يملك نفسه يفقد حريته، وتكون هي المستعبدة له، هذه دعوة الأحرار الأبرار، يتصدرها كل هر سريع الخطو، ومن رضي أن يكون مملوكاً ويرسف في الأغلال والقيود فإنما يكون في آخر القافلة أو تدعه وتمضي.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٧)، ٢٠ المحرم ١٣٩٤هـ/ ١٢ فبراير ١٩٧٤م، ص٣٢.
(٢) تاريخ بغداد (٥/ ٣٣٤).

ومنذئذ أضيف إلى فقه الدعوة شرط جديد من شروط الدعاة يلزم المتصدي أن يملك نفسه كما ملكها ابن سيرين، وأن يحررها من القيود كما حررها ابن سيرين.

وقد قال ابن السماك الزاهد من قبل: «إن الرجاء حبل في قلبك، قيد في رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك تحل القيد من رجلك»[1].

ويقصد بالرجاء الأمل الدنيوي، فإنه يقيد الرجل من الانطلاق في أعمال تتطلب التضحية وتضع إزهاق الروح وارداً في الاحتمال.

إنما ذلك الواهم فقط يغريه الأمل، أما الفطن فيدرك أنها قافلة ليست ككل قافلة، ويعلم أنها قافلة النور هو فيها، وأنها تسير في درب كله نور، قد توغلت فيه، فيحل قيود الطمع، ويواكبها، ويلازم أهلها إذ يرفعون أبصارهم إلى هالة.

النور السابع وهو: الالتفات إلى عيب النفس.

فينشغل الداعية بإصلاح عيوبه، ويدع إعابة الآخرين وتسقط زلاتهم.

وكان السري السقطي البغدادي يتخوف خوفاً عظيماً من سريان مرض تتبع عيوب الناس إلى جماعة السالكين إلى الله، فكثر تحذيره منه، وصنع إحصاءات خلقية اجتماعية لبيان مدى تأثيره السيئ وإظهار تعدد أنواع سلبياته، ووضع تقريراً طويلاً حفظت لنا منه كتب الزهد والرقائق فقرات منه كثيرة، وأجمل في خاتمته نتيجة استقرائه فقال: «ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلوب ولا أسرع في هلاك العبد، ولا أدوم للأحزان، ولا أقرب للمقت، ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبد لنفسه، ونظره في عيوب الناس»[2].

فهي سلبيات يعددها، كل منها يكفي لتعكير صفو السكينة الإيمانية.

(١) المرجع السابق (٥/ ٣٧٠).
(٢) طبقات الشعراني (١/ ٦٤).

وقد أشار في مقدمة تقريره إلى أن: «من علامة الاستدراج للعبد عماه عن عيبه، واطلاعه على عيوب الناس»[1].

فجعل بدايته استدراجاً؛ أي تغريراً من شيطان يمنّي ضحيته بوجود بعض لذة في آخر طريق وعر بعيد ويغريها بنيلها، فتلج، فتنقطع، فينفرد بها بلا نصير أو ظهير، فيقهرها، كما يقهر الجيش أعداءه الضعاف بإظهار تراجع مفتعل يغريهم بالتوغل دون حساب خط رجعة.

ولما نودي على السري بعد ذلك للولوغ في أعراض الناس وولوج مجالس إحصاء عيوب الآخرين ناداهم بأعلى صوته: «إن في النفس لشغلاً عن الناس»[2].

وإنها لصيحة يحق لها أن يصرخها كل دعاة الإسلام الآن، والخبير بتلبيس إبليس يدرك مزالق هذا الباب جيداً.

أسباب مرض الغمز وأعراضه:

والذين رصدوا أسباب هذا المرض الخبيث يؤكدون أنه ظاهرة دفاع عن النفس ليس إلا، فأصحاب العيوب يتوقعون نقداً لهم من ناصح أمين يظنونه مهاجماً، فيتداعون إلى أخذ زمام المبادرة وتحويل الهجوم بهمز ولمز من وراء ظهر.

وأجرأُ مَن رأيتُ بظهرِ غيبٍ
على عَيبِ الرجالِ ذَوُو العُيوبِ

حتى باتت هذه الخصلة فاضحة لكل ذي لسان طويل، مغنية عن الفراسة، فقال السامع للمهذار: «قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس؛ لأن

(١) المرجع السابق (١/ ٦٣).
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ١١٨).

الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها»[1].

ولذلك، كان السلف عموماً على أشد الخوف من هذا الخلق الرديء الذي قد يلبسه إبليس رداء النصح والأمر بالمعروف، وصاحب القلب الحي يميز هذا من هذا بوضوح، لكنها الغفلة التي ابتأس لها التابعي عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود حين كان يساعد أخاه عبيد الله في تطبيق نظرية تأليف الأرواح، فقال: «ما أحسب أحداً تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه»[2].

فالغفلة سبب ظاهر ولا شك، لولاها لاعتنى بملكه ولشغله الغرس وجني الثمار.

أما أهم أعراض مرض الهمز فهو تواصي مرضاه بإخفاء مناقب الغير وفضح هفواتهم.

رآهم كذلك النسابة البكري، فقال لرؤبة بن العجاج: «ما أعداء المروءة؟».

قال: تخبرني.

قال: «بنو عم السوء؛ إن رأوا حسناً ستروه، وإن رأوا سيئاً أذاعوه»[3].

ورآهم الشاعر أيضاً، متعجباً من حالهم وكيف أنهم:

إن يسمعوا الخير يخفوه، وإن سمعوا شراً أذاعوه، وإن لم يسمعوا كذبوا

ولا شر عند جماعة المؤمنين والحمد لله، لكن ذاك خلقهم دائماً، لا يعجبهم ما عليه المؤمنون من الخير، فإن حدثت هفوة يعلمون ما وراءها من نية صادقة طبّلوا وزمّروا.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ١٤).
(٢) حلية الأولياء (٤/ ٢٤٩).
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٦٨).

ومن أعراض هذا المرض أيضاً التهويل والمبالغة، واستعمال العدسة المكبرة للتفتيش عن صغائر الغير.

ذكر أبو هريرة ﷺ ذلك عنهم، فقال لهم: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسحب الجذع في عين نفسه»[1].

ثم رأى الشاعر منهم معانداً يأبى الإنصاف، مجدداً له قول أبي هريرة، ووبخه، وقال له:

وتعذر نفسك أما أسأت وغيرك بالصدر لا تعذر!

وتبصر في العين منه القذى وفي عينك الجذع لا تبصر!

علاج الهمز برقابة القريب:

ولكن ما جعل من داء إلا وجعل له من الأدوية ما يذهب به.

وكأي مرض نفاقي آخر، فإن الهمز يداوى أول ما يداوى بتذكر رقابة الله تعالى، فإنها الدواء العام الخاص، فيعلم أن الله من قلبه قريب، وعلى لسانه رقيب، ويسكت تائباً، ويعزف عن صاحبه لو أتاه من الغد بدعوة إلى جلسة غيبة، ويشرح أمره، ويحدثه عن النور الذي أناره الله في قلبه فأضاء زاوية كانت فيه مظلمة، ويقول له:

يمنعني من عيب غيري الذي أعرفه عندي من العيب

عيبي لهم بالظن مني لهم ولست من عيبي في ريب

إن كان عيبي غاب عنهم فقد أحصى ذنوبي عالم الغيب[2]

(١) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخاري (٢/ ٤٨).
(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٨٣).

ويقولها صريحة لصاحبه، ويهدده محذراً:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيكشف الله ستراً عن مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا[1]

فإن لم يصغ له تركه ومضى في طريق الأنوار، يبدد ما قد يكون هنالك من بقايا الظلام بنور النصح مع الله الذي أوقده له زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ ﷺ لما قال: «إذا نصح العبد لله تعالى في سره أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بذنوبه عن معايب الناس»[2].

فزين العابدين يجعل معرفة المسلم بعيوبه منحة ربانية، وأنها لكذلك والله، فإذا قرن التائب سكوته ونصحه لله بدعاء يتضرع في كمل نوره السابع.

ويستحب هنا له أن يكون خلف عبدالوهاب عزام يردد مناجاته ربه:

إن في النفس بغضة لناس أصلحني وحبينهم آلياً

واغسل الحقد والهوى من فؤادي واجعلني لكل حق ولياً[3]

يقول آمين، وينطلق من فوره بعد ذلك لإتمام أنواره، ويندفع نحو ومضات:

النور الثامن، وهو: صون الأذن عن استماع الغمز.

فيدعها في عافية من بعد ما عافى لسانه من تتبع زلات الناس وانتبه لعيوب نفسه إذ: «ليس من جارحة أشد ضرراً على العبد -بعد لسانه- من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعاً في الفتنة»[4].

(١) عيون الأخبار (٢/ ١٨).
(٢) طبقات الشعراني (١/ ٢٧).
(٣) ديوان المثاني، ص٩٧.
(٤) رسالة المسترشدين، ص١٢٢.

فســـــمعك صُن عن قبيح الكلام كصون اللســـــان عن النطق به

فاتك عنـــــد اســـــتماع القبيح شـــــريك لقائلـــــه فانتبـــــه[1]

وهذا ما يستدعيه التعجل الإيماني المستحب للسائر في طريق الأنوار، فإن استماعه للهماز يضيع عليه وقته الثمين إن لم يضره، ويفوت عليه الالتذاذ بمنظر شروق:

النور التاسع الساطع ببريق المسارة في نصيحة القادة.

فلما لم يعط النبي ﷺ جميلاً بن سراقة الضمري رضي الله عنه شيئاً من المال، وهو المهاجر المجاهد، وأعطى من هو دونه، وظنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إهمالاً لجميل، وأراد توثيقه، قام إلى النبي ﷺ مقترحاً.

قال سعد: «فسررته فقلت: مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا! قال: أو مسلماً»[2].

فذكر ابن حجر أن هذا الحديث يتضمن من الفقه: «أن الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان».

قال: «وقد يتعين إذا جر الإعلان إلى مفسدة»[3].

ولما طلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يكلم بعض الأمراء حول أمر ضجروه منه قال: «إنكم لترون أني لا أكلمه؟ إلا أسمعكم إني أكلمه في السر دون أن أفتح باباً لا أكون أول من فتحه»[4].

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٢٥٧.
(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٤٧).
(٣) فتح الباري طبعة البابي (١/ ٨٨).
(٤) صحيح البخاري (٤/ ١٤٧).

فأخبرهم أنه لم يغفل عن ذلك، وأنه كلمه، ولكن في السر، خوفاً أن يستغل أهل الأهواء كلامه، فيتخذونه ذريعة إلى الفتن والمفاسد.

فلهذا يسمى هذا النور نور أسامة، وما زال يتولى إيقاده من دعاة اليوم كل أسامة.

ولا تعن سفاكاً!

ويصور لنا أبو معبد عبدالله بن عكيم الجهني، وهو أحد قدماء التابعين المخضرمين الثقات ممن أدرك زمن النبي ﷺ ولم يره، مبلغ أساه وندمه وحسرته على كلمات تفوه بها زمن عثمان رضي الله عنه نصحه بهن جهاراً، يظن أن فيه مساوئ، وحاشا الراشد الثالث من المساوئ، فتلقف كلماته أصحاب الأغراض، واستباحوا دمه الشريف بهن وأمثالهن.

ورامـــــوا دم الإسلام لا من جهالة ولا خطأ، بـــــل حاولوه على عمد

ففي حلقة دراسية انعقدت في المدينة لتدريب وتفقيه الجيل الجديد من رجال دولة الإسلام المكلف باستدراك ما صنعته الفتنة، حاضر عبدالله بن حكيم، وطفق يلخص لهم تجارب المخلصين، فقال: «لا أعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان».

وكانت كلمة مثيرة منه حقاً.

وتأخذ الجميع أطراقه، فما ثم إلا عيون تتبادل النظر مستغربة ما يقوله الرجل الصالح.

ما لهذا الشيخ البريء المؤمن الذي لم يرفع في وجه عثمان سيفاً أبداً يتهم نفسه ويلومها على ما لم يفعل؟

وينبري جريء لسؤاله: «يا أبا معبد، أو أعنت على دمه».

فيقول: «إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عوناً على دمه»[1].

فهو يتهم نفسه بجزء من دم عثمان؛ لأنه رأى بأم عينه كيف أن ما ظنه وقام في نفسه من أنه الحق قد أدى إلى استغلال الرعاع له حين تكلم به، وكيف طوروه حتى قتلوا عثمان رضي الله عنه.

إنها حساسية النفس الصادقة في توبتها ينطق بها ابن عكيم، مع أنه ما كان يكره عثمان حين تفوّه بتلك الكلمات، فإن ابنه يقول: «كان أبي يحب عثمان»[2].

وهذا يقتضي أنه قال كلماته الناقدة بلهجة المحب وما فيها من الرفق واللين، ومع ذلك نتج عنها من المفاسد ما نتج، فكيف لو انضاف إلى علانية النقد لفظ رديء وعبرت عنها لهجة عنيفة؟!

إن الجيل الجديد من رجال دعوة الإسلام الحديثة -إذ هو ينفقه اليوم في حلقاته الدراسية لاستدراك ما صنعته فتن الأمس- مدعوٌّ إلى ملاحظة المغزى العظيم المهم لقصة عبدالله بن عكيم، وتجربته الصادقة، لا تكن ساذجاً أيها الداعية، فإنها تحريشات من حولك لسفك دم الدعوة، احذر، والتفت إلى عيب نفسك، وصُن سمعك، وسارر بنصيحتك ونقدك، ولا تعن بلسانك.. إنه دم الدعوة.



(١) رواه البخاري في تاريخه الكبير (ج/ ق ١/ ٣٢) بسند صحيح، وابن سعد في الطبقات (٨٠/ ٣).
(٢) تهذيب التهذيب (٥/ ٣٢٤).

دعوة القول الطيب[1]

منظر جميل في كل بلد؛ منظر أولئك البسطاء المتواضعين من أهل الأرياف والقرى حين يجتمعون يوماً في الأسبوع يقيمون سوقهم فيما بينهم، فيتبادلون إنتاجهم مقايضة، ويبيعون للغريب ما جمعوه جملة، بلا ميزان مدقق أو حساب طويل، يبنون تعاملهم وبيوعهم على النيات البيضاء، والحياء، والقناعة، وأسس الكرم، وشكر الله على ما يمنحهم من رزق، حتى إن أحدهم ليذهب من سوقه ليبذر بذره، فيقول مع كل حفنة حبوب يرشها على أرضه: للطير وما قسم الله يرى للطير حقاً في كرمه.

لكن التعقيد والتدقيق إنما يكون في أسواق المدن، ونبات التطفيف تجدها عند كثير ممن يبيع أو يشتري من أهلها، يريد البائع أعلى ربح، ويريد المشتري أرخص ثمن، ولذلك احتاجوا إلى الموازين واعتبروها حكماً بينهم، وباتت تبعد شبهة التطفيف والمخادعة عن الطرفين، فلا يبقى أحدهما قلقاً، كما أصبحت تمنع شهوة التطفيف بعد ذاك، فلا يستطيع أحدهما التحايل، خوفاً أن يفضحه الميزان.

وأنوار الفطنة هذه التي ما زلنا نمشي في أضوائها إنما هي موازين أيضاً، ترد الشبهات وتجليها، وتبرد الشهوات وتسكنها، إذا لف التعقيد مجتمع الدعاة واستعرت الفتن أو اقترب ظلامها، ولذلك كان ابن تيمية كثيراً ما يصف المؤمن بأنه صاحب «بصر نافذ عند ورود الشبهات، وعقل كامل عند حلول الشهوات»، وركز على وجوب غلق هذين البابين اللذين تقتحم الفتن منهما حصن الجماعات؛ الشبهات والشهوات.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٨٩)، ٤ صفر ١٣٩٤هـ/ ٢٦ فبراير ١٩٧٤م، ص٣٠.

لكن، لو تعامل الدعاة بالنيات، والقناعة، والتواضع، والشكر على نعمة الإسلام والانتساب للدعوة، لوهبهم الله صواب الخطو بلا تكلف، ولما احتاجوا إلى ميزان وتدقيق، ولغشيتهم السكينة التي ينام أهل الأرياف في ظلها، غير أن فيهم نفراً يطففون.

حقيقة يجب أن نعترف بها.

لقد تعقدنا بعض التعقيد، وتركنا سمت البساطة، ومازج التكلف طبيعتنا المنسابة المنسرحة الهينة اللينة التي أودعها الرعيل الرائد فينا، ولا بد من علاج بمتابعة طلب هذه الموازين الأنوار.

شبهة معترضة:

ولقد وصف النور التاسع بأنه ساطع، لما للمسارة في نصيحة القادة من بريق لامع يحرم الفتن من بيئتها الطبيعية التي تتوالد فيها.

ولكن ربما ظن داعية أن المسارة في النصيحة تنافي طبائع الإسلام وسمته في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأى في إنكار المرأة على عمر رضي الله عنه في المسجد جهاراً دليلاً ينفي نورانية المسارة.

والأمر ليس كذلك عند من عرف مقاصدنا، إذ لو افترضنا صحة قصة إنكار هذه المرأة على عمر -التي يضعفها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني- وفحصها فحواها، لما وجدنا لها علاقة بسياسة أو عقيدة أو موقف عام جماعي، وإنما تتناول أمر مهور الزوجات، أو أمر توزيع بعض العطايا على من له حق في بيت المال، في قصة أخرى تُروَى، فضلاً عن أن العامي المجهول الذي اعترض، أو المرأة المجهولة، لا يصلح عملهما أن يناهض الأدب الذي اختاره سعد بن أبي وقاص، أو أسامة، وهما على ما يعرف عنهما من الفقه والتجربة، ولا أن يكونا مصدراً لأصول الدعوة، وابن حجر

يفتيك، بعد ابن عكيم، بوجوب الإسرار عند خوف المفسدة.

إن نصيحة قادة العدل الذين يتحرون السير على موجب فقه الراشدين غير مواقف العلماء الجريئة في الإنكار على الظلمة والمبتدعة، وإنما ندعو نحن إلى مسارة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمر معاشهم اليومي، بل فيما يتعلق بسياسة المجموعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة، وفي أيام الفتن خاصة؛ خوفاً من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلة بظاهره، إذ تصبح النصيحة في موطن يوجد فيه مثل هؤلاء مترددة بين مصلحتين؛ مصلحة علانية النقد، ومصلحة عدم إتاحة فرصة لاستغلال المغرض أو لاغترار الساذج به.

وبين ضررين؛ ضرر الاقتصار على أسماع النصيحة لنفر قليل فقط، وضرر الاستغلال والاغترار، فيعمل بالقاعدة الفقهية العامة في دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وجلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وهي قاعدة أجمع الفقهاء على اعتبارها، ويقرها العقل، وتوجبها التجارب الوافرة في تاريخ الإسلام القديم والحديث.

بل وإن عمر ﷺ قد أسرع هو نفسه قبل غيره إلى الامتناع عن بحث الأمور العامة أمام الجمهور الواسع الذي قد يضم المغرضين والسذج، واقتصر على إسماع من يظن فيه الفقه والنبل فحسب، وذلك حين أراد أن يقوم في مكة أيام موسم الحج خطيباً ليفند لغطاً لغط به بعض الجهال حول بيعة أبي بكر ﷺ وأحداث يوم السقيفة.

فقال له عبدالرحمن بن عوف ﷺ: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وألا يعوها، وألا يضعوها على

مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسُّنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها.

فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة»[1].

فها قد تضافر لدليلنا من جديد؛ رأي ابن عوف، وفعل عمر، ﷺ.

وهكذا الداعية، لا يضع كلامه إلا عند من هو أهل لوعيه، وليعتبر بما رأينا في الفتن، فإنها تكون أول ما تكون خفيفة، ثم يتلقف أصحاب شهوة الرياسة نقد الثقات، ويزيدون فيه عشرة أمثاله، فيكون هدماً.

إن الداعية الفطن الكيس إن كان عنده قول يرى أن لا بد من قوله لغير قادته فإنما يقوله لأهل الفقه من الدعاة وأشرافهم الذين تأدبوا بآداب السُّنة طويلاً، ويسارر به، لا يوزعه ها هنا وها هنا.

يسارر، أو يتحرى العلماء النبلاء العقلاء القدماء، أصحاب الأقدام المنظورة المأثورة، ثم يسرع بعد أن ألقى التبعة نحو

النور العاشر، وهو:

الإقلال من الكلام.

فإنما يسألك الله عن فصاحة قلبك لا عن فصاحة لسانك.

ولا شك أنها مسألة نسبية مسألة اللسان، فليس أحسن وأبلغ من سكوت إذا كثر اللغط، ولا أجمل من كلام الناصح الآمر بالمعروف إذا أصلح.

فالمؤمن، كما يقول المحاسبي: «يحسبه الجاهل صميتاً عياياً، وحكمته أصمتته،

(١) صحيح البخاري (٨/ ٢٠٩).

ويحسبه الأحمق مهذاراً، والنصيحة لله أنطقته»[1].

وهو ذاك النموذج الذي رآه الشاعر:

ضحوك الســـــن: إن نطقوا بخير وعند الشـــــر مطـــــراق عبوس

فطلب منك تقليده بعد أن رأى جمال تقلبه في الحالتين، فقال:

تكلم وسدد ما اســـــتطعت فإنما كلامك حي والســـــكوت جماد

فإن لم تجد قولاً ســـــديداً تقوله فصمتك عن غير الســـــداد سداد

وهذا هو عين الصلاح الذي أراده الصالحون لكل لسان، فمن صلح لسانه عندهم؛ أي نطق بالخير وسكت حين الفتن؛ صلح عمله كله.

وفي ذلك كان التابعي يونس بن عبيد يقول: «خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما؛ أمر صلاته، ولسانه»، ثم زاد فقال: «ما صلح لسان أحد إلا صلح سائر عمله»، فهو المفتاح المبارك، ولود الخيرات، من أصلحه تفتحت فيه البصائر، وهجر الكبائر والصغائر.

الكلمة الطيبة ترفع درجات:

ولذلك كثر كلام رسول الله ﷺ في بيان أهمية اللسان، وجعل سكوته في موطن الشبهة ترجمة الإيمان، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[2]، وفي لفظ: «أو ليسكت»[3].

فقول الخير من الإيمان، حتى إن الكلمة الواحدة لترفع صاحبها درجات، كما

(١) رسالة المسترشدين، ١٠٦.
(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٢٥).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٠).

في قول النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات»[١]، ومن أجل ذلك رغب في هذه الكلمات الخيرة، فقال: «أطيبوا الكلام»[٢].

يدلهم على باب الدرجات، وسلم العلو، إذ ليس أروع من كلمة حق منك، أو إصلاح، حين يفتتن لسان غيرك.

فإن عجز المرء: فإنه السكوت، إذ ربما تبدل الكلمة الواحدة ميزانه فيردى، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم»[٣]، والميزان في هذا هنا في الأقوال كما في الأعمال، هو قول رسول الله ﷺ: «إذا حاك في نفسك شيء فدعه»[٤]، فإن «أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»[٥].

فلينظر داعية نفسه، وليرفق بها، وليلزم الجمل المفيدة، وحروف البناء، وليطب كلامه، يكون طيباً يهدي من القول طيباً، فإن نصف التربية قول موجه، وليدع حرفاً حاك في الصدر، فإن الشيطان يؤز، يحرف النفس إلى طلب انتصار وغلبة، فتكون الوخزة، والتهمة المتسرعة، والنبزة، أو يشجعها على طلب سلامة ودعة، فتكون حروف اللين.

والطريق الأقرب لهذا الرفق الطيب؛ أن يتشبه الداعية بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقلده في خلقه، لتشمله دعوة النبي ﷺ حين دعا له فقال: «اللهم أهد قلبه وثبت لسانه»[٦]؛ فلم يتقلب لسان عليّ.

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٢٥).
(٢) صحيح الجامع الصغير للألباني (١/ ٣٤٠).
(٣) صحيح البخاري (٨/ ١٢٥).
(٤) صحيح الجامع الصغير (١/ ١٩١- ٣٨٥).
(٥) المرجع السابق.
(٦) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٧).

فانظر: لم يكتف حتى ذكر اللسان، وبين أن ثبات اللسان قرين هداية القلب أو نتاجها!

وإلا، فإن لنا حين نرى لساناً قلقاً لاحناً أن نتهم القلب الذي تحته بعدم استكمال الهداية، وأنه بحاجة إلى الواعظ الناصح الذي يعلمه الفصاحة في الحق، ويدق له وتداً يثبته في تيارات الأهواء.

وإنما هو نموذج دعاء حفظه الرواة فرووه لك، تعليماً للغة الدعاء وتلقيناً، كي تقول لأخيك يوم ترى بوادر الفتن: «اللهم أهد قلبه وثبت لسانه».

تقولها بعد قولك: «اللهم اغفر لي ولأخي هذا»، معاً، مرة بعد مرة، كلما لقيته.

صواب القول من صواب العمل:

وبهذا تكون قد أديت واجبك، وأحسنت أجمل الإحسان الأخوي.

أما فقه الدعوة، فمن واجبه أن يستمر في عرض غرر النصائح، لعل حريصاً ينتفع، أو جريئاً يتأنى، ليتأمل وصية أبي بكر الصديق ﷺ إذ يقول له: «أقلل من الكلام، فإنما لك ما وعي عنك»[1].

أو وصية عمر الفاروق ﷺ إذ يترحم فيقول: «رحم الله امرءاً أمسك فضل القول وقدم فضل العمل»[2].

أو وصية أبي الدرداء ﷺ لما ذهب في الصراحة لأبعد منهما فقال: «أنصف أذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أذنان اثنتان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تقول»[3]، تلك وصاياهم.

(١) عيون الأخبار (١/ ١٠٩).
(٢) عيون الأخبار (١/ ٣٣٠).
(٣) عيون الأخبار (١/ ١٧٧).

كانوا جيل جهاد وبناء، ربته المعاناة والممارسة، وصقلته الشدائد، وعرفوا من خلالها قدرة البذل الصامت على تناوش الغايات، فخافوا أن يقطع هذر ما نصرهم المسترسل في سيره.

إن اللغو شين كله، وضرره أيام التمكين ليس أقل من ضرره أيام المحن.

وعلى دعاة الإسلام أن ينطلقوا اليوم من هذه الحقيقة، فينطقوا فيما بينهم بالخير الواسع، والمعنى الكبير، والفقه المفيد، في عبارة ضيقة المبنى موجزة، فإن الإكثار مظنة الخطأ، من غيبة، أو تهمة بريء، أو اضطرار لاستعمال دليل ضعيف، ومن وجد في نفسه بقية شوق إلى تحريك اللسان فدونه القرآن، ومزيد التسبيح، والحمد، ودونه مجالس الواهمين والدنيويين، يصدع فيها بحق الإسلام ما شاء.

نمط تربوي لا بد منه لجيلنا، كي تتهيأ الجوارح لفضل فائض من العمل، بمثله أمات عمر الفتن في جيله، فانبغت له الفتوح.

هذا، أو التردي المعاكس الذي لا يقف، بل يستمر نازلاً هاوياً، فإن القول والعمل مرتبطان، فإن أخطأت العمل؛ احتاجت نفسك إلى ستر الخطأ بخطأ من القول آخر زوراً

ذلك ما لاحظه أحد الصالحين فقال: «لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل»[1].

هكذا، في متوالية رديئة، تقدم ستر الفضيحة على قول الحقيقة، والتبرير المدلس على التوبة والاعتذار، في ظن بعيد من الانتصار يراه قريباً، واللحن يهتك حجابه.

وذهب الصمت عرفاً!

وكان نتاج ذاك الحرص الراشد على الصمت الفعال فوجاً آخر من التابعين يترادفون على درب العمل ويجددون النصح التربوي بإقلال الكلام.

(١) سراج الملوك للطرطوشي، ص٣٧٥.

منهم التابعي المهلب بن أبي صفرة الأزدي حين يقول: «يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائداً على لسانه»[1].

كلمة تستوي في ظاهرها مع ما نسمع من طرف لسان أكثر الوعاظ، لكنها عند من يعرف المهلب قائداً متحمساً لقتال الخوارج تمثل حساسية روح وخزها شذوذ الخوارج عن إجماع المسلمين، ولذعة قلب كواه تفاصحهم وتبجحهم الزائد إزاء عقل يناديهم باجتماع تتمكن معه جيوش الإسلام من مواصلة الزحف على معاقل الكفر بدل تطاحن داخلي بين طرفين كلاهما موحد.

ثم عمر بن عبدالعزيز الذي يقول: «من عد كلامه من عمله؛ قل كلامه»[2].

يذكرك، لعلك نسيت، أنك تحاسب على الكلام حساباً مثل الذي على عمل الجوارح.

وانظر الترابط بين مشاهدته الواضحة لهذه الحقيقة، ورشده وعدله وطبيعة حكمه الفذة.

حتى إن المطالع لكتب المواعظ ليكاد يرى تواطؤاً بينه وبين أساتذة التربية الذين عضدوه على إقرار الإقلال من الكلام خطأ تربوياً للمجتمع، ومن أبرز هؤلاء الحسن البصري، وميمون بن مهران، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة، وبقية فقهاء المدينة.

ونقلة قريبة إلى الجيل الذي بعدهم ترينا استمرار هذا السمت عند الثقات، ففي مرثية المحدث الثقة محمد بن كناسة الكوفي لخاله الزاهد المشهور إبراهيم بن أدهم إشادة بهذا الخلق وبيان تكامله مع الصفات الإيمانية الأخرى وارتباطه بها، فيقول:

زهود يـــــرى الدنيا صغيراً عظيمها وفيّ لحـــــق الله فيهـــــا معظما

(١) تاريخ بغداد (٩/ ٣٠٠).
(٢) الزهد لابن المبارك، ص١٢٩.

وأكثر ما تلقاه فـــي القوم صامتاً فإن قال: بـــذ القائلين وأحكما

فاستصغار الدنيا، والوفاء، لا يبدو جمالهما الكامل إلا إذا اقترنا بصمت.

ثم أستاذ الزهد في الجيل التالي بشر بن الحارث الحافي، عضيد أحمد بن حنبل.

قالوا: «ما أخرجت بغداد أتم عقلاً ولا أحفظ للسانه من بشر»[1].

فأبانوا -من وجه آخر- ارتباط حفظ اللسان بالعقل، فهو قد حفظ لسانه من اللغو، فوهبه الله لساناً جريئاً في موقف صدق إزاء أمير خدعته البدعة، فكان يجوب شوارع بغداد يوم تعذيب الإمام أحمد، ينتصر له، ويثبت الناس، ويقود جمهور محبيه المتكتل أمام قصر المعتصم.

وهذا اللسان-لعمرو الله- هو اللسان الذي يجب أن يحرص عليه الدعاة، وبه يفخرون، لسان اللهج بحديث في مسند أحمد، والترويج لعقيدة أحمد، وقيادة من يقتفي طريقة أحمد وطرق من سبق أحمد ومن خلفه من أئمة الفقه والفضل، لا لسان التثبيط والتخذيل.

ورحم الله داعية أمسك فضل القول وقدم فضل العمل.

كلمة قالها عمر.

لم نقلها نحن.



(١) تهذيب التهذيب (١/ ٤٤٥).

خير يعاف الصاخبين[1]

بذل لذيذ، ونصر يتوالى.

عنوان صادق للسنوات الأخيرة من عهد رسول الله ﷺ، عكس طابعه الكامل على المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، فتركهم يتقلبون في أنواع من الفرح غامرة.

يستشعرون حمداً تفيض به قلوبهم على نعمة الإسلام والصحبة، ويراقبون خيراً جامعاً من أحكام الفروض والمندوبات والحرام والمكروهات ينزل به جبريل من السماء كل يوم، أو ينطق به النبي ﷺ؛ فينحسر مع كل نزول ونطق خلق من الجاهلية بشع، ويكتب عليه الجلاء ويزاح؛ ليتاح لهم مجال أن يسألوا عن مكملات الخير الذي هم فيه.

إلا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، كان لا يقنع، فما أن يشارك إخوته من الصحابة فرحهم هذا حتى تلذع ابتسامة قلبه تخوفات من احتمالات شر مبهم يراه مقبلاً، يجهل صفته وعلامته، فيظل قلقاً وجلاً، حتى ينعته له رسول الله ﷺ، ويذكر له بوادره ومقدماته التي ستنبهه يوماً ما إلى الاحتياط ورفع صوته وأذان التحذير.

كان يريد علماً يكمل علم الخير، فصار يحرص على أن يخلو برسول الله ﷺ يسأله.

يقول حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني»[2].

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٩١)، ١٨ صفر ١٣٩٤هـ/ ١٢ مارس ١٩٧٤م، ص٣٦.
(٢) صحيح البخاري (٩/ ٦٥).

فأتقن علم الشر بهذا الحرص، وأحاط خبراً بما سيكون من فتن وسوء ونفاق، حتى احتاج إلى علمه كبار الصحابة، وطفق مثل عمر ﷺ يسأله ويستشيره.

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله ﷺ لحذيفة، وجوابه له، وقبوله تعليمه علم الشر.

لم يقل له: إننا في خير، ونسير من نصر إلى نصر، فاصرف عنك الهواجس، بل أجابه وأعلمه.

وإنما نستمد نحن مسوغات تطرق بحوث فقه الدعوة لعلم الفتن والقواصم، وما ينجي منها من الأنوار والعواصم، من مواطأة النبي ﷺ لحذيفة، وتزويده له بما أراد.

نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل أن يغزونا.

ففي الزمن النبوي الكريم لم تكن هناك فتنة عارمة غير فتنة النفاق التي تتابعت آيات القرآن تجزم أنها غير ضارة مسيرة الإسلام، فكان الصحابة يواجهونها وهم على يقين تام من التغلب عليها، يرونها شوكة في الطريق ليس غير.

لكن من شأن الجماعات العاملة أن يكون فيها خلاف في وجهات النظر واجتهاد متباين، وأن يندس فيها الضعيف الطامع، والعدو المخرب، فأراد حذيفة أن يحتاط، فقبل النبي ﷺ احتياطه، فحدثه وشرح له؛ لننقل نحن لدعاة الإسلام اليوم حديثه، وحديث من شرح حديثه من فقهاء العمل، ونتأمل فيما تحقق منه ووعته الأمة تجربة من تجاربها، فنقيس عليه، ونستخلص منه العبر.

قافلة السكينة تتهادى:

ومن طبيعة أنوار الفطنة أنها مستمرة الإشعاع، ولذلك نرى نور الإقلال من الكلام يرسل حزمة ضوء هادية أخرى تستهل بسبب ثان يدعو عمر بن عبدالعزيز إلى

السكوت، فيقول: «إني لأدع كثيراً من الكلام مخافة المباهاة»[١].

وهذا من أخفى الأبواب التي يقتحم منها الشيطان على الداعية، إذ تأتيه بعض البلاغة، سليقة أو تكلفاً وتصنعاً، فتعجبه، فيقولها من غير نية تعليم أو نصح، فلا يبارك الله بها، ولا يأبه أصحابه لها بالاً، فيتعصب لها، ويجد في قلبه شيئاً تجاههم يضعف مشاعره الأخوية.

وتظل مبررات الصمت الأخرى من بعد هذا تستجلب لها خياراً آخرين، كما استجلبت المهلب، وبشراً الحافي، فيقول التابعي الكبير عطاء أبي رباح: «إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا ثلاثاً: كتاب الله أن يتلوه، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، وأن ينطق بحاجته التي لا بد منها»[٢].

ويضرب الحسن البصري -إذ يختار لنفسه الصمت- مثلاً للمفكر والمهذار يقول فيه: «كانوا يقولون: إن لسان الحكيم من وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول يرجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك. وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى القلب، فما أتى على لسانه تكلم به»[٣].

ويتولى علم السير تعريفنا بحكيم من هؤلاء الذين عناهم الحسن، يعرض كلامه على قلبه، فلا ينطق قبل أن يعد لنفسه جواباً.

اسمه: حاتم الأصم، زاهد قديم رأوه قليل الكلام، سألوه، فقال: «إني لا أحب أن أتكلم كلمة قبل أن أعد جوابها لله، فإذا قال الله تعالى لي يوم القيامة: لم قلت كذا؟ قلت: يا رب: لكذا»[٤].

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٦٨).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣).
(٣) الزهد لابن المبارك، ص١٣١.
(٤) تاريخ بغداد (٨/ ٢٤٥).

وعد الفضيل بن عياض كثرة الكلام خصلة من ثلاث خصال تقسي القلب، وزاد فجعله مرة أخرى علامة من علامات النفاق إذا اقترن بقلة العمل، فقال: «المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل»[١].

فطلب من حملة القرآن، من أجل ذلك، أن يقفلوا أفواههم إلا من حديث خير، فإن «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو»[٢].

وليس أوعظ من أن يتصور أحدنا نفسه مع أولئك الباغين المازحين من طلبة الحديث المخالفين لأعراف شيوخهم، والفضيل يشتاط غضباً وينادي: «مهلاً يا ورثة الأنبياء، مهلاً يا ورثة الأنبياء، إنكم أئمة يقتدى بكم»[٣].

وإنها لحقيقة يذكرنا بها الفضيل يجب ألا تغيب عن بالنا.

إن مجرد حملنا للقرآن، وطلبنا للحديث، يضعنا في مقام القدوة والإمامة، ولا بد وفاء حق هذا المقام.

ويمر بنا طريق الصمت على آخر من الزهاد اسمه داود الطائي، زاد فاشترى من الناس بصمته شهادة خير تنطق يوم يسأله الله، سلمه إياها ابن السماك يوم موته، في وقفة على قبره، حين فرغوا من دفنه، فناداه أمام الجمع المحتشد: «يا داود، كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، وكنت تسلم إذ الناس يخوضون»[٤].

فاستغفر له من حضر، فهي في يمينه حجة يوم اللقاء، وهي في الكتب موعظة

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٠).
(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٢).
(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٨).
(٤) تاريخ بغداد (٨/ ٣٥٥).

لأولي الألباب تحركهم إلى شراء السلامة من وريث لابن السماك.

وعلى درب الصمت نفسه سار الجواليقي اللغوي، صاحب إعراب القرآن، وأحد أعيان ثقات فقهاء الحنابلة ببغداد، فكان: «طويل الصمت، لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق والفكر الطويل»[1].

صمت السندان!

وتلاه الشيخ العارف عبدالقادر الكيلاني قدوة الحنابلة بالعراق في القرن السادس، والمربي المستدرك، فقد عرف خبر من تقدمه، ورأى أثر منقبتهم، ثم التفت فرأى واقعاً يعبث فيه اللهو فساداً وبقايا أنصار البدع البويهية وفلول المعتزلة تتربص؛ لاغتنام فرصة عودة إلى التسلط، فصار يركز في تربيته للألوف التي تحضر مواعظه على ضرورة العمل الصامت: «أريد منكم أعمالاً بلا كلام، العارف العامل لوجه الله سندان يدق عليه وهو لا ينطق، أرض يمشي عليها وتغير وتبدل وهو أخرس»[2].

هكذا، كالأرض المعطاءة الخيرة هو الداعية، تخضر، ويعلو نباتها ويحصد، فينفع الناس، منهم الشكور ومنهم الكفور، وهي ساكنة راضية.

وكسندان الحداد، كتلة صلبة، تنزل عليه المطرقة مرة بعد مرة، شديدة موجعة، وهو هادئ، قانع بما يحمل للناس من خير ونفع.

أو هو كغلام الطبيب جالينوس، فقد كان جالينوس لا يعلّم أحداً، ولا يوظف مساعداً؛ خوفاً من شيوع أسرار طبه، فتظاهر غلام بالتخارس والسذاجة، فقبله جالينوس واختاره مساعداً، حتى حفظ علمه على غفلة من أستاذه، فنطق.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٢٠٥).
(٢) الفتح الرباني، ص٤٦.

«أما سمعت بغلام جالينوس الحكيم كيف تخارس وتباً له وتساكت حتى حفظ كل علم عنده؟»[1].

وكذلك العلوم والحكم، تتعزز وتتأبى، تريد من يتملق لها بالوداعة.

فقارن بين أرض صامتة، وسندان قانع صابر، وبين صوت أزعج الأسد، فأرسل كليلة ودمنة يستجليان الخبر، فوجداه طبلاً معلقاً في شجرة تحرك الريح غصناً فيقرعه، فشقاه بأظافرهما، فنام ملك الغابة مستريحاً!

وليكن شعارك أن لا لغو، ولا أصوات، بل استمتاع بأضواء بعد أضواء.

فالتفت يميناً الآن، تجد مصباح:

النور الحادي عشر، يلمع بفضائل الإمساك عن الجدل.

ويقال له أيضاً: المراء، وهو من لوازم إقلال الكلام وناتجه، ومن مكملاته التي تتم زينته.

فالجدل خلق رديء كثير السوء، وتتجسم آثاره في الجماعات بشكل أبرز مما يلحق الأفراد منه، فإن الفرد قد لا يتجاوز أن يجد ضيقاً في صدره إذا تجادل مع صاحب له بمعزل وعلى انفراد، ولكن الجماعة التي يتجادل فيها اثنان، على مسمع من البقية، تحرم من الخير المقترب منها، ولو لم تتعدد فيها جهات الجدل وأعداد المتجادلين، كان من طبيعة الخير أن يجفل من قليل الصخب، ويأبى الدخول على قوم لا يستقبلونه بسكون، ولو كانوا صالحين.

ففي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «إني خرجت؛ لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان

(١) الفتح الرباني، ص٣٨.

فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، التمسوها في التسع والسبع والخمس»[1].

والملاحاة: المنازعة والمخاصمة التي تتضمن جدلاً، وفي صحيح مسلم أنهما كانا «يحتقان»؛ أي: يدَّعي كل منهما أنه المحق دون صاحبه.

وتعبيره ﷺ بـ«عسى» من باب التأويل بالمستحب، أو إشارة إلى ما سيكون من زيادة بذل المجهود في التماسها، وإلا فإن في الجزم بتعيين ليلة القدر من الخير للأمة الإسلامية في جميع أجيالها ما هو ظاهر لمن عرف قيمة الدعاء.

ولمثل هذا السلب جعله التابعي مسلم بن يسار جهلاً يجد الشيطان خلاله مجالاً، فقال: «إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته»[2].

بل هي أكثر من زلة وأكثر من سوء، فإن الإمام الأوزاعي قد أحصاها فوجدها خمس زلات قبيحات تزيد طرد الخير قبحاً، فقال: دع من الجدال ما:

- يفتن القلب.
- وينبت الضغينة.
- ويجفي القلب.
- ويرق الورع في المنطق، والفعل[3].

وهذا إثقال واضح لكفة الشمال من ميزان المتجادل ينبئ عن خسارته والعياذ بالله، خسارة يصعب معها الرجاء إذا اقترنت بلجاجة وإعجاب، إذ تتم حينذاك، كما رآها التابعي بلال بن سعد فقال: «إذا رأيت الرجل لجوجاً مارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته»[4].

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٠).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٩٤).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ١٤١)
(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٢٨).

قول خبير ليس بكاذب ولا مبالغ.

والمخرج من ذلك سهل بسيط ليس بالصعب عند الموفق، لا يستدعي أكثر من إغلاق وفتح.

يغلق ويقفل باب الجدل، ويرمي بالمفتاح بعيداً، ثم في حركة سريعة يفتح باب العمل؛ ليجد نفسه في إطلالة بديعة تأخذ بمجامع فؤاده على ألوان متموجة تفيض من مشكاة.

النور الثاني عشر، وتنبعث بشعاع المبالغة في الصدق يوم الفتنة، فإنه لا طريق أقرب من الصدق.

وحين تاب الله على كعب بن مالك ﷺ لما افتتن فتخلف في الثلاثة الذين خلفوا، قال: «يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت»[1].

فغدا الصدق من يوم اختاره كعب سُنة لتوبة المفتتنين، وكفاية لاحتياط الحذرين.

صدق يتجاوز مقداره العرفي الذي تدين بفضيلته كل الأمم حين يتعامل أفرادها في أسواقهم وزيجاتهم، ويتعداه؛ ليكون نوعاً من الحساسية الإيمانية تستشعر الرقابة الربانية، حين ترسل الفتن المتربصة لغزونا من يوسوس في صدورنا ويشجعنا على الانتصار لنفوسنا عند الخلاف بزيادة كلمة نتأول في إضافتها أنها تفسر كلام المخالف، أو بحذف كلمة بتأويل مقارب، أو باختيار لهجة لرواية الكلام تصرفه عن مقاصده الظاهرة وتحمله ما لا يحتمل من المعاني المعيبة.

فإن انضاف إلى مثل هذه الكذبة في الزيادة، أو النقصان، أو لهجة الرواية، نشر

(١) صحيح البخاري (٦/ ٨).

لها في المجالس، وسفر رسل صاحبها بها في الأقطار والأمصار: خيف على صاحبها أن يكون ذلك الرجل الذي رآه النبي ﷺ في رؤياه المرعبة المخيفة لما أتاه آتيان فانطلقا به، فمرا به: «على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت: «سبحان الله! ما هذا؟»، قالا: «إنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق»[1].

ورسول الله ﷺ لا يرى إلا حقاً.

فليحذر صاحب الهوى أن يكذب كذبة ينصر بها هواه إلى حين سريع الزوال، فتبلغ كذبته الآفاق، ويحملها البريد، وتنزل بها حروف المطابع، فتزل بها أقدام، فيفعل الزبانية بشدقه ومنخره وعينه مثل ما فعلوا بهذا الذي رآه النبي ﷺ.

ولمثل هذا كان عقلاء الناس دوماً يرون للصدق مكانة أرفع من مكانته التي يراها له العامة، مثل إياس بن معاوية بن قرة الذي هو من سادة الثقات ودهاة العلماء، فإنه كان يقول: «امتحنت خصال الرجال، فوجدت أشرفها صدق اللسان»[2].

وإن صدقاً في مساومة على شراء طعام في سوق لهو أهون من أن يحفل به هذا النابغة هذا الاحتفال، لكنه كان يريد معنى وراء ذلك، يعرفه الرجال.

صدق عرفه الحافظ المحدث إسحاق بن راهويه الحنظلي، فتناوله، فأدى به

(١) صحيح البخاري (٩/ ٥٦).
(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٣٩١).

إلى الإمامة وسيادة الآفاق، فقال تلميذه الإمام الدرامي: «ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه»[1].

وثقات المحدثين الصادقين من أهل زمانه كثير عددهم ألوف بعد ألوف، لكنها المبالغة في الصدق سودت إسحاق عليهم.

والقلب الحي يرى في توبة كعب وطريق إسحاق مواعظ، ودعوة للاقتداء.

وللمفتون ما يختار.

(١) طبقات الشافعية (٢/ ٨٦).

النجوى.. طريق البطالة[1]

رائع هو فقه الفاروق حقاً.

فالحكم العمرية، في إجمال قواعد الإيمان وموازين الإسلام وأصول الدعوة، هي أوضح وأحسن تفسير شامل للقرآن الكريم ولحديث رسول الله ﷺ، ويشعر الفاحص لأقواله رضي الله عنه أنها نتاج تأمل، صنف عمر خلاله النصوص التفصيلية وجزئيات الشريعة والعقيدة إلى مجاميع متقاربة في معانيها وعللها، وألحق كل حكم بنظيره وشبهه، ثم رأى من بعد القاسم المشترك الذي ينتظم كل مجموعة، فاستل من ذاك القاسم قاعدة أو ميزاناً أو أصلاً.

إنه نمط من الاجتهاد الاستنباطي الذي لم يفصح عن خطواته عمر، ولم يسجل مراحله أحد، ولكن من يعاني التفقه يدرك أنه من المفترضات البديهية التي كانت سابقة حتماً لنطق الراشد الثاني رضي الله عنه بما نطق، فإن الحكمة تنقدح في قلبه في ساعة تفكر، فتظل تتقلب وتجيش في صدره مدة، حتى تصادف ذروة خشوع في إحدى صلواته، فيرجح عنده صوابها مع ذاك التصاعد، فيدعها بعد انفلاته من صلاته موعظة سائرة على مدى الأجيال لأولي الاعتبار.

كل فقهه وفعله كان كذلك رضي الله عنه حتى إنه كان يخطط لجيوش الفتوح وهو في صلاته، كما أخبر عن نفسه.

ولذلك كانت الحكمة العمرية مرقاة المتفقة، ولذلك كان السابق، ولذلك أيضاً.. كان المنتصر..

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٩٢)، ٢٥ صفر ١٣٩٤هـ/ ١٩ مارس ١٩٧٤م، ص٣٦.

الفتن بقية جاهلية:

ومقالته: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

مقالة جمعت كل ضروب فقهه ذاك، فهي قاعدة إيمانية إن شئت، وهي ميزان، كما أنها أصل من أصول الدعوة أصيل.

لا بد من معرفة الجاهلية.

يسميها الجاهلية متابعة للقرآن ولرسول الله ﷺ، وهي الشر كذلك، والشرك، صغيراً كان أم كبيراً، وحكم الطاغوت، وهي المعاصي غير المكفرة صاحبها أيضاً.

كل ذلك يعنيه عمر.

ويشهد لنا في أنها المعاصي أيضاً، لمها وكبائرها، قول رسول الله ﷺ لأبي ذر حين عيَّر بلالاً بأمه السوداء: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

فسماها جاهلية، لأنها بقية باقية من خلق الجاهلية وإن لم تنقل أبا ذر وراء حائط الإسلام.

قال البخاري: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[1].

قال ابن حجر: «أي أن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية»[2].

وهكذا توافق رأي عمر مع فعل حذيفة بن اليمان في سؤاله الرسول ﷺ عن الشر والفتن مما عرفناه عنه حين رؤيتنا الماضية لدور الصخب في إجلاء الخير.

(١) صحيح البخاري (١/ ١٥).
(٢) فتح الباري (١/ ٩٢).

والفتنة معصية، فهي جاهلية وإن لم تسحب صفة الكفر على مقارفها، ولا بد من معرفتنا بها، وتفقيه الدعاة بأوصافها وعلاجها، وإلا نقض الإسلام عروة بعد عروة.

بل الحقيقة أن التفرق والخلاف كان من أبرز ظواهر جاهلية العرب، وأولى المعاصي بتطرق فقه الدعوة لها.

وذلك مبرر جديد، عمري النسبة، يشجع بحوثنا على فضح أباطيل الفتن والمفتنين.

والفتن أنواع وضروب، منها التي في العقيدة، ومنها التي في التعامل والسلوك والحلال والحرام، ومنها الطفيفة، ومنها الغليظة، ونحن نتعلم ها هنا فتن التعامل الجماعي التي تطرأ على المجموعة المتعاهدة على الدعوة إلى الله، الساعية لإقامة حكم الله، أو الحاكمة به.

يجب أن نعرف جاهلية الخلاف وخلع الطاعة ونكث العهد والتخذيل، وإلا نقضت وهدمت عرى الدعوة عروة إثر عروة، وتقاعد الدعاة عن العمل فوجاً تلو فوج، وارتفعت معاني الأخوة من ساحتهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وهو كما قال عمر، فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم، ولهذا يوجد عند الخبير بالشر وأسبابه -إذا كان حسن القصد عنده- من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيماناً وجهاداً ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

وعي يفضح المخادع:

ومن حكمة عمر في هذا الباب أيضاً قوله: «لست بخب، ولا يخدعني الخب».

والخب، بفتح الخاء وكسرها، هو: المخادع الخبيث الذي يسعى بين الناس بالفساد.

وهذه الدعوة مباركة، تربي أبناءها على ألا يكونوا أخباباً، بل تؤلف أرواحهم، وتريهم أنوار الفطنة، وتعلمهم النية الصالحة والقول الطيب، وتحذرهم سهام الشيطان، والتأويل المستدرج، ثم توجه الرهط المخطئ منهم نحو تربية تستدرك.

ولكنها دعوة مفتحة الأبواب، قد يختلس الخب فرصة، فيلج على حين غفلة من الحارس، ويتخفى دهراً.

ولذلك، وجب على هذه الدعوة المباركة أن تربي أبناءها أيضاً على اكتشاف مخادعة الخب، كل خب، وتصف لهم لحن قوله، وظلمات دروبه، وخروق استدلالاته.

«فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به»[1].

قالها ابن تيمية ثانية.

ولقد كان الجدل، والكذبة التي تطوف الآفاق، من آخر أساليب الأخباب التي فضحتها أنوارنا، وما زالت الفطنة العمرية الصمت، تتوهج، لتؤنس مسيرتك بلألأة ألوان طيف:

النور الثالث عشر، من شمس: ترك النجوى.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٢).

فإن مجالس المؤمنين لم تعرف إلا زيادة الإيمان لها هدفاً، وكان ابن رواحة يأخذ بيد أبي الدرداء ﷺ ويقول: «تعال نؤمن ساعة»[1]، فيتذكران أمر الإيمان، ويتعرفان على مسالك التوبة، ويتأمران بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

وكان عمر بن عبدالعزيز يأمر أبا بكر بن عمرو بن حزم رحمهما الله بالجلوس للتعليم، ويقول له: «ولتجلسوا، حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»[2].

وجعل أحمد بن أبي الحواري الدمشقي المجالسة دواء قسوة القلب، فقال: «إذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين، واصحب الزاهدين».

فمجالس المؤمن عزيزة، ولا ينبغي له أن يجلس إلا بنية أن يؤمن ساعة ثم يقوم، متداولاً آية أو حديثاً أو وصية حكيم من صالح المؤمنين، وليس من حقه أن يميل بالجالسين معه إلى نقد اجتهادات قادته بما يهاب أن يذكره لهم صريحاً.

وكذلك غدوات المؤمنين وروحاتهم، فإنها ثمينة مثل مجالسهم، ومن لم يجد عند الذين حوله فقهاً فإن عليه أن يسبح طلباً له، كما كان التابعي علقمة بن قيس النخعي الكوفي يقول لأصحابه: «امشوا بنا نزدد إيماناً»؛ يعني: يتفقهون[3].

أو يذهب إلى من يرجو أن يلين له قلبه، إذا ألهاه الصفق بالأسواق وأحاديث الرواتب وفرق الأسعار، كما كان التابعي ميمون بن مهران يذهب إلى سيد التابعين الحسن البصري ويطرق بابه ويقول له: «يا أبا سعيد، قد آنست من قلبي غلاظة، فاستلن لي منه»[4].

(١) الزهد لابن المبارك، ص٤٩٠.
(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٥).
(٣) حلية الأولياء (٢/ ٩٢).
(٤) المرجع السابق (٤/ ٨٣).

فإن لم يجد الصاحب الجليس الصالح، والمداوي الملين، فإن أمامه خلوة ساعة تذيقه حقيقة اللذة، فإنه «ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل»[1]، كما يقول التابعي مسلم بن يسار.

ثم أمامه المحراب، يذكره به التابعي بكر بن عبدالله المزني ويتساءل: «من مثلك يا ابن آدم؟ خلِّ بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان»[2].

الاجتهاد لا ينمو في الجيوب:

فأما منصف نفسه فيطلب ذلك، من مجلس، أو رحلة، أو خلوة، أو لبث بمحراب، يأنس بمخالطة من شاء من أفراد جماعة الإيمان، أو يقتدي بما يروى له من فعل المهتدين.

وأما المشرف على ضلالة، فإنه يتوارى مع صحب له عن العيون، ويكتم سره عن الجماعة، ويبثه لمن يهواه، فيؤز بعضهم الحمية النفسية في البعض الآخر، فيكون حنق، فتثبيط، فتبرير لا يبرأ من تدليس، فإذا هو افتتان.

تلك التي عرفها عمر بن عبد العزيز فقال: «ما انتجى قوم في دينهم دون جماعتهم إلا كانوا على تأسيس ضلالة»[3].

وهذه هي بداية كل بدعة في تاريخ المسلمين، تبدأ بالنجوى، ثم يكون الاستدراج.

فالنجوى دون الجماعة في المفاهيم التي هي من الدين، أو في خلع الطاعة الشرعية التي هي من الدين أيضاً، التي بسببها سمي الخوارج الخالعين للطاعة:

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٩٤).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٢٩).
(٣) الزهد للإمام أحمد، ص٢٩١.

مبتدعة، يقرن ذكرهم بالجهمية والمرجئة، كل ذلك ضلالة داخلة في قول عمر.

ولا تغير النية الصالحة في طبيعة النجوى أو تسحب عليها ذيل الصلاح تبعاً، ولا ادعاء الاجتهاد وطلبه من خلالها، فإن الاجتهاد لا يترعرع سراً، لاحتياجه دوماً إلى التقويم، وإلى الشهادة له أو عليه من قبل الآخرين، وليس يتاح ذلك في أجواء التناجي المتواري المستخفي الذي يشبه التهامس.

ولقد أظهرت لنا التجارب الكثيرة أن معظم التناجي يؤدي إلى الخروج ونكث البيعة، ولا يتجاوز أن يكون مرحلة أولية للماشي في درب الفتنة، درى أو لم يدر، ولا تتجاوز حجة المتناجي أن تكون هي نفسها حجة الخارج، كلاهما يدَّعي أنه يريد مصلحة الإسلام، وإنه يمارس ضرباً من العبادة، والخطأ يلفهما لفاً.

كل الخوارج مخـــــط في مقالته وإن تعبـــــد فيما قـــــال واجتهدا

وتقريرات سيد قطب ﷺ لمجالات النجوى المذمومة في القرآن الكريم تلتقي مع هذا الذي نقول، ويذهب لأبعد ممن يتوهم أن الله تعالى قد ذم النجوى في حياة رسول الله ﷺ فقط، فهو يعقب على الآية الكريمة: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَا ١١٤﴾ [النِّسَاء:١١٤].

فيقول: «لقد تكرر في القرآن النهي عن النجوى، وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمراً، وكان اتجاه التربية الإسلامية، واتجاه التنظيم الإسلامي كذلك أن يأتي كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبي ﷺ، مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه في الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة، التي ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة في هذه الخطة، هو ألا تتكون جيوب في الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها، أو بأفكارها واتجاهاتها، وإلا تبيت مجموعة من الجماعة المسلمة أمراً بليل، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل، أو تخفيه من الجماعة وتستخفي به من أعينها، وإن كانت لا تختفي به عن الله، وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

وهذا الموضع أحد المواضع التي ورد فيها هذا النهي عن التناجي والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها.

ولقد كان المسجد هو ندوة الجماعة المسلمة، تتلاقى فيه وتتجمع للصلاة ولشؤون الحياة، وكان المجتمع المسلم كله مجتمعاً مفتوحاً، تعرض مشكلاته التي ليست بأسرار للقيادة في المعارك وغيرها، التي ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسن عرضاً عاماً، وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعاً نظيفاً طلق الهواء، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره إلا الذين يتآمرون عليه، أو على مبدأ من مبادئه -من المنافقين غالباً- وكذلك اقترنت النجوى بالمنافقين في معظم المواضع.

وهذه حقيقة تنفعنا، فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئاً من هذه الظاهرة، وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات»[1].

وهكذا يخرج الموفق من ضيق مجلس النجوى إلى رحاب التشاور الواسعة وبهجة الإصلاح بين الناس، ابتغاء مرضاة الله، والله نور السماوات والأرض،

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٢٦).

فيجعل الله له نوراً جديداً، يزيد قوة إبصاره، ويشجعه على سرعة الفرار إلى الله، فيمر في محاذاة مصباحه، مصباح هذا النور الجديد، ويلتفت إليه ليحصي فضل الله عليه، فإذا هو:

النور الرابع عشر، المتدلي من ثرياً.

حمل القلب على استقباح الفتن:

فإن المرء مطالب بأن ينكر بقلبه كل أنواع الفتن، وأن يستشعر عيبها، ولو لم يدخل طرفاً فيها، فإن الاستحسان يوشك أن يغري صاحبه بالولوج.

لذلك، لا يعد أحدنا بريئاً من هذه الفتن تمام البراءة إلا بمثل هذا الاستقباح.

وقديماً أبى شريح القاضي أن يمزج نبله وفضله بشيء من آثار الفتن، فلبث تسع سنين كاملات معتزلاً فتنة القتال أيام أرسل عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً ليقاتل عنه ويحكم العراق باسمه، كان شريح خلالهن: «لا يخبر ولا يستخبر»، مع أن ابن الزبير كان له من التأويل الصادق أكثر من غيره، فقيل لشريح: قد سلمت! قال: «فكيف بالهوى»[1].

وكان هواه مع ابن الزبير.

أي أنه كان يتهم نفسه بعدم البراءة وإن لم يشترك في قتال أو يقف خطيباً مؤيداً؛ لأن قلبه كان يميل إلى ابن الزبير.

فإذا كان شأن مجرد الميل القلبي كذلك، فمن باب أولى أن تكون موالاة أهل الفتنة، والتصريح بالرضا عن فعلهم، كالدخول في فتنتهم نفسها، أو منزلة قريبة من الدخول، وإن أبقى الراضي لنفسه صورة الوفاء بالبيعة، ولم ينسب نفسه إلى جمهور المفتتنين.

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ١٤١).

وخلال سرد الإمام أحمد لأوصاف الزهد وطبقات الزهاد وعظنا موعظة صريحة، أحيا بها فقه الحسن البصري إمام التابعين، فروى استفتاء التابعي عبدالواحد بن زيد للحسن.

قال عبد الواحد: «قلت للحسن: يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب، إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلبه!

قال: يا ابن أخي: كم يد عقرت الناقة؟

قلت: يد واحدة.

قال: أليس قد هلك القوم جميعاً برضاهم وتماليهم؟»[1].

وابن المهلب هذا هو ابن المهلب بن أبي صفرة البطل مبيد الخوارج، أعجبته نفسه، وغره ما ورثه من جاه أبيه، فعشق الرئاسة، فأعلن الانفصال عن الدولة الإسلامية الفتية.

فالموالاة كالدخول، ليس من فرق بينهما عند رأس فقهاء التابعين بإحسان.

وهي كذلك عند الذين بعده، فجعل بعضهم استئناس المرء وصحبته للمتخلقين بأخلاق المفتتنين مسوغاً لنا لتصنيفنا إياهم معهم، فقال:

- دليل وحشتهم: أنسهم بالمستوحشين.
- ودليل بطالتهم: صحبتهم للبطالين.
- ودليل تخليطهم: صحبتهم للمخلطين.

ولعمرو الله ما تجنى ولا ظلم.

فالعمل الإسلامي رحب، كله أجر ومثوبة ونور، ولمثله يبتسم العاقل مستبشراً،

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص٢٨٩.

فإن استوحش بعض من يدعيه، وعبس وبسر، ثم استأنس بوحشة آخر؛ فإنه شريكه دون ريب.

وهذه الفتن كلها بطالة وسلبيات، وقعود عن العمل وانزواء، وانحدار تدريجي نحو الركود، ثم سبات وخطيط، وصاحب أصحابها منهم دون ريب.

وهي كلها استعارات، وترقيعات، ومزج للباطل بالحق، وتدخين وتخليط، ومن رضي أن يقعد بباب دكان صاحبه الحداد، لتطربه الأنغام النشاز التي تبعثها مطارق الحدادين، فلا يعجبن إن ظنه الناس حداداً.

فهرس الموضوعات

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الابتداء ٥
هو صفاء الابتداء: ٥
وهي النية الحرة: ٧
وكذلك كان الصالحون: ٨
وهو قدم الهول: ١٠
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. نحو أفراح الآخرة ١٤
استعلاء ثمنه التعب ١٥
الصغيرة: ١٥
وأنت صاحب إيمان: ١٦
وأنت صاحب غاية: ١٧
وأنت طالب نفوذ إلى الله: ١٧
محنة الفراغ والفظة: ١٨
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. هواية جمع الغبار ٢٦
درجات طبقات: ٢٧
إن هذا الحق ثقيل: ٢٧
شرط وثمن: ٢٨
تحية إلى نادي القادسية ٣١
شاهد من أهلها يقول: السلطان الأحمر لم يكن طاغية! ٣٤
بقلم: محمد جميل بيهم: ٣٦

قول على قول فما هو الصحيح منهما؟ ٣٦
لماذا اضطر عبد الحميد لاستعمال سياسة فرق تسد؟ ٣٧
منشأ التهم الموجهة إلى السلطان عبد الحميد: ٣٨
عبد الحميد يتخذ العرب عصبية له: ٣٩
اللبنانيون يرعون ضيوفهم من الأسرة العثمانية: ٤١
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. صفحة جيل التأسيس ٤٣
درس من القاضي الزبيري: ٤٤
لا تشتغل بترهات: ٤٧
المراحل الثلاث: ٤٩
حديث من استراح: ٥١
التربية الحركية للقاعدة الصلبة المتوالية الفقهية الجهادية ٥٤
روح من جهاد فقهاء التابعين: ٥٦
طبقة فقهاء مطلع القرن الثالث: ٥٦
ادفنوا سيفي معي!١ ..... ٥٩
تربية تتركز في البخاري: ٥٩
وللزهاد نصيب! ٦٠
محكمة الزاهد.. مدارج الفقيه: ٦٠
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. سباق في المجتمع المسلم ٦٢
دولة العشرين : ٦٤
رجال في السباقا: ٦٥
المتوالية الأندلسية: ٦٨
تقرير عن المعركة: ٧٠
التربية الحركية للقاعدة الصلبة سعة الرجاء رغم قلة العدد ٧٢

حساسية القلب: ٧٤
طوبى للمجاهد: ٧٦
نحو الميتة الكريمة: ٧٧
الجهاد.. نهج دعوة وواجب داعية ٨٠
قصص الأولين مواعظ الآخرين: ٨١
رباعي اليمامة: ٨٣
روائع في الفتوح: ٨٥
ليلة يشغفها خالد حبًّا! ٨٨
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. حين تتكسر الأقياد ٨٩
مصداق من الشرق: ٩١
ومصداق من الغرب: ٩٣
زمرة القلب الواحد ٩٩
فتور ذي أخلاط: ١٠٠
وداد وانتماء: ١٠١
الإمارة الناصحة سباقة: ١٠٣
التحريش الغامض: ١٠٤
لا خير في طاعة هاوية: ١٠٥
نحو تربية تستدرك ١٠٨
لذة تغري القلب فيتورط: ١٠٩
اقتحام قبل أوانه: ١١٠
ريث يوحي: ١١١
ورثة الأنبياء على درب الأناة: ١١١
طريقة سلفية في تعليم الوفاء: ١١٣

شهيد فلسطين الأول (الحلقة الأولى) ١١٥
منهجنا في البحث: ١١٦
منهجنا في التحليل والحكم: ١١٨
نزن المسلم بحسناته وأخطائه معًا: ١١٨
الأعمال فاضلة ومفضوله وثم كبائر ولمم: ١١٩
كل حاكم بما كسب رهين: ١١٩
احتمال صواب كل مجتهد: ١٢٠
تماثل الأحداث يقتضي تماثل الأحكام: ١٢٠
الأتراك المسلمون قبل اليسار العالمي: ١٢٣
الثقات يوثقون عبد الحميد: ١٢٤
شهيد فلسطين الأول (الحلقة الثانية).. عبدالحميد ١٢٧
إلحاد قادة حركة الاتحاد: ١٢٩
حلف مع اليهود: ١٣١
المكر الماسوني في خدمة الانقلاب: ١٣٤
وللباطنية دورهم: ١٣٦
وأصحاب بدعة اللوم أيضاً: ١٣٨
صورة قبيحة وعصابة مجموعة: ١٣٩
رد على مقال مجلة «العربي» (الحلقة الثالثة) شهيد فلسطين الأول عبدالحميد ١٤٢
الإنجليز يعاونون الخونة: ١٤٢
قضية الأرمن كانت الزناد : ١٤٤
افتراء على سلطان التسامح: ١٤٧
التجسس الحميدي: ١٥٠
اضطرار عبد الحميد إلى تفريق نصارى البلقان: ١٥١

رد على مقال مجلة «العربي» (الحلقة الرابعة والأخيرة) شهيد فلسطين الأول عبدالحميد ١٥٥
سياسة الجذب الوقتي: ١٥٥
الميول العربية تطغى على عبدالحميد: ١٥٩
دور الإنكليز في تأليب العرب: ١٦٢
حقيقة القومية بين التمويه والتطبيق: ١٦٦
شبهات واهية ١٦٩
إسفاف الكاتب والمجلة: ١٧١
أخطاء عبدالحميد: ١٧٢
التأويل المستدرج ١٧٥
أخوة العمل لله: ١٧٥
بداية الفتنة تأويل: ١٧٦
سواد ينتشر: ١٧٨
الدعوة محفوظة: ١٧٩
النسافات: ١٨٠
سلاسل العيوب ١٨٣
علياء مقدمة عليين: ١٨٣
ذو العيب يحتاج الدعاية: ١٨٣
الإتمام الصامت: ١٨٤
تثبيت وتثبيط: ١٨٤
للعيوب نقاط انطلاق: ١٨٦
توالد مستمر : ١٨٨
سهام الشيطان ١٩٠
لا قليل من الإثم: ١٩٠

نحو براءة عمرية: ١٩٢
ولكنا خلف نخشى الفضيحة: ١٩٢
لا ترفع سعرك: ١٩٢
دواء العجب: ١٩٤
صرعى المدائح الخمس: ١٩٥
كفى بالله مزكيًا: ١٩٨
الهضيبي مُعلم الصمت الشامخ ٢٠٠
حتماً مفروضاً: ٢٠٤
الهوى الناقض للبدء النابض ٢٠٦
باستقلال: ٢٠٦
مع الله في كل حال: ٢٠٧
المرتقي يخاف السقوط: ٢٠٩
سبب الهوى: ٢١٠
الهوى أسر وقيد: ٢١٠
بطالة وقلة أدب: ٢١٢
ضرورة علاج الهوى: ٢١٣
أداء الواجب: ٢١٤
تأليف الأرواح ٢١٧
عصبة العزم باقية: ٢١٧
تكامل يتبادل الخير: ٢١٨
نظرية الأشكال المؤتلفة: ٢١٩
مع السرب في النشيد: ٢٢١
علمك بالفساد صلاح: ٢٢٢

تنقية وصفاء: ٢٢٤
احذر السقف! ٢٢٦
الجندية طريق القيادة (القسم الأول) ٢٢٧
الإمارة حمل ثقيل: ٢٢٧
عمر يطور مذهب التأليف: ٢٢٨
مدرسة الثوري تواصل التربية: ٢٣٠
تجريب وتدرج: ٢٣٢
لا.. يا عباد الرحمن: ٢٣٣
الجندية طريق القيادة (القسم الثاني) ٢٣٤
سيد يشرح: ٢٣٤
الاستثناء لا يقلد: ٢٣٨
يوسف والخزائن: ٢٣٩
في التأني السلامة: ٢٤١
نكلها إلى قادة أفضل: ٢٤٢
أنوار الفطنة تبدد ظلمات الفتنة ٢٤٤
أثناء التأني يكون الحساب: ٢٤٤
ازدواج.. والقلب واحد: ٢٤٥
مصاعب ولا صمت لها: ٢٤٦
لماذا الجفاف يا عين؟ ٢٤٨
لا تظلم نفسك: ٢٤٩
ابتسامة الحياء مفتاح الأنوار: ٢٥١
تناصح.. وتغافر ٢٥٤
شرط بشرط ٢٦٣

عتاب بمقدمة تفسير وخاتمة ابتسام: ٢٦٣
عائشة تطبق الميزان: ٢٦٨
أمنية ولا سعد لها: ٢٧٠
إنه دم الدعوة ٢٧٢
أسباب مرض الغمز وأعراضه: ٢٧٤
علاج الهمز برقابة القريب: ٢٧٦
ولا تعن سفاكاً! ٢٧٩
دعوة القول الطيب ٢٨١
شبهة معترضة : ٢٨٢
الكلمة الطيبة ترفع درجات: ٢٨٥
صواب القول من صواب العمل: ٢٨٧
خير يعاف الصاخبين ٢٩١
قافلة السكينة تتهادى: ٢٩٢
صمت السندان! ٢٩٥
النجوى.. طريق البطالة ٣٠١
الفتن بقية جاهلية: ٣٠٢
وعي يفضح المخادع: ٣٠٤
الاجتهاد لا ينمو في الجيوب: ٣٠٦
حمل القلب على استقباح الفتن: ٣٠٩
فهرس الموضوعات ٣١٣


المجتمع
مجلة المسلمين في أنحاء العالم
AR WWW.MUGTAMA.COM
EN WWW.EN.MUGTAMA.COM